الدكتور
عبد الوهاب المسيري

مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي



Introduction to Studying

THE ARAB-ISRAELI STRUGGLE

Muqaddimah li-Dirāsat
Al-Ṣirāʿ al-ʿArabī al-Isrāʾīlī

Dr. ʿAbd al-Wahhāb al-Masīrī

يقدم هذا الكتاب رؤية شاملة لجذور الصراع العربي الإسرائيلي ومساره ومستقبله.

وقد عرضه المؤلف عرضاً استقصى فيه موضوعه على صغر حجمه، وركّز على الضروري من النقاط الهامة للبحث؛ فتحدث عن الصهيونية والمسألة اليهودية، وعن الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني وعن الأزمة الصهيونية وعن الجماعات اليهودية، وشفع ذلك كله بتاريخ موجز للصهيونية فحاول أن يقدم فيه خريطة متكاملة لتطور الفكر الصهيوني من خلاله.

كتاب بقلم عالم متخصص يعرض لقضايا حساسة.

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel:(412)441-5226
Fax:(775)417-0836
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-59239-086-2



SROUR ALWANI 2002

عبد الوهاب المسيري

متخصص بالدراسات الصهيونية

من مواليد دمنهور بمصر العربية ١٩٣٨م

الأعمال السابقة والحالية

- رئيس وحدة الفكر الصهيوني وعضو بمجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

- مستشار ثقافي للوفد الدائم بجامعة الدول العربية في هيئة الأمم المتحدة.

- أستاذ الأدب الإنكليزي والمقارن بجامعات عين شمس والملك سعود والكويت.

- مستشار أكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن.

- عضو بمجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، ليسبرج، فيرجينيا.

له مؤلفات متميزة كثيرة بالعربية والإنكليزية تتناول بحوثاً عن اليهودية والصهيونية وتاريخهما وفكرهما وأزماتهما وإشكاليات العنف والتحيز القائمة فيهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي

جذوره، ومساره، ومستقبله

د. عبد الوهاب المسيري

مقدمة

لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي

جذوره، ومساره، ومستقبله



الرقم الاصطلاحي: ١٦٣٣,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-086-2

الرقم الموضوعي: ٣٢٠

الموضوع: العلوم السياسية

العنوان: مقدمة لدراسة

الصراع العربي الإسرائيلي

التأليف: الدكتور عبد الوهاب المسيري

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ١٩٢ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

Http://www.fikr.com

e-mail: info@fikr.com



الطبعة الأولى

شعبان ١٤٢٣هـ

تشرين الأول(ديسمبر)٢٠٠٢م

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

الموضوع — الصفحة

* * *

مُقدِّمة

يضم هذا الكتاب ستة فصول تحاول تقديم رؤية شاملة لجذور الصراع العربي الإسرائيلي ومساره ومستقبله.

فيقدم الفصل الأول (يهود أم جماعات يهودية؟) رؤية بانورامية للجماعات اليهودية في العالم: أعدادهم وهجراتهم وتنوعهم وعدم تجانسهم.

ويتناول الفصل الثاني (يهود أم جماعات وظيفية يهودية؟) مفهوم الجماعة الوظيفية ويحاول تطبيقه على الجماعات اليهودية.

أما الفصل الثالث (الصهيونية والمسألة اليهودية) فيبيِّن كيف تبلور الفكر الصهيوني داخل التشكيل الحضاري الغربي والإمبريالي.

أما الفصل الرابع (موجز تاريخ الصهيونية) فيحاول أن يقدم خريطة متكاملة لتطور الفكر الصهيوني.

ويتناول الفصل الخامس (الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني) الظاهرة الصهيونية، ويحاول أن يحدد سماتها العامة والخاصة، ويطرح تعريفاً لها، بدلاً من التعريفات الغربية المتحيزة ذات المقدرة التفسيرية الضعيفة.

ويتناول الفصل السادس والأخير (أزمة الصهيونية) مصادر أزمة الأيديولوجية والتجمع الصهيوني ومدى تأثيرها في مستقبل إسرائيل.

وقد نُشرت هذه الدراسات ما بين عامي ١٩٩٦ و ٢٠٠٠م في أماكن متفرقة:

١-**دليل إسرائيل العام**، تحرير صبري جريس وأحمد خليفة (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٩٦م).

٢ - مجلة **البحوث والدراسات العربية في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧م.**

٣ - مجلة **شؤون عربية**، حزيران (يونيه) ٢٠٠٠م، وكانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٠ على التوالي.

وقد قمنا بتحديث ما يتطلب منها التحديث، وعدلنا البعض الباقي وأضفنا له ليكون متسقاً مع تطور رؤيتنا للموضوع ومع تطور الأحداث.

والله من وراء القصد.

عبد الوهاب المسيري

دمنهور - القاهرة

أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٢م



الفصل الأول

يهود أم جماعات يهودية؟

كي يتيسَّر لنا فهم موضوع الجماعات اليهودية والصهيونية، لا بد أن نبتعد عن التعميمات والقوالب اللفظية الجاهزة، ومن أكثر هذه القوالب شيوعاً كلمة (اليهود)، والتي تشير إلى اليهود بشكلٍ عام مطلق.

وَهْم التاريخ اليهودي

يتحدث كثير من الدارسين عن اليهود وكأنهم كتلة واحدة متماسكة ومتجانسة فعلاً؛ ويتم التعبير عن هذا بكلمات، مثل كلمة (جوري Jewry) الإنجليزية التي تعني: «اليهود باعتبارهم كلاً متماسكاً»، ويصبح افتراض الوحدة والتماسك والتجانس أقل كموناً وأكثر وضوحاً حينما يتحدث الباحث عن اليهود باعتبارهم (الشعب اليهودي) و (الأمة اليهودية)، وهو ما يعني أن اليهود ينتمون إلى تشكيل حضاري واحد، وأن لهم تاريخاً واحداً، وأن مصالحهم واحدة وتطلعاتهم واحدة، وأن العناصر المشتركة بين يهود العالم أكثر أهمية من العناصر غير المشتركة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان ثمة عناصر مشتركة بين يهود العالم، فما هي؟ وهل هذه العناصر المشتركة أكثر تفسيرية وأهمية من العناصر غير المشتركة؟

لنأخذ، على سبيل المثال، فكرة (التاريخ اليهودي) الذي هو مصطلح

يفترض وجود تاريخ يهودي مستقل عن تاريخ جميع الشعوب والأمم، وهو مفهوم تتفرع عنه وتستند إليه مفاهيم الاستقلال اليهودي الأخرى. مفهوم التاريخ اليهودي يفترض أن لهذا التاريخ مراحله التاريخية وفتراته المستقلة ومعدل تطوره الخاص، بل أيضاً قوانينه الخاصة. وهو تاريخ يضم اليهود أساساً، يتفاعلون داخله مع عناصر مقصورة عليهم من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة، واستقلالية أي بناء تاريخي تعني استقلالية بُناه الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك استقلالية البُنى الحضارية والرمزية المرتبطة به، وتجانسها النسبي في كل مرحلة من مراحله. كما أن هذا البناء التاريخي يضم جماعة من الناس لا وجود لها خارجه، ولا يمكن فهم سلوكها إلا في إطار تفاعلها معه. لكن من الثابت تاريخياً أن الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم كانت توجد في مجتمعات مختلفة تسودها أنماط إنتاجية وبُنى حضارية اختلفت باختلاف الزمان والمكان، فيهود اليمن في القرن التاسع عشر، كانوا يعيشون في مجتمع صحراوي قبلي عربي، أما يهود هولندا فكانوا في الفترة ذاتها يعيشون في مجتمع حضري رأسمالي غربي، ولكل هذا نجد أن سلوك اليهودي اليمني ورؤيته للكون تحكمهما إلى حدٍّ كبيرٍ عناصر البناء التاريخي العربي الذي يعيش فيه، تماماً كما تحكم سلوك يهود هولندا ورؤيتهم مكونات البناء التاريخي الغربي الهولندي.

والآن، إذا افترضنا وجود تاريخ يهودي فعلاً، فما هي أحداث هذا التاريخ؟ هل الثورة الصناعية، على سبيل المثال، من ضمن أحداث هذا التاريخ، أم أنها حدث ينتمي إلى التاريخ الغربي؟ في الواقع سنكتشف أن الثورة الصناعية حدث ضخم في التاريخ الغربي، ترك أعمق الأثر في يهود العالم الغربي، وأحدث انقلاباً في طريق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر، أي بعد حدوث الانقلاب بفترة وجيزة. لكن هذا الانقلاب لم يحدث لهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم أقلية توجد داخل التشكيل

الحضاري الغربي؛ إذ إننا سنجد أن هذا الانقلاب في طرق الحياة والرؤية قد حدث أيضاً لأعضاء الأغلبية ولأعضاء الأقليات الأخرى الموجودة داخل المجتمعات الغربية. وفي الوقت ذاته، لم يتأثر يهود العالم العربي بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها وفي الوقت نفسه لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى عنها في بداية الأمر. لكن بعد نحو قرن من الزمان، بدأ هذا التشكيل يتأثر هو الآخر بالثورة الصناعية، وبالتالي بدأ أثرها يمتد إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبياتها وأقلياتها، أما يهود إثيوبيا، فلم يتأثروا إلا على نحو سطحي، لأن المناطق التي كانوا يعيشون فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى، وبقيت ذات طابع قبلي حتى الوقت الحاضر. لذا، يمكن القول: إن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية مسألة مرتبطة بكونهم يتأثرون بها بالمقدار ذاته. ولذا، فالإطار المرجعي للدراسة لا يمكن أن يكون التاريخ اليهودي. ولو جعل الباحث هذا التاريخ مرجعيته لعجز عن تفسير كثير من عناصر عدم التجانس والتفاوت في هذا التاريخ، ولاضطر إلى ليِّ عنق الحقائق ليفسر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعية فور حدوثها، وعدم تأثر بعض يهود إثيوبيا بها حتى الآن!

إذا كان من الصعب قبول مقولة: «التاريخ اليهودي» فإنه يصبح من الصعب بالتالي الحديث عن (الهوية اليهودية) أو عن (الشخصية اليهودية)؛ إذ إن من الواضح أن أعضاء الجماعات اليهودية هم جزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التي يعيشون في كنفها؛ يتفاعلون معها تأثيراً وتأثراً، شأنهم في هذا شأن أعضاء الأغلبيات والأقليات.

ولنأخذ على سبيل المثال الموروث الثقافي لأعضاء الجماعات اليهودية، إننا سنلاحظ مثلاً أن اللغات التي يتحدثون بها تختلف باختلاف المجتمع الذي ينتمون إليه؛ فهم يتحدثون الإنجليزية في البلاد التي تتحدث بها، والفرنسية في فرنسا، والجورجية في جورجيا.

وتشير المراجع الصهيونية إلى اللادينو (اللهجة التي كان السفارديم يتحدثون بها) واليديشية (اللهجة التي كان إشكناز شرق أوربة يتحدثون بها) باعتبارهما تعبيراً عن الاستقلالية اليهودية. لكن من المعروف أن ظاهرة اللهجة المستقلة ليست مقصورة على اليهود، فكثير من أعضاء الأقليات ممن يضطلعون بوظيفة معينة (كالتجارة والربا) يبقون على لغتهم وسيلة للحديث. ولعل من أصدق الأمثلة لذلك الأرمن في الدولة العثمانية والصينيون في جنوب شرق آسيا، الذين يضطلعون بوظائف مالية محددة، فهؤلاء يتحدثون لغتهم الأصلية ويحتفظون بتماسكهم، لكن بزوال وظيفتهم يرحلون عن الوطن أو يندمجون فيه. وهذا ما حدث للادينو واليديشية؛ فالأولى انقرضت تماماً، أما الثانية فقد أصبحت لغة المسنين في بعض بقايا الجيوب اليهودية في شرق أوربة، وهي في طريقها إلى الاختفاء.

ويقوم المؤلفون اليهود بوضع مؤلفاتهم بلغة أوطانهم، وحتى المؤلفات الدينية التي كانت تكتب بالآرامية أو العبرية، فإنها تكتب الآن بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، أو بأية لغة يجيدها المؤلف من أعضاء الجماعات اليهودية، ولم يعد يكتب بالعبرية سوى المؤلفين الإسرائيليين.

وإذا تركنا اللغة (هذا الوعاء البالغ الأهمية) ونظرنا إلى الأدب والفنون التشكيلية، فسنجد أن التقاليد الأدبية والفنية التي يبدع المؤلفون والفنانون اليهود من خلالها هي تقاليد بلادهم. ولا يمكن فهم إبداعات هؤلاء الحضارية إلا بالرجوع إلى موروثات بلادهم الحضارية. ولو عاد الباحث إلى مفهوم الهوية اليهودية العامة والعالمية لضل سواء السبيل تماماً، وقل الشيء نفسه عن الأزياء والأطعمة والطرز المعمارية.

وحتى لو كان ثمة خاصية ما تفصل اليهود عن محيطهم الحضاري، فإن هذه الخاصية (مثل تكلُّم يهود شرق أوربة باليديشية بعض الوقت) تظل مقصورة على أقلية يهودية بعينها، ومرتبطة بملابسات تاريخية وأوضاع اجتماعية وفترة

زمنية محددة. وبالتالي، فهي ليست خاصية يهودية عامة أو عالمية، وإنما هي خاصية تتسم جماعة يهودية ما بها، توجد داخل زمان ومكان محددين، وهي في هذه الحالة الجماعة اليهودية في شرق أوربة من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين. وهي أيضاً خاصية لا تربط بين هذه الجماعة اليهودية وغيرها من الجماعات، بل بالعكس، إنها تزيدها فرقةً وتنوعاً. فاليهود خارج هذا الزمان وهذا المكان لا يتحدثون اليديشية، وبعضهم يرفضها. وقد نشب صراع بين دعاة اليديشية من أنصار قومية الدياسبورا ودعاة العبرية من الصهاينة، كما هاجم مثقفو حركة الاستنارة في ألمانيا اليديشية باعتبارها ألمانية مشوهة ولغة الغش التجاري والتخلف الحضاري! وقد اختفت اليديشية، بينما استمر يهود شرق أوربة في الوجود، يتحدثون لغات أوطانهم: الروسية، البولندية، الأوكرانية، الألمانية.

اليهود من الناحية الإثنية والدينية

يمكن تصنيف الجماعات اليهودية المتنوعة على عدة أسس، كلها ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية جزئية. وهذا يعود إلى إشكالين أساسين كامنين في الشرع والموروث الديني اليهوديين؛ فاليهودي يُعرَّف بأنه من وُلِد لأُم يهودية أو تهوَّد بحسب الشريعة. وهو ما يعني أن هناك أساساً عقائدياً (التهوُّد والإيمان باليهودية) وأساساً عرقياً (لأم يهودية)، أي إن الانتماء إلى اليهودية يمكن أن يتم على أي أساس منهما. كما أن اليهودي الملحد يظل يهودياً على الرغم من إلحاده (وهذا أمر ينفرد الشرع اليهودي به دون الإسلام أو المسيحية).

ويمكن تصنيف أعضاء الجماعات اليهودية، على أساس عرقي أو إثني، إلى مجموعات كبرى ثلاث:

١- **السفارديم**: وهم اليهود الذين كانوا يتحدثون اللادينو، وهم نسل أولئك اليهود الذين عاشوا في شبه جزيرة أيبيريا أصلاً. وحينما طُرد أعضاء

الجماعة اليهودية منها اتجهوا إلى الدولة العثمانية واليونان وشمال إفريقية، وكانت قطاعات من يهود المارانو المتخفين (الذين أظهروا الكاثوليكية وأبطنوا اليهودية هرباً من محاكم التفتيش) تلحق بهم وتشهر يهوديتها فتصبح من السفارديم، وكان بين السفارد نخبة تملك مهارات إدارية، كما كانت تمتلك رأس مال كبيراً يؤهلها للاضطلاع بدور التجارة الدولية. وفعلاً، كوَّن السفارد شبكة تجارية دولية فقاموا، بالتالي، بدور أساسي في تطوير الرأسمالية الغربية، ولهم طريقتهم الخاصة في الصلاة والطقوس الدينية، ولذا يمكن الإشارة إلى النهج السفاردي في العبادة، كما أن عبريتهم تختلف عن عبرية الإشكناز. وكان السفارد أكثر اندماجاً في محيطهم الحضاري، وأكثر استيعاباً للحضارة العربية، ثم الحضارة الغربية. وظهر في صفوفهم الفيلسوف إسبينوزا ورئيس الوزراء درزائيلي. وثمة عداء متأصل بين السفارد والإشكناز؛ فالسفارد كانوا أرستقراطية اليهود، وكان استقرار الإشكناز في أماكن تجمعهم يسبب لهم الحرج، وكانوا لا يتعبدون معهم ولا يتزوجون منهم، وكانوا يحاولون الاحتفاظ بمسافة بينهم، وقد انقلب الوضع رأساً على عقب بعد أن تحولوا إلى أقلية، وحقق الإشكناز بروزاً في الحضارة الغربية، وبعد إعلان دولة إسرائيل.

٢ - **يهود الشرق والعالم الإسلامي**: يشار إلى يهود الشرق والعالم الإسلامي بأنهم (سفارد) أيضاً، وهذه تسمية مغلوطة، ويعود هذا إلى أن كثيراً منهم يتبع النهج السفاردي في العبادة، لكن هذا لا يجعلهم من السفارد؛ فتجربتهم الدينية والثقافية والتاريخية مختلفة تماماً. وينقسم يهود العالم الإسلامي إلى عدة أقسام، أهمها يهود البلاد العربية أو اليهود المستعربة الذين استوعبوا التراث العربي وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منه.

غير أن هناك جماعات صغيرة أخرى، مثل اليهود الأكراد وبقايا السامريين ويهود جبال الأطلس من البربر ويهود إيران وغيرهم. ويتميَّز كل فريق بأنه مستوعب في إطاره الحضاري للمجتمع الذي يعيش في كنفه فيتحدث لغة، بل

أيضاً لهجة المجتمع الذي يعيش فيه، ويتعامل مع العالم من خلال أنساقه الثقافية والرمزية. وهناك أحياناً سمات دينية فريدة لأعضاء هذه الجماعات الصغيرة، تعزلها عن التيار الرئيسي لليهودية، إذ إن المكون الإثني كثيراً ما يؤثر في المكون الديني.

٣ - **الإشكناز**: هم أساساً يهود شرق أوربة (روسيا/ بولندا) الذين يتحدثون اليديشية (وهي ألمانية العصور الوسطى بعد أن دخل عليها بعض المفردات السلافية والعبرية، وتكتب بحروف عبرية). ويعود أصلهم إلى ألمانيا (إشكناز بالعبرية). ومع أن أغلبية الإشكناز كانت تتحدث اليديشية، فقد كان هناك إشكناز يتحدثون اللغات الأوربية الأخرى. وحينما كان المهاجرون الإشكناز يغادرون بولندا إلى بلاد مثل هولندا وإنجلترا ثم الولايات المتحدة، كانت المجتمعات المضيفة (بما في ذلك أعضاء الجماعة اليهودية فيها) تعتبرهم متخلفين؛ فقد كانوا يعملون كصغار مرابين وباعة متجولين، وكانوا يحضرون معهم بعض الأمراض الاجتماعية، كالغش التجاري والدعارة. وكانوا يظهرون عزوفاً عن الاندماج، ولا سيما أن أزياءهم وطريقة قص شعرهم مختلفة، فكانت تميزهم وتعزلهم عن محيطهم الحضاري الجديد، وصيغ الدين اليهودي التي يعرفونها تختلف عن الصيغ التي يعرفها السفارد.

ولذا، يمكن الحديث أيضاً عن النهج الإشكنازي في العبادة. والمسألة اليهودية كانت أساساً مسألة يهود شرق أوربة من الإشكناز، وقد ظهرت جميع الحركات الفكرية اليهودية الحديثة في صفوفهم أيضاً: حركة الاستنارة اليهودية - اليهودية الإصلاحية - اليهودية المحافظة - قومية الدياسبورا - البوند، وأخيراً الصهيونية التي بدأت كحركة إشكنازية تهدف إلى تأسيس دولة إشكنازية، لكن يهود الشرق والعالم الإسلامي وبقايا السفارد اكتسحوها.

أما من الناحية الدينية، فيمكن تقسيم يهود العالم إلى قسمين أساسيين:

١ - يهود إثنيون، وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث

الديني، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن في إثنيتهم، أي في أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافي. ويمكن القول: إن أكثر من نصف يهود أمريكا يهود بهذا المعنى، أما في الاتحاد السوفييتي (سابقاً)، فإن عددهم يزيد عن ذلك كثيراً. ويشار إلى هذا الفريق بأنه اليهود الملحدون أو العلمانيون.

٢ - يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، وهؤلاء ينقسمون إلى عدة أقسام:

أ) اليهودية الأرثوذكسية: هي وارثة اليهودية الحاخامية أو المعيارية أو التلمودية، وهي الصيغة اليهودية التي سادت بين الجماعات اليهودية الأساسية في الغرب منذ العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويؤمن اليهود الأرثوذكس بأن التوراة مرسلة من الإله، وبأن كل ما جاء فيها ملزم، ولذا، فهم يرون ضرورة أن يلتزم اليهودي تنفيذ الوصايا والنواهي (المتسفوت)، وضرورة إقامة الشعائر كافةً، بما في ذلك شعيرة السبت والطعام الشرعي.

ب) اليهودية الإصلاحية: هي أول المذاهب اليهودية الحاخامية، وظهرت في ألمانيا (مهد الإصلاح الديني المسيحي)، وتعد ترجمة لفكر عصر الاستنارة. وهي تحاول أن تعبِّر عن العصر الحديث، فتحكم العقل في كل شيء، وتحاول أن تفصل المكون الديني عن المكون العرقي أو القومي في العقيدة اليهودية بحيث يصبح المكون الديني وحده ملزماً، ويسقط أي تفسير قومي لأفكار مثل (العودة) و (النفي) و (العصر المشيحاني) (نسبة إلى الماشّيح أو المخلِّص اليهودي)، بحيث تصبح كلها أفكاراً تعبر عن تطلع ديني يتحقق في آخر الأيام، أو بالتدريج عبر التاريخ. وهذا كله يهدف إلى تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه ودمجه في محيطه الحضاري، بحيث يتحول إلى مواطن في الشارع ويهودي في منزله.

ج) اليهودية المحافظة: هي مجموعة من التيارات الفكرية تصدر عن الإيمان بأن العقيدة اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودي الثابتة (لا روح العصر المتغيرة)، وبأن هذه العقيدة تطورت عبر التاريخ وأخذت أشكالاً مختلفة، وبأنها من ثَمَّ قادرة على التكيُّف مع اللحظة التاريخية، فاليهودية ليست مجموعة عقائد ثابتة وإنما هي تراث آخذ في التطور التاريخي الدائم. لكن أي تغيير يدخل على هذه العقائد لا بد أن يكون نابعاً من صميمها، معبراً عن روح الشعب اليهودي وهويته. ويمكن القول: إن اليهودية المحافظة ترى الدين اليهودي باعتباره، في واقع الأمر، الفلكلور اليهودي، أو الروح القومية اليهودية، وهي في هذا قريبة للغاية من الرؤية الصهيونية (العلمانية) لليهودية، على الرغم من أن ما يهيمن على المؤسسة الدينية في إسرائيل هي اليهودية الأرثوذكسية. ولعل هذا من أسباب الاستقطاب الديني/ العلماني في التجمع الصهيوني.

ولا تؤمن اليهودية الإصلاحية أو المحافظة بأن الكتاب المقدس مرسل من الإله، وإنما هو مجموعة من الأقوال الحكيمة والأساطير الشعبية التي ألهم الخالق بعض الأنبياء بها لكنه لم يوحِ إليهم بها، ومن ثم فمن حق المخلوق أن يتصرف بحسب ما يمليه العقل أو العصر عليه، فيغير ويبدل في الشعائر، بل يسقطها تماماً في بعض الأحيان. ولذا فإن الإصلاحيين والمحافظين لا يلتزمون الوصايا والنواهي، ولا يقيمون شعائر السبت أو الطعام الشرعي إلا على نحو جزئي، من قبيل الحفاظ على الفلكلور. وقد أباحت اليهودية الإصلاحية والمحافظة ترسيم النساء حاخامات، كما أباحت الشذوذ الجنسي بين الذكور والإناث، بل ويُرسَّم الآن الشواذ والسحاقيات حاخاميين، والأغلبية الساحقة من يهود العالم الغربي إثنية أو محافظة وإصلاحية، ولا يشكل الأرثوذكس سوى أقلية لا تزيد عن ٥٪. ويلاحظ إقبال أعضاء الجماعات

اليهودية على العبادات الجديدة، مثل البهائية والماسونية وما يسمَّى ديانات العالم الجديد (الإيمان بأن للهرم شكلاً ذا قوة سحرية خارقة، على سبيل المثال).

جماعات يهودية

غير أن ثمة إلى جانب هذه التقسيمات الأساسية جماعات هامشية لا حصر لها، فهناك السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساساً بنسخها المختلفة عن تلك المتداولة بين اليهود كافة، ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجيء الماشيَّح. وهناك أيضاً القرَّاؤون الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلي الإسلامي)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل. وهناك بقايا يهود كايفنج في الصين، يعبدون يهوه الذي يسمونه تين (السماء)، ويتعبدون في معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف. وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تماماً. ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها يهودية كونفوشيوسية (تماماً مثلما نجد أن يهودية بني إسرائيل في الهند يهودية هندوكية). وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول في تفصيلات لا حصر لها، يمكن أن نقارن بين عينتين: إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر تجمع يهودي في العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشا الذين يشكلون تجمعاً صغيراً هامشياً ومنعزلاً.

ينتمي يهود الولايات المتحدة في الدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل إشكنازي (ألماني أو روسي/ بولندي). وتوجد قلة

من السفارد، والقرائن، والكرمشاكي (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة من شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالترية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزر). وهناك أيضاً بعض الأمريكيين السود الذين يُدعون (العبرانيين السود)؛ وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن إفريقية عن طريق شق قناة السويس، ويدَّعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق في استرداد إسرائيل والاستيطان فيها وحكمها. وتوجد جماعة منهم في شيكاغو هاجرت أعداد منها إلى إسرائيل، حيث استقروا في جوار ديمونا وفي أماكن أخرى، ولذا فهم يشكلون أقلية منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة.

أما الفلاشا، فهم من يهود إثيوبيا، وملامحهم لا تختلف من قريب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هناك بينهم من تنويعات، فهي تنويعات تشبه في بعض الوجوه التنويعات الموجودة في مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشا موراه، وهي جماعة مسيحية شبه يهودية منبوذة من الفلاشا، كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان.

ومن الناحية الدينية، ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون، ويهود متدينون، وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحافظين وتجديديين وأرثوذكس (ويوجد بعض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيون في الولايات المتحدة يتعبدون في المعبد اليهودي (السيناجوج)، ويرأسهم حاخام، ولا يقيمون معظم الشعائر، ولا يكترثون بالطعام الشرعي أو بشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشا، فهم أساساً خارج نطاق اليهودية الحاخامية، ولا يعرفون التلمود. وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية؛ فشعائر

الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا فهم يقيمون شعائرهم كلها (وقد صُدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية). ويرأس يهود الفلاشا قساوسة (يقال لهم: قسيم)، وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون في معبد يهودي يسمَّى «المسجد» ويخلعون نعالهم قبل دخوله!

ومن ناحية اللغة، فإن يهود الولايات المتحدة يتحدثون الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والآرامية. كما توجد العبرية في بعض كتب الصلوات. أما يهود الفلاشا، فهم يتحدثون الأمهرية (ويتحدث بعضهم بالتيجرينية)، ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة يهودية خطابها الحضاري، وفولكلورها الذي ينبع، في حالة يهود أمريكا، من محيطهم الحضاري الحالي (الأمريكي)، أو من محيطهم الحضاري السابق (روسيا - بولندا - ألمانيا - إنجلترا). أما في حالة يهود الفلاشا، فهو ينبع كله من محيطهم الحضاري الإثيوبي الإفريقي. وفي حين أن اليهودي الأمريكي يرتدي البنطلون (الجينز) ويأكل (الهامبورجر) ويرقص (الديسكو) ويعيش في منزل عصري، وقد يطعِّم حديثه ببعض الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم باليديشية، كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التي كانوا يرتدونها في شرق أوربة، فإن يهودي الفلاشا يرتدي شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة في منطقته، ويعيش في كوخ مغطى بالحطب لا يختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة. والوضع الاجتماعي ليهود أمريكا (نسبة الطلاق - الوظائف - المهن) ورؤيتهم للكون مختلفان تماماً عن وضع الفلاشا ورؤيتهم. ولهذا كله، فبينما كانت الدولة الصهيونية تتلهف لهجرة يهود الولايات المتحدة إليها، فإنها كانت ترفض هجرة الفلاشا حتى سنة ١٩٧٣م.

ولئن كانت الدولة الصهيونية تشجع هجرتهم الآن، فليس ذلك بسبب أي تغيير طرأ على هويتهم، وإنما بسبب تغييرات طرأت على سياسة الدولة الصهيونية، بل أيضاً على هويتها ومدى حاجتها إلى العنصر البشري، بل إن الدولة الصهيونية بدأت ترحب بالفلاشا موراه، مع أن هؤلاء لا يمكن اعتبارهم يهوداً مهما يتم من تطويع للكلمات قسراً.

يمكن القول: إن الاختلافات بين يهود الولايات المتحدة ويهود الفلاشا هي حقاً اختلافات جذرية في جميع المجالات. لكن قد يقال: إن مثل هذه الاختلافات العميقة موجودة عادةً بين المركز والأطراف في أي تشكيل حضاري أو نسق ديني؛ فالجماعات المسيحية المتطرفة (المورمون مثلاً) مختلفة جوهرياً عن الأشكال المركزية للمسيحية، والقول نفسه ينطبق على الإسلام. وفي هذا بعض الصدق. بيد أن وضع اليهود واليهودية يظل فريداً إلى حدٍّ كبير؛ فالمركز في اليهودية اختفى منذ أمد طويل، الأمر الذي سمح بتطور الأطراف على نحو مستقل تماماً عن المركز، أي مركز، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل عن شرعية ما يسمَّى التيار الأساسي في اليهودية. وحتى قبل أن يختفي المركز، كان النسق الديني اليهودي يحوي تناقضات عميقة كثيرة، وعدداً كبيراً من المفاهيم الدينية لم يستقر؛ فالسنهدرين (أعلى سلطة دينية يهودية في القرن الأول الميلادي) كان يضم الصدوقيين الذين كانوا يؤمنون بيهودية وثنية هرمة صارمة لا بعث فيها ولا إيمان، وإنما عقيدة جامدة تدور حول القرابين والشعائر المنضبطة والمرتبطة بالأرض تماماً، لكن السنهدرين كان في الوقت ذاته يضم الفريسيين الذين كانوا يؤمنون بالبعث وبضرورة الإيمان باليوم الآخر (ولذا كانوا يقومون بالتبشير باليهودية، وهو الأمر الذي لا تعرفه اليهودية). وعلى الرغم من الاختلافات العميقة، كان الصدوقيون والفريسيون يجلسون جنباً إلى جنب في السنهدرين، ويمارسون نشاطهم الديني. ولا يمكن تفسير هذا الوضع إلا بعدم تبلور النسق الديني اليهودي قبل تحطيم الهيكل

وسقوط المركز، يضاف إلى هذا ما يمكن تسميته التعريف الثنائي لليهودي على أساس عقدي وعلى أساس عرقي. وذلك كله سمح بظهور ما يمكن تسميته الخاصية الجيولوجية لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توخي الدقة)، وهي أن هذه العقائد والهويات تأخذ شكل تركيب جيولوجي مكوَّن من طبقات مختلفة، مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، لكنها غير ملتحمة أو متفاعلة، كما أنها لا تخضع لأية معيارية مركزية. ومع هذا، فإن هذه العقائد كافة سميت (يهودية)، وسمي كل هؤلاء (يهوداً)، وهو أمر كان مقبولاً أو يمكن تجاهله من قبل، لكن مع ظهور الدولة الصهيونية وبداية المواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات، تفجر السؤال الذي لا يزال يبحث عن إجابة: من هو اليهودي؟

لهذا كله، نجد أن مصطلح (يهودي) مصطلح عام للغاية، ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه، ولذا فإننا نفضِّل استخدام مصطلح (جماعات يهودية)، ونحرص على استخدامه قدر استطاعتنا (إلا إذا تطلب السياق غير ذلك)؛ فهو مصطلح يعزل هذه الجماعات اليهودية عن غيرها من الجماعات باستخدام كلمة (يهودية)، لكنه يؤكد في الوقت ذاته عدم تجانسها باستخدام كلمة (جماعات).

الدياسبورا الدائمة والانعزالية الوهمية

المصطلحات الصهيونية مصطلحات معبأة أيديولوجياً لا علاقة لها بواقع اليهود. خذ، على سبيل المثال، مصطلح (الانعزالية اليهودية) الذي يفترض أن اليهود لا يندمجون قط في محيطهم الحضاري، أو مصطلحات مثل (الدياسبورا) و (المنفى) و (الشتات) التي تفترض مركزية فلسطين في حياة اليهودي. ويمكننا أن نبيِّن تحيُّز هذه المصطلحات وضعف مقدرتها التفسيرية من خلال دراسة بعض الإحصاءات. يقال: إن عدد العبرانيين القدامى قبل التهجير إلى بابل كان يبلغ نحو ١,٨٠٠,٠٠٠ شخص، وأنه تناقص بعد

التهجير، وحينما سمح قورش ليهود بابل وآشور بالعودة، فإنه لم يعد منهم سوى أعداد صغيرة، فاندمج يهود بابل في محيطهم الحضاري، وانصهر يهود آشور تماماً (ولذا هناك حديث أسطوري دائم عن قبائل إسرائيل العشرة المفقودة. والمفروض أن نتحدث عن قبائل إسرائيل العشرة المنصهرة)، واندماج يهود بابل وانصهار يهود آشور يضرب أسطورة الانعزالية اليهودية في الصميم.

وقل الشيء نفسه عن تأغرق يهود الإسكندرية في العصر البطلمي الذين وصل اندماجهم درجة أنهم نسوا لغتهم، ولذا كان لا بد من ترجمة العهد القديم إلى اليونانية. وقد بلغ عدد اليهود حوالي ثمانية ملايين في القرن الأول قبل الميلاد، وهذه كلها تقديرات تخمينية؛ إذ يذهب تقدير آخر إلى أن عددهم كان لا يزيد عن خمسة ملايين. ولكن عددهم، في بداية العصور الوسطى، كان يتراوح بين مليون واحد ومليونين (تركز أغلبهم في العالم الإسلامي)، أي إن عددهم انخفض إلى الخمس، على الرغم من عدم حدوث هجمات أو عمليات إبادة ضخمة ضدهم أو انتشار أوبئة. فأين ذهبت هذه الملايين؟ ولِمَ لَمْ يتزايد عددهم؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بالإشارة إلى أن عمليات الاندماج والانصهار والذوبان كانت مستمرة على قدم وساق، أي إن فكرة الانعزالية اليهودية ومقدرة اليهود على مقاومة الاندماج هما مجرد أسطورة تتنافى مع الحقائق التاريخية؛ فأعضاء الجماعات اليهودية، شأنهم شأن جميع الأقليات والجماعات الأخرى، خاضعين لحركيات إنسانية عامة يؤدي بعضها إلى العزل والعزلة، ويؤدي بعضها الآخر إلى الاندماج والانصهار.

تزايد عدد اليهود - كما أسلفنا - ليصل إلى مابين خمسة وثمانية ملايين يهودي في القرن الأول قبل الميلاد. ويجمع المؤرخون كافة على أن يهود فلسطين كانوا لا يشكلون سوى ثلث عدد يهود العالم، وذلك قبل أن يهدم تيتوس الهيكل؛ أي إن الفكرة القائلة: إن اليهود مرتبطون ارتباطاً أزلياً بصهيون

(فلسطين) وأنهم لا يتركونها إلا قسراً هي فكرة تتنافى مع واقع التاريخ. فالدياسبورا، أو الشتات اليهودي، مسألة طوعية، وليست مرتبطة بعملية إكراه خارجية. وحالة الدياسبورا حالة دائمة بغض النظر عما كان يحدث في فلسطين.

وتحمل المصطلحات الصهيونية بخصوص هجرة اليهود إلى فلسطين الأعباء الأيديولوجية نفسها، وبشكل أكثر حدة، فهم يطلقون على الهجرة إلى فلسطين كلمة (عالياه) وهي كلمة عبرية مشتقة من فعل (يعلو)، ولذا فالكلمة تعني (الصعود إلى السماء) و (الصعود لقراءة التوراة في المعبد أثناء الصلاة) و (الصعود إلى أرض إسرائيل بغرض الاستيطان الديني). وفي العهد القديم نجد أن الذهاب إلى فلسطين يعبَّر عنه بعبارة (الصعود إلى الأرض) أما الذهاب إلى مصر فيُعبَّر عنه بـ (النزول إليها). وقد كانت للعالياه أغراض عديدة ولها إيحاءات عاطفية ودينية، فمثلاً كانت تتم بغرض الشفاء من الأمراض، وللتخلص من الفقر، كما كان الكهول يهاجرون لاعتقادهم أن الدفن في أرض الميعاد يجلب ثواباً كبيراً. وكان البعض (يعلو) إلى إرتس يسرائيل بغرض دراسة التوراة.

وقد استخدمت الحركة الصهيونية هذا المصطلح الديني وجردته من بُعده الإيماني المجازي، وأطلقته على حركة الهجرة الصهيونية من شرق أوربة إلى فلسطين في العصر الحديث، وفي هذا تعمية أيديولوجية، فالعالياه مصطلح ديني يصف أفعالاً فردية وأوامر يُفترض فيها أنها ربانية ذات قداسة معينة من وجهة نظر من يقوم بها، ولا يمكن إطلاقه على ظاهرة اقتصادية اجتماعية سياسية يقوم بها فريق من الصهاينة لا يؤمن معظمهم بالعقيدة اليهودية. ومما له دلالته أن كلمة (هجيراه) العبرية كلمة محايدة تؤدي المعنى نفسه، ولكن الحركة الصهيونية تؤثر استخدام المصطلحات الرومانسية ذات الهالات الدينية إلى توليد الانطباع أن اليهود في حالة شوق دائم وولع أزلي للعودة إلى صهيون الحبيبة!

وبدلاً من قبول الادعاءات الصهيونية عن اليهود كما يفعل كثير من المحللين الغربيين والعرب فلننظر مرةً أخرى إلى بعض الإحصاءات. يلاحظ أن عدد اليهود الذين استوطنوا في فلسطين في الفترة بين عامي ١٨٨٢ - ١٩٣٢م لم يتجاوز ١٧٤ ألف (منهم ٣٠ ألف، أي ١٦٪ من اليهود الذين استوطنوا في فلسطين لأسباب دينية قبل بداية الاستيطان الصهيوني). هذا يعني أنه خلال ٥٠ عاماً كان يهاجر إلى فلسطين ٢٥٠٠ يهودي كل عام من مجموع يهود العالم الذي يبلغ آنذاك ١٦ مليوناً. وفي الفترة من ١٨٨٢ - ١٩١٤م غادر روسيا أربعةُ ملايين يهودي لم يتوجه منهم سوى ٩٠ ألف إلى فلسطين، فأين هذا التشوق الأزلي والدائم للعودة لأرض الميعاد؟

تغيَّرت الصورة قليلاً في الفترة من ١٩٣٢ - ١٩٤٤م إذ هاجر ٢٦٥ ألف يهودي، وهو أعلى رقم بلغته أفواج المهاجرين أثناء الانتداب، وهذا لا يعود إلى الشوق الأزلي إياه، وإنما إلى وصول هتلر إلى السلطة، ولذا قال أحدهم: إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الحركة الصهيونية، أي منظِّرها، فإن هتلر هو لينين الصهيونية، أي من وضعها موضع التنفيذ.

ويستمر النمط نفسه بعد إعلان الدولة الصهيونية التي فتحت بواباتها على مصراعيها داعيةً يهود العالم إلى المجيء إليها؛ فهي تعاني أزمة سكانية، غير أن يهود العالم لا يأتون إلا قسراً؛ إذ إن الأغلبية الساحقة تفضِّل البقاء في، أو التوجه إلى الولايات المتحدة (بابل الحديثة)، التي يشار إليها باليديشية بأنها (جولدن مدينا)، أي البلد الذهبية - أرض الميعاد الاستهلاكية التي تفوق في جاذبيتها أرض الميعاد الصهيونية. وحينما يهاجر بعض اليهود فإن الهجرة لا تتم، إلا في القليل النادر، لأسباب أيديولوجية (صهيونية)، فيهود البلاد العربية لم يهاجروا حباً في صهيون، وإنما بحثاً عن الحراك الاجتماعي، ولذا نجد أن الأثرياء بينهم وذوي الخبرات الخاصة هاجروا إلى أوربة، كما هاجر كل يهود الجزائر إلى فرنسا لأنهم كانوا يحملون الجنسية الفرنسية!

وقد تساقطت كل الادعاءات الصهيونية تماماً مع هجرة اليهود السوفييت الذين جاؤوا إلى إسرائيل بحثاً عن الحراك الاجتماعي، ولذا فهم لا يريدون أن يسمعوا «شيئاً عن صهيون» على حدِّ قول يوري جوردون رئيس قسم الاستيعاب في الوكالة اليهودية. وقد لخص أحد المهاجرين المرتزقة الموقف بقوله: «لم يكن أمامي خيار سوى أن نذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور في روما». ولكنه أعلن عن تصميمه على عدم البقاء. وقد بدأت الصحف الصادرة بالروسية في إسرائيل بتخصيص مساحة كبيرة يحتلها معلنون يعرضون تزويد القراء بأشد ما يرغب المستهلكون فيه من سلع: تأشيرات دخول إلى كندا. وقد وصف أرييه ديري، وزير الداخلية، المهاجرين المرتزقة وصفاً دقيقاً حين قال: «إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائب السفر». وقال أوبليون: «بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها محطةً على الطريق، وسيقومون باستغلالنا أيضاً، وسيأخذون أية خبرات قد نقدمها لهم، وقد ينتهي بنا الأمر إلى أن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون بالبؤس والذين ينتظرون أول فرصة لينزحوا عن إسرائيل»، فهم يعرفون تماماً «أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة». والسهولة قيمة أساسية بالنسبة لهؤلاء الباحثين عن «الراحة والترف» (كما وصفهم يوري جوردون).

وكثير من هؤلاء الصهاينة أو المرتزقة ليس لهم علاقة كبيرة باليهودية. وقد جاء في صحيفة هاآرتس (١/ ١/ ٢٠٠١م) أن حوالي ٢٢٥ ألف من المهاجرين الروس الجدد (أي حوالي ٢٥٪) الذين سجلوا كيهود ليسوا يهوداً بالفعل. كما ذكرت الصحيفة نفسها في عددها الصادر في ٢٢ حزيران (يونيه) ٢٠٠٠م أن عدداً كبيراً منهم لم يكن يعرف في الماضي أنهم يهوداً، أي إنهم اكتشفوا أنهم يهود فجأة (وبخاصة بعد أن عرفوا عن التسهيلات أو الرشاوي المالية التي تقدَّم لهم). وتقوم المؤسسة الإشكنازية الغربية الحاكمة في إسرائيل بتيسير الأمور

لهم، ولذا تعقد لهم امتحانات صورية في اليهودية يسهل عليهم اجتيازها حتى يمكن اعتبارهم يهوداً، وهذا يعود لأسباب لا علاقة لها بالصهيونية، وإنما بتعديل الميزان الديموجرافي (السكاني) لصالح الإشكناز في مقابل السفارد، واليهود العلمانيون في مقابل الأرثوذكس، واليهود ككل في مقابل العرب. وتذهب المؤسسة الحاخامية إلى أن نصف هؤلاء المهاجرين السوفييت ليسوا يهوداً (وبخاصة إذا عرفنا أن نسبة الزواج المختلط بينهم عالية جداً).

والأرقام التي سبق ذكرها تبين أن غالبية ما يسمَّى بـ (الشعب اليهودي) الذي يدَّعي الصهاينة أنه في حالة شوق دائم للعودة إلى أرض الميعاد (٦٣٪ أي ٨,٣ مليون يهودي) لا يزال يعيش في (المنفى) بكامل إرادته ولا يوجد سوى ٣٧٪ منه أي ٤,٩ مليون في إسرائيل، مما يعني أن (المنفى) ليس بمنفى، وأن الشعب ليس بشعب، وأن (الشتات) ليس بشتات، وأن كل ما هنالك هو أقليات يهودية وجد أعضاؤها أن حياتهم في أرجاء العالم تتيح لهم فرصاً حقيقية للحياة الإنسانية الكريمة وأن الشعار الصهيوني (شعب بلا أرض) لا أساس له من الصحة، لأن أعضاء الجماعات اليهودية المنتشرة (لا المنفية) في أنحاء العالم لا تبحث عن أرض أو وطن، وإنما تندمج في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

ومن الطريف أن دكتور يعقوب إلياف مدير مركز الهوية اليهودية قد (حذَّر) من ذلك الوضع (كما جاء في هاتسوفيه ٤/ ٩/ ٢٠٠٠م)، ولذا تصر جامعة بار إيلان على ضرورة عقد مؤتمر دولي حولي موضوع الاندماج، وتعتزم عقد هذا المؤتمر بصفة سنوية، وتخصص اعتمادات للأبحاث التي تجري لمكافحة ظاهرة الاندماج. إن الاندماج يشكل خطورة حقيقية على الصهيونية، لأنها، كما قال آي. إف. ستون، المفكر الأمريكي اليهودي: تعيش على الكوارث التي تحيق باليهود، ومن دون كوارث لا يمكن أن تقوم لها قائمة، إذ يستقر اليهود حينذاك في مجتمعاتهم، يعيشون فيها شأنهم شأن أي أقليات دينية أو إثنية أخرى.

ومن مظاهر الاستقرار والاندماج تصاعد معدلات الزواج المختلط بين أعضاء الجماعات اليهودية وأبناء مجتمع الأغلبية. وقد وصلت هذه الزيجات المختلطة إلى ما يزيد عن ٥٠٪ في كثير من المناطق. ويشير سرجيو ديلا برجولاه، العالم الديموجرافي الإسرائيلي، إلى أن ٢٥٪ فقط من أبناء هذه الزيجات هم الذين يصنفون أنفسهم يهوداً، ويمكن أن نضيف أن حتى هؤلاء تكون هويتهم اليهودية ضعيفة، وتكاد تكون اسمية، وكل هذا يؤدي إلى الانصهار والاختفاء الذي بلغ ذروته في ألمانيا وأوكرانيا (٧٥٪). ويسمي الصهاينة الزواج المختلط (الهولوكوست الصامت)، أي الإبادة الصامتة لليهود، وهي تسمية أيديولوجية كريهة ومضلّلة، فاليهود الذين يستقرون في بلادهم ويتزاوجون من أعضاء الديانات الأخرى لا يُبادون، وما يتهاوى ويسقط هو الادعاءات الصهيونية الكاذبة.

تزايد وتناقص أعداد اليهود

وحتى تكتمل الصورة العامة للجماعات اليهودية، فلننظر للتطور الديموجرافي للجماعات اليهودية. كان أعضاء الجماعات اليهودية، كما أسلفنا، مركزين في العالم الإسلامي، وأغلبيتهم من السفارد، ولم يكن الإشكناز سوى أقلية. لكن الصورة تغيرت في القرن الخامس عشر، إذ كان عدد أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا يبلغ ١٠ - ١٥ ألفاً وارتفع إلى ١٥٠ ألفاً في فترة ١٥٠٠ - ١٦٤٨، وبذا أصبحوا أكبر تجمع يهودي في العالم (بعد تصفية الجيب اليهودي في شبه جزيرة أيبريا). واستمرت الزيادة حتى بلغ عدد يهود العالم في أواخر القرن السابع عشر نحو مليونين ونصف المليون، كانت أغلبيتهم العظمى (١,٧٥ مليون) في أوربة منها ١,٢ مليون في بولندا وحدها، أي إن يهود أوربة أصبحوا يهود بولندا. ويفسر آرثر كوستلر هذه الزيادة على أساس ما يسميه الشتات الخزري، أي هجرة أعداد كبيرة من يهود الخزر بعد

سقوط مملكتهم واستقرارهم في بولندا. وهذا كله إنما يسدد ضربات إلى فكرة نقاء اليهود العرقي والحضاري.

وتستمر الزيادة المطردة في عدد الإشكناز بينما يبقى عدد السفارد ويهود الشرق على ما هو عليه. وقد تمتع الإشكناز بطفرة سكانية لم ير أعضاء الجماعات اليهودية مثيلاً لها عبر التاريخ الإنساني؛ فزاد العدد إلى ستة ملايين شخص سنة ١٨٦٠م، وإلى ١٠,٥٠٠,٠٠٠ شخص سنة ١٩٠٠م، وإلى ١٦,٥٠٠,٠٠٠ شخص سنة ١٩٣٩م، والأغلبية الساحقة (٩٠,٩٪) من الإشكناز، الذين تمركز معظمهم في روسيا وبولندا، وقلة صغيرة من السفارد والشرقيين (٩,١٪)، أي إن عدد يهود الإشكناز ارتفع عشرة أضعاف من سنة ١٨٠٠ (١,٥٠٠,٠٠٠) إلى سنة ١٩٣٩ (١٥,٠٠٠,٠٠٠). وقد كان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى ظهور المسألة اليهودية ثم الحركة الصهيونية ذاتها، باعتبارها الحركة التي ستنقل الفائض البشري إلى موقع استيطاني خارج أوربة. ويجب الإشارة إلى أن زيادة تعداد أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب لم يكن ظاهرة يهودية خاصة، وإنما ظاهرة غربية عامة؛ فقد ارتفع عدد سكان أوربة فترة ١٨١٥ - ١٩١٤م من ١٩٠ مليوناً إلى ٤٠٠ مليون. وتعود الزيادة في أوربة بصورة عامة إلى زيادة نسبة المواليد وقلة الوفيات، وذلك بسبب الثورة الصناعية وما صاحبها من تحسين للأوضاع الصحية والطبية.

ومع هذا، يلاحظ أن نسبة زيادة أعضاء الجماعات اليهودية كانت أعلى من النسبة العامة في أوربة. ولعل هذا يعود إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية تأثروا بالأسباب العامة التي أدت إلى زيادة تعداد سكان أوربة نتيجة وجود ظروف خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليها، من بينها ارتفاع دخولهم نسبياً. وقد انعكس هذا على مستوى التغذية الذي أدى إلى تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. كما أن الأسرة اليهودية كانت تتمتع آنذاك بدرجة عالية من التماسك الناجم عن التمسك بالقيم الدينية والتقليدية،

ويضاف إلى ذلك أن زواج اليهود في سن مبكرة قد ساهم في هذه العملية. ومما يلاحظ كذلك أنه في فترة ١٨٠٠ - ١٩١٤م لم تقع حروب في الأماكن التي يوجد فيها أغلبية يهود العالم (فحتى معارك نابليون وقعت بعيداً عن مراكز التجمع اليهودي). وعلاوة على هذا، كان كثير من الدول لا يجنِّد اليهود، وبالتالي فإن اليهود لم يشتركوا في المعارك ولم يتكبدوا فيها خسائر في الأرواح.

ولكن إذا كان أعضاء الجماعات اليهودية قد واجهوا في نهاية القرن التاسع عشر مشكلة تزايد أعدادهم فإن الآية قد انعكست تماماً في القرن العشرين حتى وصلت حد الأزمة في الوقت الحاضر. وقد لاحظ يوريا إنجلمان في كتابه **ظهور اليهود في العالم الغربي** (١٩٤٤م) إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة (تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج) التي ستؤدي إلى تفسخ السكان اليهود بالكامل وحذَّر من أن نسبة المواليد لا تعوض نسبة الوفيات وأن معدلات المواليد بين اليهود في شرق أوربة (قبل الهجوم النازي عليهم وعلى غيرهم من الأقليات) وصلت نقطة الخطر. وفي دراسة بعنوان اختفاء اليهود الألمان كُتِبت عام ١٩٠٨م، حذَّر صاحبها (تايلهابز) مما سماه الضعف السكاني الذي قد يؤدي إلى اختفاء يهود ألمانيا تماماً.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وقد ساهم في تناقص عدد اليهود ظروف الحرب مثل المجاعة، وسوء الأحوال الصحية، وسوء التغذية، والغارات على المدن، وسقوط القتلى من أعضاء الجماعات اليهودية أثناء المعارك العسكرية، وأعمال السخرة، وعزل اليهود في مناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف (جيتوات حديثة)، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض (يُقال: إن نحو ثُلث سكان جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وإن كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تماماً خلال عدة أعوام). إلى جانب أن عدم الإحساس بالأمن أثناء الحرب يُعدُّ من أهم العوامل التي تجعل الناس يعزفون عن الإنجاب. كما يُلاحظ تزايد معدلات

الاندماج والزواج المختلط والتنصر بين أعضاء الجماعات اليهودية. وقد حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتسنى لهم دخول أمريكا اللاتينية، وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر. وينطبق الشيء نفسه على مئات الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازيين.

وهنا يمكن أن نثير قضية ستة الملايين ضحايا الإبادة النازية لليهود، فحسب بعض الإحصاءات الغربية (أقول بعض وليس كل، فهناك إحصاءات أخرى) انخفض عدد اليهود من ١٦,٥٠٠,٠٠٠ عام ١٩٣٩م (أي عشية الحرب العالمية الثانية) إلى ١٠,٨٥٠,٠٠٠، ويستنتج من ذلك أن عدد ضحايا الإبادة النازية هو ستة ملايين، ورغم الإبادة النازية ليهود أوربة وغيرهم من الأقليات هي تعبير عن نمط إبادي غربي عام (إبادة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية - إبادة السكان الأصليين في أستراليا ونيوزيلندا - إبادة الملايين في إفريقية - الحرب الإبادية ضد ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية.. إلخ)، ورغم أن تأسيس الدولة الصهيونية لا علاقة له بالهولوكوست، رغم كل هذا إلا أنها توظِّف (أي الإبادة) وبشكل سوقي يسيء إلى ضحايا الإبادة أنفسهم لخدمة المصالح الصهيونية.

ورغم أنه قد يكون اختفى ستة ملايين بالفعل، فإن السؤال يطرح نفسه: هل اختفاؤهم هو نتيجة الإبادة المتعمدة أم أنها نتيجة مركب من الأسباب؟ السؤال يمكن أن يكون أكاديمياً محضاً، لأن الموت سواء كان سريعاً بأفران الغاز أم بطيئاً من خلال أعمال السخرة، ولكن ما يحوِّل السؤال من سؤال أكاديمي إلى سؤال له أهمية سياسية مباشرة هو ما أشرنا إليه من توظيف بذيء للهولوكوست لتحقيق مكاسب للدولة الصهيونية، ولإسدال ستار سميك من الدخان على المذابح الأخرى في العالم، سواء مذابح الدولة الصهيونية أو مذابح الروس في الشيشان، ومن قبل ذلك المذابح الغربية المختلفة في المستعمرات!

وقد بدأت الظاهرة التي تسمَّى في علم الاجتماع الغربي (ظاهرة موت الشعب اليهودي)، وهي عبارة وضعها عالِم الاجتماع الفرنسي (اليهودي) جورج فريدمان، وتشير إلى ظاهرة تناقص أعضاء الجماعات اليهودية في العالم إلى درجة اختفاء بعض هذه الجماعات، وتحول الباقي منها إلى جماعات صغيرة (لا أهمية لها من الناحية الإحصائية)، فيلاحظ مثلاً أن المناطق التي كانت أغلبية اليهود تقطنها أصبحت مسرحاً لكثير من العمليات العسكرية. كما بدأ تجنيد اليهود في القوات المسلحة، وبدأت أعداد كبيرة منهم الهجرة، والعناصر المهاجرة تحجم، إلى حدٍّ ما، عن الإنجاب، وثمة عناصر أخرى أصبحت من ثوابت ديموجرافية الجماعات اليهودية في العالم الغربي (حيث أغلبية يهود العالم)، وهي عناصر تؤدي إما إلى اختفاء اليهود تماماً، وإما إلى انخفاض نسبة المواليد. ويمكن أن نورد الأسباب التالية التي تؤدي إلى تناقص أعداد اليهود فعلاً (من دون حدوث مذابح أو انتشار أوبئة):

١ - تزايد معدلات الاندماج؛ فكثير من اليهود الذين يندمجون يخفي هويته اليهودية وانتماءه اليهودي ويسجل بوصفه غير يهودي. ويبلغ عدد اليهود الذين أخفوا هويتهم في الاتحاد السوفييتي مليوناً ونصف مليون تقريباً. كما يُوجد الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد أصدرها الفاتيكان في أثناء الإرهاب النازي، وقد آثروا أن يحتفظوا بهويتهم الجديدة.

٢ - يلاحظ أن هناك أعداداً لا بأس بها من أعضاء الجماعات اليهودية تتنصر أو تتخرط في سلك العبادات الجديدة، ومن ثم تسقط عن نفسها تسمية (يهودي).

٣ - من أهم أسباب اختفاء اليهود الزواج المختلط إلى درجة لم يشهدها يهود العالم من قبل. وقد بلغت معدلات الزواج المختلط في الولايات المتحدة ما يزيد على ٥٠٪، وبلغت في الاتحاد السوفييتي أحياناً ٨٠٪، وذلك في الأماكن

التي تقطنها أقليات يهودية صغيرة بعيدة عن مراكز التجمعات اليهودية الكبرى. وفي كثير من الأحيان يُسقط الزوج اليهودي في الزيجة المختلطة هويته حتى لا يسبب الحرج لزوجه. ولا يعوض عدد المتهودين، من أجل الزواج، من عدد المتنصرين للسبب نفسه. ويلاحظ أنه بتأثير حركة التمركز حول الأنثى، بدأت الأنثى اليهودية، التي كانت تُعدُّ في الماضي العمود الفقري للهويات اليهودية تندمج في المجتمع الذي تعيش في كنفه بمعدلات تقترب من معدلات الذكور، وهي تقبل الآن على الزواج المختلط بعد أن كان ذلك مقصوراً تقريباً على الذكور. ويلاحظ أن أبناء الزواج المختلط يكونون عادةً إما غير يهود وإما غير مكترثين باليهودية.

أما بالنسبة إلى انخفاض نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، فمن المعروف أنها تصل في الوقت الحاضر إلى واحدة من أقل النسب في العالم، إذ بلغت ١٦ في الألف. وفي حين أن المرأة اليهودية في إسرائيل تنجب ٢,٨ من الأطفال، فإن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة تنجب ١,٥ طفل، ويعود ذلك إلى الأسباب التالية (مع ملاحظة أن بعض هذه الأسباب ليس مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية، وإنما هو ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية التي توصف بـ «المتقدمة»):

١ - تفشي قيم المنفعة واللذة والفردية والأنانية في المجتمعات المسماة متقدمة، وهي قيم تتناقض مع فكرة الأسرة والزواج وإنجاب الأطفال وتنشئتهم، بكل ما يتضمن ذلك من قيد على الحرية وتخلٍّ عن المتعة الحسية المباشرة.

٢ - الزواج المتأخر، وهو ظاهر عامة في المجتمعات المسماة متقدمة ناجمة عن تصدع مؤسسة الأسرة، وعن امتداد الوقت الذي تستغرقه العملية التعليمية، وتأخر الاستقلال الاقتصادي للأبناء.

٣ - تزايد عدد الشذاذ جنسياً في المجتمعات المسماة «متقدمة» (بنسبة تصل

في بعض مدن الغرب إلى ٣٠٪)، وهنالك نسبة عالية منهم من اليهود، وينتمي معظمهم إلى المرحلة العمرية النشيطة جنسياً، وهذا يعني أن عدداً كبيراً من الذكور والإناث ينسحب من عملية الإنجاب.

٤ - انسحاب كثير من النساء من عملية الإنجاب في المجتمعات المسماة متقدمة بتأثير من حركة التمركز حول الأنثى، التي تجعل أي نشاط أنثوي خاص (مثل الإنجاب) أمراً سلبياً أو معوقاً لنشاط المرأة في الحياة العامة. ومن المعروف أن معظم قيادات هذه الحركة من اليهوديات، وأن نسبة اليهوديات المنخرطات فيها تفوق المعدل القومي.

٥ - تفسخ الأسرة اليهودية وتزايد نسبة الطلاق، وهما أمران يزيدان في الإحجام عن الإنجاب.

٦ - تركز أعضاء الجماعات اليهودية في المدن، فهناك خمس مدن أمريكية تضم أكثر من نصف الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة (نيويورك ١,٤٥٠,٠٠٠، لوس أنجلوس ٤٩٠,٠٠٠، شيكاغو الكبرى ٢٤٨,٠٠٠، ميامي ١٩٩,٠٠٠، فيلادلفيا ٢٥٠,٠٠٠). وأكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية (٢٠٠,٠٠٠) موجود في بوينس آيرس، وأكثر من نصف يهود جنوب إفريقية (٦٣,٠٠٠) موجود في جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا (٣٨٠,٠٠٠) موجود في باريس، وهكذا. أما النصف الثاني فموزع على مدن كبرى أخرى، أي إن الأغلبية العظمى من أعضاء الجماعات اليهودية موجودة في مراكز حضرية، ومن المعروف أن المدن لم تستطع عبر التاريخ أن تحتفظ بكثافتها السكانية من خلال التزايد الطبيعي.

وكان من شأن هذه الأسباب كلها أن تؤدي إلى تناقص عدد المواليد، كما أن مستوى العناية الصحية آخذ في التحسن، وهو ما يؤدي إلى زيادة معدلات العمر ونسبة كبار السن الذين يعتبرون شريحة غير خصبة من السكان. ويلاحظ أن ١٦٪ من أعضاء الجماعات اليهودية تتجاوز أعمارهم ٦٥ عاماً،

وتصل نسبة المسنين بينهم إلى ٣٩٪ أحياناً. وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أصبحت من أقل النسب في العالم.

وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أصبحت واحدة من أقل النسب في العالم، وأي جماعة إنسانية، حتى تعيد إنتاج نفسها بيولوجياً، لا بد أن تنجب الأنثى التي تنتمي إليها طفل في المتوسط. لكن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة في العالم، فالإناث في المرحلة العمرية ٣٥ - ٤٤ ينجبن ١,٥٧ طفلاً، أما المرحلة العمرية ٢٥ - ٣٤ (وهي المفروض أكثر المراحل خصوبة) فالإناث ينجبن فيها ٨٧٪. أي أقل من طفل واحد، مما يدل على أن منحنى التناقص آخذ في الازدياد.

ويبلغ عدد اليهود عام ٢٠٠٠م نحو ١٣,٠٩٣,٠٠٠، أي إن عددهم ظل ثابتاً قرابة ربع قرن. ويتوقع معهد اليهودية المعاصرة التابع للجامعة العبرية بالقدس أن يصل عدد اليهود إلى ١٣,٤٢٨,٠٠٠ عام ٢٠١٠م. ولكن هناك توقعات أكثر تشاؤماً من منظور صهيوني، فيذهب صموئيل لايبرمان ومورتون واينفيلد إلى أن عدد يهود الولايات المتحدة سيصل إلى ٣,٩ مليون عام ٢٠٧٠. أما إلياهو برجمان (بمركز هارفارد للدراسات السكانية) فهو أكثر تشاؤماً إذ يرى أنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوي الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أي أقل من مليون)، مع ملاحظة أن كلمة (يهودي) يتلاعب بها الديموجرافيون اليهود حتى يزيدوا من أعداد اليهود في العالم.

ويشير ديلا برجولاه إلى أنه إذا استمرت الاتجاهات الحالية (من تناقص عدد المواليد وتزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط) والتي يصاحبها ظاهرة أن الجماعات اليهودية في العالم لا تتزايد بسبب العزوف عن الزواج

والإنجاب. إذا حدث ذلك فإن ديلا برجولاه يتوقع أن عدد اليهود في إسرائيل سيكون مماثلاً لعددهم في بقية أنحاء العالم، في غضون أقل من ٣٠ عاماً، ثم يشير إلى أن نصف الأطفال اليهود (ممن تصل أعمارهم إلى ١٥ سنة) يعيشون حالياً في إسرائيل، وأنه في عام ٢٠٢٠ ستصل نسبتهم إلى ثُلثي الأطفال ممن هم في هذه المرحلة العمرية، وهذا الوضع الديموجرافي سيُغيِّر الصورة تماماً.

وفيما يلي إحصاء بعدد اليهود في العالم عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠١٠م.

أماكن التواجد	العدد الحالي	العدد المتوقع في عام ٢٠١٠
إسرائيل	٤,٧٩٠,٠٠٠	٥,٦٤٤,٠٠٠
أمريكا الشمالية	٦,٠٦٢,٠٠٠	٥,٩٣٩,٠٠٠
أمريكا الوسطى والجنوبية	٤٢٨,٠٠٠ (تضم الأرجنتين وحدها ٢٣ ألف)	٣٩٨,٠٠٠
أوربة	١,١٣٨,٠٠٠ (تضم فرنسا وحدها ٥٢٢ ألف)	١,٠٦٦,٠٠٠
الاتحاد السوفيتي السابق	٥٤٠,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠
آسيا وشمال إفريقية	٢٨,٠٠٠	٢٦,٠٠٠
جنوب إفريقية + منطقة المحيط الهندي	١٩٥,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠
الإجمالي	١٣,٠٩٣,٠٠٠	١٣,٤٢٨,٠٠٠

المصدر: معهد اليهودية المعاصرة المسمى باسم "أ. هيرمان" والتابع للجامعة العبرية بالقدس.

ولذا، يمكننا القول: إن يهود العالم سينقسمون إلى قسمين أساسين:

١ - أمة تتحدث بالعبرية في إسرائيل، ليس لها سوى علاقة واهية بالعقيدة اليهودية أو بالتاريخ اليهودي (أي تواريخ الجماعات اليهودية)، وتعتمد في وجودها على حكومة الولايات المتحدة، وتوجهها الحضاري استهلاكي متأمرك. ويمكن أن نستخدم هنا مصطلح جورج فريدمان بالإشارة إلى الإسرائيليين بأنهم: «أغيار يتحدثون بالعبرية».

٢ - جماعة يهودية في الولايات المتحدة، تنقسم بدورها إلى قسمين:

أ) قلة صغيرة متمسكة بتعاليم الدين اليهودي، وتحاول قدر استطاعتها أن تنفذ تعاليمه وتفهم شعائره.

ب) أغلبية باهتة الهوية لا تمارس الشعائر الدينية، وإنما تقيم بعضها باعتباره شكلاً من أشكال الفولكلور. وهي تحاول أن تحافظ على بقايا الموروث الثقافي اليهودي الذي يعود بجذوره إلى شرق أوربة على الرغم من تزايد معدلات أمركتها.

وهذا يعني أن الدياسبورا اليهودية ستصبح أساساً الدياسبورا الأمريكية، أو الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، أي إن أعضاء الجماعات ستصبح جزءاً لا يتجزأ من الشعب الأمريكي، بعد أن كانت جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الغربي. وإذا أخذنا في الاعتبار اعتماد إسرائيل شبه الكامل على الولايات المتحدة، فإنه يمكننا القول: إن يهود العالم سيعيشون في القرن المقبل داخل الولايات المتحدة، أو أنهم سيدورون في فلكها الحضاري والاقتصادي والسياسي.

كل اليهود صهاينة وكل الصهاينة يهود

يظن بعض الدارسين أن كل اليهود صهاينة وأن كل الصهاينة يهود. وكلا العبارتين لا يوجد له سند في الواقع. وكما سنبين فيما بعد (خاصةً في الفصل

الرابع) لم تنشأ الصهيونية في الأوساط اليهودية، وإنما في الأوساط الاستعمارية الغربية، وقد اكتمل الفكر الصهيوني في كتابات لورد شافتسبري وسير لورانس أوليفانت، مما يعني أن هناك صهاينة غير يهود. أما الادعاء الثاني أن كل اليهود صهاينة، فيمكننا تقويضه إن تبنينا نموذجاً تحليلياً مركباً لا يكتفي بطرح بديلين اثنين: مؤيد للصهيونية أو رافض لها، ولنبدأ تحليلنا بتأكيد حقيقة بدهية، وهي أن ظهور الحركة الصهيونية، ثم الدولة الصهيونية، اكتسبا مكانة مركزية في حياة الجماعات اليهودية. وقد طرحت الصهيونية نفسها منذ البداية بأنها المتحدث الحقيقي الذي يعبر عن مصالح الشعب اليهودي وتطلعاته. وكما سنبين فيما بعد، من الملاحظ أن حركة الجماعات اليهودية وهجرتهم كانتا مرتبطتين تماماً بحركات الاستعمار الاستيطاني الغربي، والصهيونية ليست استثناءً لهذه القاعدة؛ فوعد بلفور هو بمثابة العقد الذي تم توقيعه بين التشكيل الاستعماري الغربي والحركة الصهيونية، تقوم الأخيرة بمقتضاه بتحويل الفائض اليهودي المتدفق من شرق أوربة على غربها إلى فلسطين لتحويله إلى مادة استيطانية توظَّف في خدمة الاستعمار الغربي والدفاع عن مصالحه، وفي المقابل، تقوم القوى الإمبريالية، راعية المشروع، بحماية الجيب الاستيطاني ودعمه مالياً، وتوفير الأمان له. فالحل الصهيوني هو، في الواقع، حل لمشكلة كثير من يهود العالم الغربي الذين يرغبون في الانتماء إلى الحضارة الغربية، لكنهم أخفقوا في ذلك (لمركب من الأسباب). ولذا، وعدت الصهيونية بنقلهم إلى خارج أوربة بحيث يحققون، من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي، ما فشلوا في تحقيقه من خلال التشكيل الحضاري الغربي.

وعلى الرغم من معارضة الأغلبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية الصهيونية، فإن قيادتها سقطت في يد الصهيونية في نهاية الأمر من خلال تحالفها مع القوى الإمبريالية. وفي أية حال، لقد كان اعتراض معظم أعضاء

الجماعات اليهودية على الصهيونية ذا طبيعة برجماتية، ولا ينصرف أبداً إلى طبيعتها وبنيتها بوصفها حركة استعمارية استيطانية إحلالية؛ إذ إن خطر الصهيونية بالنسبة إليهم كان يكمن في أنها قد تعطي مصداقية لتهمة ازدواج الولاء، وهي تهمة لم تعد ذات بال بعد أن أصبحت الدولة الصهيونية عميلاً للتشكيل الاستعماري الغربي وحليفه الاستراتيجي الوحيد ثم الأساسي في المنطقة. وأصبح الانتماء إلى الغرب يكمل الانتماء إلى الصهيونية، ولا يتعارض معه باعتبار أن الصهيونية نفسها منتمية إلى هذه الحضارة الغربية التي تشكل الإطار الأكبر لكل من الجماعات اليهودية، والدول الصهيونية، والتشكيل الإمبريالي الغربي في وجهيه العسكري والاستيطاني.

ومع هذا، وعلى الرغم من نجاح الصهيونية في تسلم مقاليد القيادة، فإن موقف أعضاء الجماعات اليهودية من الحركة والدولة الصهيونية يتسم بكثير من التركيب. ويمكن أن نصنِّف موقفهم هذا إلى قسمين أساسيين: تأييد للصهيونية في مقابل مختلف أشكال عدم تقبُّلها.

أولاً: تأييد الصهيونية

لا يمكن القول: إن أعضاء الجماعات اليهودية يؤيدون الصهيونية تأييداً أعمى وكاملاً، بل العكس هو الصحيح، في تصورنا، ويمكن أن نقسِّم أسس هذا التأييد إلى ثلاثة أقسام:

١ - **الصهيونية الاستيطانية**: يطالب دعاة هذا النوع من الصهيونية بالهجرة إلى فلسطين واستيطانها، والمحافظة على الطابع الصهيوني لدولة إسرائيل. وهؤلاء يأتون، في الدرجة الأولى، من شرق أوربة المصدر الأساسي للمادة البشرية (لكن انظر أدناه: الصهيونية النفعية).

٢ - **الصهيونية التوطينية**: وهي الصهيونية يهود غرب أوربة ويهود الولايات المتحدة ممن يطالبون بتهجير اليهود إلى فلسطين. وهؤلاء يؤيدون

المشروع الصهيوني، ويدعمونه مالياً، ويضغطون في مصلحته سياسياً، وينظمون التظاهرات من أجله، لكنهم لا يهاجرون أبداً إلى الدولة الصهيونية. وفي الماضي، كان الباعث الأساسي للصهيونية التوطينية الخوف من تدفق يهود شرق أوربة، لكنه أصبح الآن البحث عن الهوية، والرغبة في أن ينتمي اليهودي إلى شيء ضخم، وهي رغبة مبعثها تفاهة حياة الإنسان في المجتمعات الاستهلاكية الحديثة، وخلوها من المعنى، وافتقارها إلى التعيُّن والخصوصية، وهذا النوع من الصهيونية لا يتناقض البتة مع العقد الاجتماعي الأمريكي الذي يسمح لمواطنيه بالتعبير عن هويتهم الإثنية الحقيقية أو الوهمية، وعن حبهم لوطنهم الأصلي ما دام أن هذا لا يتعارض مع مصلحة أمريكا. وإسرائيل بالنسبة إلى التوطينيين هي الوطن الأصلي. ولنا أن نلاحظ أن الوطن الأصلي هو البلد الذي يهاجر الإنسان فيه لا إليه، وبالتالي، فإن الأسطورة الصهيونية التوطينية تقف على طرف النقيض من الأسطورة الصهيونية الاستيطانية.

٣ - **الصهيونية النفعية أو صهيونية المرتزقة:** وهي صهيونية هؤلاء الذين ينضمون إلى الحركة الصهيونية ويدافعون عنها بسبب ما يحققونه من مغانم من خلالها، على الرغم من ادعائهم أنهم يلتزمون مبادئها. وهذا الوصف ينطبق على بيروقراطية المنظمة الصهيونية العالمية، وعلى بعض العناصر داخل المستوطن الصهيوني، وينطبق أخيراً على معظم المهاجرين السوفييت الذين وفدوا مع موجة الهجرة الأخيرة.

ثانياً: عدم تقبُّل الصهيونية

١ - رفض الصهيونية:

يرفض بعض اليهود الصهيونية إما من منظور ديني، وإما من منظور اندماجي علماني. والذين يرفضونها من منظور ديني ينقسمون إلى قسمين:

الأرثوذكس والإصلاحيون. ويعترض بعض اليهود الأرثوذكس (جماعة ناطوري كارتا مثلاً) على الحركة الصهيونية باعتبارها حركة علمانية تجعل من اليهود أمة بالمعنى العرقي العلماني للكلمة بما يتنافى مع تعاليم الدين اليهودي، التي تجعل من اليهود شعباً بالمعنى الديني فحسب؛ ترتبط هويته بمدى تنفيذه للأوامر والنواهي. ويرى هؤلاء اليهود الأرثوذكس أن الصهيونية حركة مشيحانية زائفة تتحدى الإرادة الإلهية، إذ بدلاً من دعوة اليهود إلى الانتظار بصبر وأناة إلى أن يأذن الرَّب لهم في العودة، فإنها تحرِّضهم على أخذ زمام الأمور في أيديهم والعودة إلى فلسطين لاستيطانها.

أما الإصلاحيون، فهم - كما أسلفنا - يسقطون الجانبين الإثني والقومي في اليهودية، ويجدون في الصهيونية عودة إلى القَبْلية وضيق الأفق وحرفية التفسير، ويرى كثير من المتدينين أن الدولة الصهيونية حلت في الوجدان اليهودي محل الإله، وحلَّ الولاء لها ودعمها محل إقامة الشعائر، وكما قال الحاخام الإصلاحي ألكسندر شندلر: يتصور اليهود الآن أن إسرائيل هي معبدهم وأن رئيس حكومتها هو حاخامهم الأكبر. وقد وصفها حاخام أرثوذكسي بأنها مثل العجل الذهبي، أي عبادة وثنية قربانية تحل محل العبادة الحقيقية.

أما من يعارضون الصهيونية من منظور اندماجي علماني، فبعضهم ليبرالي والبعض الآخر اشتراكي، وهما يشتركان في رؤية إمكان حل مشكلة وضع اليهود في المجتمعات الغربية إما من خلال زيادة الليبرالية في المجتمع وإما من خلال زيادة الإجراءات الاشتراكية فيه. وقد أصبح عدد رافضي الصهيونية بهذا الشكل الواضح والحادّ صغيراً في المجتمعات الغربية.

٢ - عدم الاكتراث بالصهيونية:

يذهب بعض اليهود إلى أن الصهيونية لا تعنيهم من قريب أو بعيد، وأنها

قضية تخص المستوطنين الصهاينة أو بعض قطاعات اليهود ممن يبحثون عن وطن جديد لهم. ويمكن القول: إن عدم الاكتراث هو الموقف السائد الآن في العالم. وكثير من كبار مثقفي اليهود في العالم ينتمي إلى هذا الفريق.

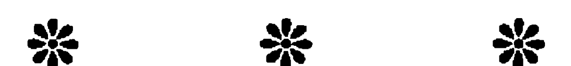
٣ - التملص من الصهيونية:

مع هيمنة الصهيونية وتسلُّمها قيادة الجماعات اليهودية في العالم، أصبح من الصعب التصدي لها ورفضها علانية، ولذا يلجأ بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى إطلاق التصريحات النازية من أجل إسرائيل، لكنَّهم لا يفعلون شيئاً يخدم مصلحتها. ولعل الصهيونية التوطينية، في شكل من أشكالها، هي تعبير عن هذا التملص. وقد شبه أحدهم هذا النوع من الصهاينة بفرق الإنشاد العسكرية التي تغني نشيداً عسكرياً يقول: «إلى الأمام إلى الأمام»، لكنهم هم أنفسهم ثابتون في أماكنهم لا يتحركون.

٤ - نقد الصهيونية:

يتقبل كثير من يهود العالم الدولة الصهيونية حقيقةً قائمة، لكنهم يتوجهون بالنقد الجذري (أحياناً) للحركة والدولة الصهيونيتين، فبعض المتدينين من الأرثوذكس يوجه نقداً إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة علمانية تنتشر فيها الإباحية ولا تقام فيها الشعائر الدينية. وبعض العلمانيين واليهود الإصلاحيين والمحافظين يجدها دولة دينية غيبية جامدة، ترفض التعددية والتنوع، وتهيمن اليهودية الأرثوذكسية عليها. وبعض الليبراليين يجد أنها دولة يسيطر عليها القطاع العام وبعض المثاليات الاشتراكية الجامدة، وأنها ذات نزعة توسعية، وتمارس التميز العنصري. ويجدها بعض اليساريين دولة عميلة للولايات المتحدة، واقتصادها يدور في فلك الاقتصاد الرأسمالي الغربي، ومتحالفة مع النظم الفاشية في العالم. وهناك كثير من يهود العالم يرفض المفهوم الصهيوني الخاص بمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا، ويطرح بدلاً من ذلك مفهوم مركزية الدياسبورا في حياة اليهود.

إن الصورة الموجزة السابقة تبين أن علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بإسرائيل ليست علاقة حميمة، وأنها مشوبة بكثير من التوتر، لكن معظم يهود العالم يرفع لواء الصهيونية، ويؤيد دولتها من أجل رفع معنوياته، وتحسين صورته إلى أن تسقط الأنماط الإدراكية التقليدية التي سادت في الحضارة الغربية، والتي ترى اليهودي جشعاً مصاصاً للدماء جباناً لا رحمة عنده ولا شفقة، ليحلَّ محلَّها اليهودي المحارب الذي يزرع الصحراء ويبذل العطاء للشعوب المستضعفة. ولذا، فإن سقوط الصورة الإعلامية الجميلة للدولة الصهيونية يقلِّل من جاذبيتها ليهود العالم، فيبذلون قصارى جهدهم من أجل أن يحتفظوا بمسافة بينهم وبينها، والابتعاد عنها، وعدم التوحد بها اسماً وفعلاً.



الفصل الثاني

يهود أم جماعات وظيفية يهودية؟

فلننظر إلى أكبر تسع جماعات يهودية في العالم:

الدولة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى يهود العالم
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٤٣,٥٪
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٣٢,٨٪
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٤,١٪
روسيا	٤١٥,٥٠٠	٣,٢٪
كندا	٣٥٦,٠٠٠	٢,٨٪
بريطانيا	٢٩٨,٠٠٠	٢,٣٪
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٢,١٪
الأرجنتين	٢١١,٠٠٠	١,٦٪
جنوب إفريقية	١٠٠,٠٠٠	٠,٨٪

نلاحظ في هذا الجدول أن ٩٥,١٪ من يهود العالم يعيشون في تسعة مراكز رئيسية، بما في ذلك الدولة الصهيونية، وأن ٨٢,٤٪ منهم يعيشون في ثلاث دول فقط. ونلاحظ أيضاً أن البلاد التي فيها أعضاء الجماعات اليهودية تنتمي إلى ما يمكن تسميته التشكيل العربي الأبيض؛ ففي الأرجنتين، حيث

أعلى نسبة من البيض في أمريكا اللاتينية، هناك أيضاً أعلى نسبة من اليهود. أما في البرازيل، فتكاد تكون الاستثناء الوحيد من القاعدة، ومع هذا، فإننا نجد أن نسبة السكان من أصل أبيض عالية في المدن، حيث يتركز اليهود، ولا يوجد اليهود في الاتحاد السوفييتي السابق إلا بنسبة ضئيلة في الجمهوريات الآسيوية؛ إذ إنهم يتركزون في روسيا وأوكرانيا.

ويمكن تقسيم البلاد التي تعيش الأغلبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها إلى قسمين أساسيين لا ثالث لهما: ٢٢٪ في أوربة والاتحاد السوفييتي (سابقاً)، أي داخل التشكيل الحضاري الغربي، و ٧٧٪ داخل التشكيل الاستيطاني الغربي (٤٣,١٪ في الولايات المتحدة، و ٥,٨٪ في دول استيطانية أخرى مثل كندا والأرجنتين وجنوب إفريقية والبرازيل، و ٢٩٪ في إسرائيل).

فما تفسير هذه الظاهرة؟

الجماعات الوظيفية

لتفسير هذه الظاهرة يمكننا استخدام مفهوم الجماعة الوظيفية (أو جماعة المتعاقدين الهامشيين الغرباء)، و (الجماعات الوظيفية) هي مجموعات بشرية صغيرة يقوم المجتمع بإسناد وظائف شتى إليها، يرى أعضاء هذا المجتمع أنهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة، قد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع ولا تحظى بالاحترام في سلم القيم السائدة (التنجيم - البغاء - الربا)، وقد تكون متميِّزة (الطب، خصوصاً أطباء النخبة الحاكمة - القتال)، وقد يتطلب الاضطلاع بها الحياد والتعاقدية؛ لأن المجتمع يريد الحفاظ على قداسته وتراحمه ومثالياته (التجارة والربا). وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي لملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية، ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى

(الحاجة لمستوطنين جدد لتوطينهم في المناطق النائية). كما أنه قد يوكل لأعضاء الجماعات الوظيفية الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمني (حرس الملك - طبيبه - السفراء - الجواسيس). ويمكن أن تكون الوظيفة مشينة ومتميِّزة حساسة في الوقت ذاته (مثل الخصيان والوظائف الأمنية على وجه العموم). كما أن المهاجرين عادةً ما يتحولون إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد) لأن الوظائف الأساسية في وطنهم الجديد عادةً ما تكون قد شغلت من قِبَل أعضاء المجتمع المضيف. ويحاول الاستعمار دائماً أن يحول أعضاء الأقليات إلى جماعات وظيفية تضطلع بوظائف يسندها إليها وتتمتع بمزايا يقدمها لها حتى تدين له بالولاء.

ويتوارث أعضاء الجماعة الوظيفية الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبر الأجيال ويحتكرونها، بل ويتوحدون بها وفي نهاية الأمر يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم منها بحيث يتم تعريف الإنسان من خلال الوظيفة وحسب، لا من خلال إنسانيته الكاملة، فيصبح عضو الجماعة الوظيفية إنساناً ذا بُعد واحد يمكن اختزال إنسانيته إلى هذا البُعد أو المبدأ الواحد، وهو وظيفته.

وبعد أن يتم استيراد أو تجنيد العنصر الوظيفي يحدث ما يلي:

١ - يدخل المجتمع المضيف في علاقة تعاقدية نفعية حيادية رشيدة مع أعضاء الجماعة الوظيفية، وهي علاقة يُحَوْسِلُ[١] كل طرف فيها الطرف الآخر. وينظر إليه باعتباره وسيلة لا غاية؛ مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها (التعاقدية).

٢ - ويتم عزل أعضاء الجماعة الوظيفية (عن طريق الزي أو المسكن أو اللغة أو العقيدة أو الانتماء الإثني) حتى يصبح العنصر الوظيفي غريباً مميزاً

(١) يُحَوْسِلُ: من الحَوْسَلَةِ. وهي منحوتةٌ من: (التَّحويل) و(الوَسِيْلَة) أي يحوّلُ كل طرف فيها الطرفَ الآخر إلى وسيلة. (الناشر)

ويظل بلا قاعدة جماهيرية أو أساس للقوة، وفي حالة خوف دائم من الجماهير، لا يطمح في المشاركة في السلطة (وهذه ميزة كبيرة من منظور النخبة الحاكمة). ولذا، يتعمق ولاء أعضاء الجماعة الوظيفية للنخبة الحاكمة التي استوردته والتي تستخدمه كأداة وتضمن بقاءه واستمراره. وغالباً ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفياً بوطن أصلي (صهيون - الدين - القبيلة - العائلة) ويصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة. ولكن الجماعة الوظيفية (والوظيفة ذاتها) هي، في واقع الأمر، موضع الولاء الفعلي والمباشر لأعضاء الجماعة الوظيفية، فهي أساس وجودهم وهويتهم. وينتج عن هذا أن أعضاء الجماعة الوظيفية يشعرون بالغربة نحو المجتمع المضيف، يعيشون فيه دون أن يكونوا منه (العزلة والغربة والعجز).

٣ - ينتج عن هذا انفصال أعضاء الجماعات الوظيفية عن الزمان والمكان اللذين يعيشون فيهما، ويتطور لديهم إحساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي أو الشعب العضوي المنبوذ)، وهي هوية تكون في معظم الأحيان وهمية، فهم لا يعرفون معجماً حضارياً سوى معجم المجتمع المضيف (الانفصال عن الزمان والمكان والإحساس بالهوية الوهمية).

٤ - ويُطور طرفا العلاقة (أعضاء الجماعة الوظيفية والمجتمع المضيف) رؤية أخلاقية ثنائية، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الآخر، باعتبار أن الآخر في هذه العلاقة يقع دائماً خارج نطاق الحرمات والمطلقات الأخلاقية. ويحاول كل طرف أن يحقق منفعته ولذته مستخدماً الآخر (ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية).

٥ - لكل هذا، يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحركية البالغة (الترانسفير)، فهم آلة لا وطن لها ولا انتماء إلا الوظيفة (الحركية).

٦ - ينجم عن هذا الوضع تأرجح شديد بين تمركز حول الذات (الوظيفة باعتبارها الذات والهوية) وتمركز حول الموضوع (الوظيفة باعتبارها خدمة

تؤدى للمجتمع). فعضو الجماعة الوظيفية قد يكون عضواً في شعب مختار، ولكنه أيضاً أداة في يد المجتمع، وتظهر عقدة الاختيار، الذي يواكبه شعور عميق بالحتمية.

وقد عرفت جميع المجتمعات البشرية تقريباً ظاهرة الجماعات الوظيفية (فهي تعبِّر عن شيء أساسي في النفس البشرية)، ومع هذا نميل إلى القول بأنها ظاهرة أخذت شكلاً أكثر حدة في الحضارة الغربية منها في الحضارة الإسلامية. وإذا نظرنا إلى وضع الجماعات اليهودية في الحضارة الإسلامية، بالمقارنة بالحضارة المسيحية الغربية، فإننا نجد أنَّ عمليَّة الحَوْسَلَةِ بالنسبة إليهم لم تتم على نفس المستوى ولا بنفس الحدّة، وأن تركيبتهم الطبقية والمهنية لم تكن تختلف كثيراً عن تركيبة بقية أعضاء المجتمع. كما يمكن أن نضرب مثلاً بأقباط مصر، فرغم أنهم يشكلون الأقلية العددية الهامة الوحيدة في المجتمع المصري (فالنوبيون وسكان الصحراء لا يشكلون قوى اجتماعية أو بشرية مهمة) إلا أننا نجد أن خطابهم الحضاري لا يختلف عن الخطاب الحضاري للمسلمين، كما أنهم لا يختلفون عنهم لا في الزِّيِّ ولا في اللغة ولا في العادات أو التقاليد ولا في الانتماءات الطبقية أو في التَّوَزُّعِ الوظيفي أو السكاني. ومما لا شك فيه أن بعض قطاعات من أقباط مصر تَمَّتْ حوسلتها في وظائف بعينها (مثل الربا في بعض قرى مصر، أو جمع القمامة لارتباط ذلك بتربية الخنازير)، إلا أنَّ الحَوْسَلَةَ لم تكن كاملة أو جوهرية بل ظلت هامشية، وظل أقباطُ مصر جزءاً لا يتجزأ من مجتمعهم لا يمكن التعرف عليهم إلا من خلال أسمائهم المتميِّزة في بعض الأحيان.

الجماعات الوظيفية اليهودية

قام المجتمع الغربي بحوسلة اليهود داخله تماماً على هيئة جماعة وظيفية مالية حتى ارتبط اسم اليهود بدور المرابي والتاجر الطفيلي والذي اضطلع به اليهود وحدهم تقريباً. وقد أصبحت كلمة (تاجر) أو كلمة (مرابي) مرادفة لكلمة

(يهودي) وأصبح يُطلَق على هذه الوظائف اسم (الوظائف اليهودية)، حتى إن الصينيين حينما يضطلعون بدور التاجر والمرابي في جنوب شرق آسيا يُطلَق عليهم «يهود جنوب شرق آسيا»، وحينما يضطلع الهنود بالدور نفسه في إفريقية (ومن بينهم مسلمون) يُسمون «يهود إفريقية»، فكأن هناك مفهوماً كامناً لفكرة (اليهودي الوظيفي) أي الإنسان الوظيفي الذي يضطلع بالوظائف التي يُقال لها يهودية، وكل من يضطلع بها يصبح يهودياً (بالمعنى الوظيفي).

ويمكننا القول بأن السمات الأساسية للجماعات الوظيفية وطبيعة علاقتها بالمجتمع المضيف تتضح بشكل متبلور في الجماعات اليهودية في العالم الغربي وفي طبيعة علاقتها به:

١- التعاقدية (النفعية والحياد والترشيد والحوسلة)

تتسم علاقة الجماعات اليهودية بالمجتمع الغربي بأنها علاقة نفعية تعاقدية لا تتسم بالتراحم، فقد نظر العالم الغربي إلى أعضاء الجماعات اليهودية منذ البداية باعتبارهم وظيفة تُؤدَّى ودوراً يُلعَب وعنصراً موضوعياً مُجرَّداً ومُحايداً، مجرد مادة بشرية، فكانوا يُستجلَبون ليؤدوا وظيفة التاجر والمرابي. وكان أعضاء الجماعة اليهودية عادةً من الغرباء، ولذا كانوا يُعَدُّون ملكيةً خاصّةً للملك (أقنان بلاط) الذي كان له حق امتلاك اليهود (باللاتينية: «جودايوس هابيري Judaeos habere »)، أي حق الاحتفاظ باليهود (باللاتينية: «جودايوس تنيري Judaeos tenere »). وكان من حقه بيعهم كما تبيع أية مدينة حق استعمال مناجمها أو طرقها العامة. ولذا، كان اليهود أقرب ما يكونون إلى ممتلكات تُفرَض عليها ضرائب أو أدوات إنتاج، فكان يُشار إليهم بوصفهم عبيداً أو ملْكاً منقولاً كالأثاث (بالإنجليزية: « تشاتيل Chattel »)، وكانت كثير من المواثيق تشير إليهم باعتبار أنهم يخضعون للملك وملْك له، يرثهم من يرث العرش! ولعل السبب في وقوع قدر كبير من الخلل التحليلي هو أن كثيراً من الدارسين لم يدركوا طبيعة وضع الجماعات

اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي من حيث هي وظيفة تُؤدَّى، واستمروا في اعتبارها طبقة أو أعضاء في طبقة، وكان أعضاء الجماعات اليهودية يُعطَون حقوقاً ومزايا تضمنها مواثيق يشترونها من الحاكم. ولكن المواثيق التي كانت تُمنَح لهم لم تكن قط نهائية وإنما كانت تُجدَّد دائماً، وكان يتعيَّن عليهم أحياناً دفع مبلغ للإمبراطور كل عام لتأكيد حقه في أنهم ملْك له (وهو استمرار للفيسكوس جواديكوس أو ضريبة اليهود التي فُرضت عليهم بعد سقوط الهيكل). ولعل حدة هذا الوضع قد خفتت قليلاً عبْر القرون والسنين، ولكنها ظلت قائمة حتى أوائل القرن التاسع عشر في كثير من أنحاء أوربة (وقد تعيَّن على الفيلسوف الألماني اليهودي موسى مندلسون أن يدفع ضريبة انتقال، حينما كان ينتقل من مدينة ألمانية إلى أخرى، تساوي ما كان يُدفَع لانتقال ثور).

٢ - العزلة والغربة والعجز

حينما استجلب المجتمع الغربي بعض أعضاء الجماعات اليهودية ليضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية ضرب عليهم العزلة، فكان أعضاء الجماعة اليهودية يعيشون في جيتو خاص بهم يرتدون أزياء خاصة مقصورة عليهم ويؤمنون بعقيدة مختلفة عن عقيدة مجتمع الأغلبية، بل وكانوا، في حالة يهود اليديشية، يتحدثون لغة مختلفة عن لغة المجتمع المضيف. وقد انغلقت الجماعات اليهودية على نفسها فكونت شبكة عالمية واسعة مهمتها ضمان انتقال السلع والعملات والمعلومات بكفاءة عبر البلاد والقارات، وهذا هو سبب معرفة أعضاء الجماعة اليهودية بعديد من اللغات، وهو تعبير عن الغربة والحركية في ذات الوقت، وقد سيطرت القيادات الدينية والدنيوية، التي كانت تتمتع بدعم النخبة الحاكمة، على هذه الشبكة المغلقة التي كانت بمثابة الوسيط بين الجماعة اليهودية والمجتمع المضيف. كما تزايد اعتماد أعضاء الجماعات اليهودية على

النخبة الحاكمة حتى أصبحوا في بعض الأحيان جماعات وظيفية عميلة، كما هو الحال مع المرابين، وأداة قمع في يد الحاكم لقمع الجماهير واستغلالهم.

وقد أدَّى هذا إلى تزايد ابتعاد أعضاء الجماعات اليهودية عن جماهير المجتمع المضيف، أي إن أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية لم يكونوا مشاركين في السلطة (فهم مجرد أداة) يعيشون في عزلة عن الشعب (في مسام المجتمع لا في صميمه)، وهم موضع كرهه وسخطه، وهذا ما يُسمَّى «إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة». لكل هذا أصبح أعضاء الجماعات الوظيفية عرضة للهجمات الشعبية، لأنهم أداة الاستغلال الواضحة والمباشرة. ومن ثم، فإن اضطلاع أعضاء الجماعة اليهودية بدور الجماعة الوظيفية هو الذي يفسر الهجمات الشعبية عليهم، كما يفسِّر كثيراً من اتهامات أعداء اليهود بأنهم مصاصو دماء (ومن هنا تهمة الدم) أو أنهم يقومون بتسميم الآبار، فهذه جميعاً صور مجازية حاول عن طريقها الإنسان العادي في الغرب فهم طبيعة العلاقة بينه وبين اليهود بوصفهم جماعة وظيفية، إذ إن أداة القمع الماثلة أمامه تقوم بامتصاص دمه وتسميم مصدر حياته.

وقد أدَّت هذه العزلة إلى ما نسمِّيه (حدودية) أعضاء الجماعات اليهوذية، أي وجودهم على حدود المجتمعات أو على هامشها، وفي الشقوق والثغرات. ولعل إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بعدم الأمن (رغم النجاح الذي يحققونه) هو جزء من ميراث الجماعة الوظيفية، التي تُعَدُّ حركيتها مصدر أمن أساسي لها. وقد أدَّى إحساسهم بعدم الأمن وعدم الانتماء إلى زيادة الرغبة في مراكمة الثروة، لأنها الوسيلة الوحيدة لشراء الحماية من الحاكم. ولكن يُلاحَظ أنه رغم تزايد ثروات كثير من أعضاء الجماعات اليهودية إلا أنهم ظلوا بعيدين عن السلطة وعن مؤسسات صنع القرار، ولهذا السبب كانت هذه الثروات معرضة دائماً للتصفية.

ويُقابل عملية العزل البرانية من قبل المجتمع إحساس عميق جواني بالغربة

لدى أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية، فيظهر لديهم إحساس بقداستهم (مركب الشعب المختار). ثم يحتفظون بهذه الغربة من خلال عقائدهم وشعائرهم الدينية ومن خلال ارتباطهم الوهمي بالوطن الأصلي الذي لم يَعُد له وجود والذي سيعودون إليه في نهاية التاريخ.

٣ - الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية (الوهمية)

يشعر أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية بالانتماء إلى وطن أصلي (صهيون) سيعودون إليه في آخر الأيام. وقد ترجم هذا نفسه إلى العقيدة المشيحانية التي أضعفت أواصر ارتباط أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية بالمكان والزمان الحاليين (أوطانهم وتاريخها) باسم المكان السابق الذي نُفوا منه، وهو أيضاً المكان الذي سيعودون إليه في المستقبل.

ويُقابل الإحساس العميق بالغربة والعزلة والعجز والانفصال عن المكان تَعمُّق إحساس عضو الجماعة الوظيفية اليهودية بهويته، فهي إحدى آليات العزل غير الواعية، ومع هذا، فإن الهوية هنا حالة عقلية إذ إن هوية عضو الجماعة الوظيفية اليهودية تتشكل داخل حدود المجتمع الذي يعيش فيه لا خارجه، ومن خلال تفاعله اليومي المتعيِّن مع الخطاب الحضاري لمجتمعه لا رغماً عنه، ولذا فرغم ادعاءات أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية عن تَميُّزهم، إلا أنهم في واقع الأمر يندمجون في مجتمعاتهم. وثنائية ادعاء التميز وواقع الاندماج والذوبان مسألة أساسية لعضو الجماعة الوظيفية اليهودية حتى يتسنى له أن يلعب دوره الوظيفي، وحتى يظل «في المجتمع دون أن يكون منه»، يتعامل مع أعضاء المجتمع بكفاءة عالية لا يمكنه أن يحققها إلا بمعرفة المجتمع وتَملُّك ناصية خطابه الحضاري، ولكنه في الوقت نفسه لا يتعاطف معهم ويحتفظ بمسافة عقلية وعاطفية كبيرة بينه وبينهم بسبب هويته الوهمية.

٤ - ازدواجية المعايير

تظهر ازدواجية المعايير بشكل حاد في حالة أعضاء الجماعات اليهودية، فقد قسمت العقيدة اليهودية العالم في كثير من الأحيان إلى اليهود من جهة والأغيار من جهة أخرى. وكان بإمكان اليهودي أن يقرض الأغيار بالربا، ولكنه يُحرِّم على نفسه أن يفعل ذلك مع اليهود. وكان اليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مقدَّساً (وهذا يعني أن أعضاء المجتمع مباحون).

٥ - الحركية

كان أعضاء الجماعات اليهودية من أكثر الجماعات حركية داخل التشكيل الحضاري الغربي، فهم لم يكونوا مرتبطين بالأرض مثل الفلاحين أو النبلاء، ولا حتى بالمدن مثل سكانها، وإنما كانوا يتنقلون بحرية كبيرة في المجتمع الوسيط تحت حماية الملك الذي يمنحهم المواثيق. وقد ساعدت عمليات الطرد المستمرة، ثم الهجرة، على تعميق هذه الحركية، وقد تَركَّز أعضاء الجماعات اليهودية في قمة الهرم الاجتماعي وابتعدوا عن قاعدته.

٦ - التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع

مركب الشعب المختار هو تعبير عن التمركز المتطرف حول الذات والذي يُيسِّر لأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية أن يقوموا باستغلال الآخر وحوسلته وأن يقوموا كذلك بعزل أنفسهم كما يبرر غربتهم. ولكن عضو الجماعة الوظيفية اليهودية يتمركز أيضاً حول وظيفته الموضوعية ويقبل أن يكون أداة متحوسلة تضطلع بوظائف محدَّدة تُوكل إليه.

ويُعبِّر هذا التمركز حول الذات وحول الموضوع عن نفسه من خلال الإحساس المتطرف بالحرية الكاملة والحتمية الكاملة، ومن خلال مفهوم الاختيار والنفي والعودة، وهي مفاهيم تجسد هذه الازدواجية المتطرفة المتبلورة: فاليهودي حرّ تماماً لأنه مَنْفِيٌّ عن أرضه لا جذور له، وهو يتمتع

بمزايا عديدة لأنه مختار من قبل الإله، أرادته من إرادة الإله، ولكنه في الوقت نفسه لا حرية له لأنه مَنْفِيٌّ من أرضه التي لا يقدر على تحقيق ذاته إلا فيها وحدها، كما أن الاختيار يعني التكليف أيضاً ومن ثم عدم القدرة على الحركة.

الجماعات الوظيفية الاستيطانية اليهودية

ترجع المسألة اليهودية في أوربة إلى عدة أسباب، من أهمها - في تصوُّرنا - وضع الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية باعتبارها جماعات وظيفية لم يَعُد لها دور تلعبه أو وظيفة تؤديها (بعد ظهور الدولة القومية والنظام المصرفي الدولي الحديث). والصهيونية تدور في الإطار نفسه، فالحل الصهيوني يفترض أن الجماعات اليهودية عنصر حركي عضوي مستقل بذاته غير متجذر في الحضارة الغربية، يستحق البقاء داخلها إن كان نافعاً يلعب الوظيفة الموكلة إليه، فإن انتهى هذا النفع وجب التخلص منه (عن طريق نقله خارجها). والواقع أن عملية النقل تحل المشكلة، لأنها تتضمن خلق وظيفة جديدة له.

وقد أدرك الفكر الصهيوني بين اليهود (بشكل جنيني) وضع الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية، فأشار هرتزل وبنسكر إلى اليهود كأشباح وطفيليين، ووصفهم نوردو (وهتلر من بعده) بأنهم مثل البكتريا. وكل هذه الصور المجازية هي محاولة لوصف هذا الكيان الذي يوجد في المجتمع دون أن يكون منه، يتحرك فيه دون أن يضرب فيه جذوراً، وهو كيان أساسي لإتمام كثير من العمليات دون أن يكون جزءاً من الجسم الاجتماعي نفسه. وحديث هرتزل عن اليهود باعتبارهم (أقلية أزلية)، وكذلك حديث بوروخوف عن (الهرم الإنتاجي المقلوب)، هو في صميمه حديث عن الجماعات الوظيفية (دون استخدام المصطلح بطبيعة الحال).

هذا هو التصور الصهيوني (اليهودي وغير اليهودي) لوضع اليهود داخل

الحضارة الغربية. وقد تلقفته الإمبريالية الغربية وطرحت حلاً للمسألة اليهودية هو في جوهره إعادة إنتاج لمفهوم الجماعة الوظيفية على شكل الدولة الوظيفية، أي الدولة التي تُعرَّف في ضوء وظيفتها (لا في حد ذاتها) والتي تتسم بكل سمات الجماعة الوظيفية (والدولة الصهيونية هي دولة وظيفية - علاقتها بالغرب علاقة تعاقدية نفعية، معزولة عن البيئة التي توجد فيها - تستخدم أخلاقيات مزدوجة - تتمتع بحركية بالغة.. إلخ). وقد أخذت عملية إعادة إنتاج الجماعة الوظيفية على هيئة دولة وظيفية شكل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي تم تهويدها حتى يمكن لأعضاء الجماعة اليهودية استبطانها.

ولا يمكن أن نفهم حركة الجماعات اليهودية في العصر الحديث، وسر تركزهم في بقع معينة دون غيرها وفي تشكيل حضاري دون غيره، إلا من خلال مفهوم الجماعة الوظيفية هذا. إذ يبدو أنه منذ بداية التاريخ، اضطلع عددٌ كبير من أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً في العالم الغربي) بدور الجماعة الوظيفية، فكانوا جماعة استيطانية قتالية أو استيطانية مالية. ولعل هذا يعود إلى ضعف الدولة العبرانية وتخلفها التكنولوجي وإلى ضعف موارد فلسطين بصورة عامة، وصغر حجمها، الأمر الذي جعلها قاصرة عن استيعاب المصادر البشرية. ولذا، كان لابد من تصديرها والتخلص منها لزيادة موارد الدولة (باعتبار أن المادة البشرية سلعة تصدَّر) وللقضاء على مصادر القلق الاجتماعي، وقد كانت أول دياسبورا عبرانية هي الحامية العبروانية في جزيرة إلفنتاين قرب أسوان (في أوائل القرن السادس قبل الميلاد)، حين قام ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية بتوطين بعض الجنود العبرانيين في هذه الجزيرة لحماية حدود مصر الجنوبية. وكان الهدف من التهجير الآشوري - البابلي، في وجه من وجوهه، الاستفادة من المادة البشرية العبرانية لتعمير بعض الأراضي. وقامت الدولة الفارسية بإقامة شبكة من

الجماعات الموالية لها في أرجاء الإمبراطورية، وكان من بينها بعض الجماعات العبرانية، وقد حولت حامية إلفنتاين ولاءها إلى السلطة الفارسية بعد غزوها مصر، وقد تعمق هذا النمط تماماً مع الدول الهيلينية (السلوقية في سورية والبطلمية في مصر)، ثم وصل إلى ذروته في القرن السادس عشر في بولندا/ أوكرانيا، حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جماعة استيطانية وتجارية وقتالية في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ويديرونها لحساب هؤلاء النبلاء، وقد شيد النبلاء لهم ولأسرهم مدناً صغيرة تسمى (الشتتل)، يعيشون فيها تحت حماية القوة العسكرية البولندية ليتفرغوا لعملية استغلال الأقنان الأوكرانيين وعصرهم من فائض القيمة. وكان على رجال الجماعة اليهودية الاستيطانية أن يتدربوا على حمل السلاح، بل كانوا أيضاً يتعبدون في معابد تأخذ شكل القلاع المسلحة، وفي صراع الدولة البولندية الغازية مع الفلاحين الأوكرانيين، كان اليهود هم علامة الهيمنة البولندية، ولذا، كان أحد المطالب الرئيسية للحركة الشعبية الأوكرانية عدم السماح لليهود بالاستيطان في أوكرانيا (تماماً مثلما تطلب حركة المقاومة الفلسطينية وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين)، بينما كانت الدولة البولندية الغازية تصر على ضرورة الاعتراف بحق اليهود في الاستيطان (مثل إصرار الولايات المتحدة على فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية). ويجب أن نتذكر أن يهود بولندا/ أوكراني كانوا يشكلون أكبر جمعة يهودية في العالم في القرن السابع عشر، وأنهم أخذوا يزدادون عدداً، إلى أن أصبح معظم يهود العالم من نسلهم، وهذا يعني أن الاستيطان جزء مهم للغاية من التجربة التاريخية للجماعات اليهودية في الغرب، وأنهم دلوا العصر الحديث وعندهم قابلية عالية للاشتراك في العمليات الاستيطانية.

في هذا الإطار، يمكننا أن نفهم نمط هجرة أعضاء الجماعات اليهودية، فهي حركة تنقل تتم دائماً داخل إطار حركة الإمبراطوريات الكبرى التي تيسر

لهم هذا التنقل، وتتيح لهم فرص الحراك، وتوظفهم كجماعة وظيفية استيطانية أو مالية. وإذا كان التهجير البابلي قد تمَّ قسراً، فإن حركة الهجرة العبرانية (اليهودية)، التي تعاظمت بالتدريج حتى وصلت إلى ذروتها مع نهاية الألف قبل الميلاد (حين أصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها)، كانت هجرة تلقائية بحثاً عن الفرص الاقتصادية، وتمت في إطار الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. وهجرة يهود شرق أوربة التي توجهت بأعداد هائلة إلى الولايات المتحدة وكندا وفلسطين، وغيرها من الدول الاستيطانية، حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية من أوربة (روسيا/ بولندا) إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) هي الأخرى هجرة تلقائية تمت داخل إطار إمبراطوري. فقد تمت داخل التشميل الاستعماري الغربي وتجربته الاستيطانية في أنحاء العالم.

وقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من الأنشطة المرتبطة بالاستيطان الغربي، مثل أنشطة شركتي الهند الشرقية والغربية الهولندية، وغيرهما من الشركات، وتجارة العبيد. كما اشتركت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في عملية الاستيطان ذاتها. وفي بداية الأمر كان أعضاء الجماعة جزءاً من النشاط الاستيطاني الهولندي، فاستوطنوا ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر جزر الهند الغربية (مثل ترينيداد وسورينام[١] والمارتينيك وجمايكا الباهاما). لكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولى. وقد بدأ وصول اليهود إليها من هولندا سنة ١٦٣٩، ثم من إنجلترا سنة ١٦٥٢، فكفلت لهم جميع الحريات والمزايا، ومُنح اليهود الجنسية الإنجليزية. وبعد أن ضم الهولنديون سورينام مرةً أخرى سنة ١٦٦٧، حاول بعض اليهود الرحيل مع الرعايا البريطانيين، لكن الهولنديين أرغموهم على البقاء فيها

(١) هي غويانا الهولندية، في أميركا اللاتينية، عاصمتها باراما ريبو. (الناشر)

بوصفهم جماعة استيطانية نافعة. وقد تركز اليهود فيما يسمى يودين سافانا، أي سافانا اليهود، وأسسوا مستوطنة يهودية في برزدينتس أيلاند سنة ١٦٧٠. وكانت المستوطنة تلك تتمتع بما يشبه الاستقلال الكامل (ومن ثَمَّ فهي أول دولة يهودية استيطانية). وكان اقتصاد المستعمرة يعتمد على العبيد الذين كانوا يشقون الطرق ويزيلون الغابات والأعشاب، فأقاموا مدينة جديدة محاطة بالطرق. وقد بلغ عدد سكان المستوطنة ١٠ آلاف نسمة سنة ١٧١٩، وكانت أغلبيتهم من العبيد، وكان العبيد المستجلبون من إفريقية يهربون ويلجؤون إلى الأحراج ويلتحمون بسكان الجزيرة الأصليين، فيضطر سكان المستوطنة إلى استجلاب المزيد من العبيد من إفريقية الذين كانوا يهربون بدورهم وينضمون إلى السكان الأصليين. ثم بدأت جماعات العبيد الأفارقة والسكان الأصليين تشن هجمات على المستوطنة في فترة ١٦٩٢ - ١٧٧٤. وكوَّن المستوطنون البيض مليشيات عسكرية وجرَّدوا الحملات ضد الثوار (تماماً كما تفعل الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين)، لكن الإرهاق الناتج من الحرب وانتشار الأمراض أديا إلى انتصار السود والسكان الأصليين على الدويلة اليهودية الاستيطانية.

وقد استوطن اليهود أيضاً في معظم بلاد أمريكا اللاتينية، وخصوصاً في الأرجنتين التي وطن المليونير هيرش فيها آلاف اليهود، والتي كانت تعد أهم تجربة استيطانية زراعية، باستثناء تجربة إسرائيل في العصر الحديث.

ويلاحظ أن هذه الأنشطة الاستيطانية كانت تدور إما في إطار الاستعمار الهولندي وإما في إطار الاستعمار الإسباني - البرتغالي، والمادة البشرية الأساسية هنا هي يهود السفارد (المارانو). لكن مصدر المادة الاستيطانية الحقيقية من يهود اليديشية (الإشكناز) من شرق أوربة، الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من يهود العالم مع نهاية القرن التاسع عشر. وكان النشاط الاستيطاني الأكبر ليهود اليديشية داخل التشكيل الاستيطاني الأنجلو

ساكسوني، فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب إفريقية وكندا ونيوزيلندا وأستراليا وهونج كونج، ولكن أغلبيتهم (٨٥٪) اتجهت إلى الولايات المتحدة - أهم التجارب الاستيطانية - ثم إلى إسرائيل التي تلي الولايات المتحدة في الأهمية.

الاستيطان وواقع اليهود المعاصر

إن الإطار التفسيري السابق يجعلنا نرى مدى ارتباط الجماعات اليهودية في العالم (العالم الغربي بالذات) بالتشكيل الاستيطاني الغربي، ونضع يدنا على الحقائق الأساسية التالية في واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم:

١ - الدياسبورا اليهودية (أي انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في أرجاء العالم) ليس انتشاراً عشوائياً وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري الغربي، وخصوصاً في جانبه الاستيطاني، فهجرة أعضاء الجماعات اليهودية لا تحددها حركيات التاريخ اليهودي أو الطبيعة اليهودية، وإنما تحددها حركيات الاستعمار الغربي، ولا سيما الاستعمار الأنجلو ساكسوني.

٢ - لا تشكل إسرائيل استثناءً لهذه القاعدة؛ فهي جزء من نمط ومن حركية غربية هي الإمبريالية الغربية التي جعلت العالم مسرحاً لنشاطها، سواء في أستراليا أو أمريكا اللاتينية أو جنوب إفريقية أو فلسطين. فالمشروع الصهيوني هو جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني في الغرب، وما كان يمكنه أن يتحقق من دون إمكانات الإمبريالية الغربية ومن دون طموحاتها أو آلياتها.

واستيطان اليهود في فلسطين هو نقل لفائض بشري غربي إلى بقعة في آسيا أو إفريقية، حيث يتم تحويل هذا الفائض إلى دولة وظيفية استيطانية لخدمة مصالح الغرب لقاء أن يقوم هو على حمايتها. فإسرائيل من هذا المنظور هي إعادة إنتاج لنمط قديم، ووعد بلفور، ثم دعم حكومة الانتداب للمستوطن

الصهيوني، ثم دعم الولايات المتحدة لإسرائيل وتوقيع الاتفاق الاستراتيجي معها؛ كل هذا يبيِّن أن الدولة الصهيونية امتداد لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالاستعمار الاستيطاني الأنجلو ساكسوني.

٣ - بل يمكن القول: إن يهود الشرق والعالم الإسلامي قد تم تحويلهم إلى مادة استيطانية تابعة للتشكيل الاستيطاني الغربي من خلال مدارس الأليانس، والدعاية الصهيونية، وهجرة أعداد ضخمة من اليهود الإشكناز إلى العالم الغربي، إذ إن هذه العمليات كلها أفقدتهم مختلف هوياتهم المحلية وأحلت محلها هوية يهودية عالمية اسماً، لكنها استيطانية فعلاً، جوهرها فك الصلة بين اليهودي ووطنه ومن ثم استيعابه في المنظومة الاستيطانية. وفعلاً، حينما أُعلن إنشاء إسرائيل، هاجرت الأغلبية الساحقة من يهود البلاد العربية إلى إسرائيل، وظل الباقون جالسين على حقائبهم في انتظار السفر إما إلى الولايات المتحدة وإما إلى إسرائيل.

ويمكن القول بشيء من التبسيط: إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور في الوقت الحالي حول مركزين أساسيين هما: شرق أوربة (روسيا/بولندا) بوصفها قوةً طاردةً ومصدراً للمادة البشرية، والولايات المتحدة بوصفها قوةً جاذبةً أساسية، وباعتبارها التجربة الاستيطانية الكبرى. وهناك إلى جانب هذا وذاك مراكز طرد وجذب ثانوية؛ فأما مصادر الطرد الثانوية فهي باقي بلاد شرق أوربة وأمريكا اللاتينية وجنوب إفريقية وبقايا يهود الشرق والعالم الإسلامي. وأما مناطق الجذب الثانوية فهناك كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربة، وغيرها.

وتمثل إسرائيل الآن نقطة مبهمة، فهي مصدر طرد، حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق، حيث إنها تحقق حراكاً اجتماعياً لهم. وهي تمثل أيضاً محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول إلى الولايات المتحدة أو لأولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها.

وإذا استبعدنا سكان المستوطن الصهيوني، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون حالياً وعلى نحوٍ أساسي، في الولايات المتحدة وبضعة بلاد أخرى ناطقة بالإنجليزية (كندا وإنجلترا ونيوزيلندا وجنوب إفريقية). ولذا، يمكننا القول: إن اللغة التي يتحدث أعضاء الجماعات اليهودية بها هي الإنجليزية، لا العبرية أو اليديشية، ويلاحظ أن الجماعات اليهودية في أوربة الشرقية والاتحاد السوفييتي السابق وأوربة آخذة في الذوبان، وأن عدد أعضائها في أمريكا اللاتينية آخذ في التناقص السريع ومن خلال الحركيات التي تؤدي إلى موت الشعب اليهودي (وقد أشرنا إليها من قبل).

التركيب الوظيفي والمهني لأعضاء الجماعات اليهودية

أشرنا إلى تحوُّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية. كما أشرنا إلى أن نمط انتشار أعضاء هذه الجماعات في أنحاء العالم هو في واقع الأمر انتشار الاستعمار الاستيطاني الغربي، باعتبار اليهود جماعات وظيفية مالية واستيطانية. وقد استمر وضع الجماعات اليهودية بوصفها جماعات وظيفية في أوربة حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين بدأ ظهور الدولة القومية التي اضطلعت بمعظم مهمات الجماعات الوظيفية، وبدأ أعضاء الجماعات اليهودية يندمجون في ثقافة المجتمع واقتصاده. وبحسب إحصاء سنة ١٨٩٧ في روسيا، حيث كانت أغلبية يهود العالم تعيش، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية، كانوا موزعين وظيفياً على النحو التالي:

٪٣,٥٥	يعملون في الزراعة.
٪٣٣,٤٥	يعملون في الصباغة وغيرها من الصناعات اليدوية، مثل الخياطة وصناعة الأحذية.
٪٣٨,٦٥	يعملون في التجارة.
٪٣,٩٨	يعملون في النقل.
٪٦,٦١	يعملون في الأعمال المنزلية.
٪١١,٧٦	يعملون في الأشغال العامة والمهن الحرة.

ومما يمكن أن يكون له دلالته أن ٤٩,٨٪ من يهود ألمانيا كانوا عشية استيلاء النازيين على الحكم يعملون في التجارة. وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية في الأساس جماعة من الوسطاء والحرفيين، ولم يكن بينهم عمال أو فلاحون (هرم بوروخوف الوظيفي المقلوب). ولم يكن الوضع ملفتاً في الإمبراطورية النمساوية التي كانت تضم جماعة يهودية كبيرة.

لكن بعد أن هاجر اليهود إلى مختلف الدول الاستيطانية، وخصوصاً الولايات المتحدة تغير وضعهم. ويمكن القول: إن النمط الأساسي للحراك الوظيفي والاجتماعي للمهاجرين اليهود يأخذ الشكل التالي: يصل المهاجر فيصبح عاملاً أو رأسمالياً صغيراً. وبحسب إحصاء سنة ١٩٠٠، كان ٩٥,٦٪ من المهاجرين اليهود عمالاً في صناعة الملابس، ولم يكن يعمل في التجارة سوى ٢٠,٦٪ غير أن العمال كانوا يستطيعون العمل في التجارة، فتحول عدد كبير من يهود الولايات المتحدة في الثلاثينيات إلى التجارة، فبلغت نسبة العاملين فيها نحو ٥٠٪ في حين بلغت نسبتهم في الصناعة ٢٨٪، وفي المهن الحرة ١٠٪. وقد نجح هؤلاء المهاجرون العمال (بسبب خلفيتهم الثقافية والاجتماعية) في مساعدة أولادهم في تلقي التعليم، حيث كانوا بالتالي يحققون حراكاً اجتماعياً، وينسلخون عن الطبقة العاملة، ويتحولون إلى مهنيين. أما الرأسمالي الصغير، فكان يتحول إما إلى رأسمالي كبير وإما إلى

مهني. ومن ثَمَّ نجد أن أغلبية يهود الولايات المتحدة (وغيرها من الدول الاستيطانية) من المهنيين. أما بالنسبة إلى روسيا السوفييتية (سابقاً)، ونظراً إلى تأميم التجارة، فقد تغير الوضع الوظيفي كلِّياً سنة ١٩٣٠؛ إذ نجد ٤٢٪ من اليهود يعملون في مهن إنتاجية: في الصناعة ٢١,٥٪؛ في الحرف اليدوية ١٤,٣٪؛ في الزراعة ٧,١٪.

ومع هذا، فقد ترك الموروث الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية، كجماعات وظيفية وسيطة وكمهاجرين، أثره في التركيب الوظيفي والمهني للجماعات اليهودية (تماماً مثلما ترك أثره في مسار هجرتهم). فلا يزال العدد الأكبر من يهود أمريكا اللاتينية يشتغلون في الأعمال التجارية، أما في الاتحاد السوفييتي السابق، فقد تركز عدد كبير منهم في الأعمال الكتابية (٣٧,٢٪)، والمهن الحرة (١٢,١٪). وتوجد نسبة كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في الاقتصاد الحر الموازي غير الشرعي (تبديل العملة - تهريب السلع - تصنيع بعض السلع التي تحتكر الدولة تصنيعها). وقد أصبح هذا الاقتصاد شرعياً بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. ويتوقع زيادة تركيز أعضاء الجماعة اليهودية فيه. وثلاثة أرباع العاملين من اليهود حاصلين على تعليم عالٍ، ويتجهون إلى التمركز في مهن معينة (ولا سيما أن بعض المجالات، مثل الجيش والأجهزة الأمنية والخارجية وغيرها، مغلق تقريباً أمامهم). ومن المهن تلك المهن العلمية والحرة، مثل الهندسة والطب والعلوم. ففي سنة ١٩٦٤، شكل أعضاء الجماعة اليهودية في الاتحاد السوفييتي السابق ١٤,٧٪ من إجمالي الأطباء، و٨,٥٪ من إجمالي الكُتَّاب والصحفيين، و١٩٪ من الموسيقيين، و١١٪ من العاملين في مجال البحث العلمي. وقد تناقص عدد اليهود فيه، كعمال في الصناعة والأعمال الزراعية، إلى حد مستوى هامشي لا يكاد يُذكر. وحتى أولئك الذين يعملون في الريف، فإن معظمهم يقوم بأعمال كتابية، ويؤدي أعضاء الجماعة دوراً متميزاً في المؤسسات التجارية الشرعية،

وقد بلغ عدد اليهود العاملين في التجارة الحرة في أواخر الخمسينيات نصف مليون فرد (من مجموع خمسة ملايين تقريباً).

وبالنسبة إلى اليهود الأمريكيين، لا يزال الهرم الوظيفي مختلفاً عن الهرم القومي بسبب ميراثهم كجماعة وظيفية؛ فهم يعملون وكلاء ومستشارين ووسطاء، ويتركز نحو ٧٠٪ من جماعة اليهود في أعمال أصحاب الياقات البيضاء (في مقابل المعدل القومي البالغ ٤٠٪). كما أن نسبة من يعملون في أعمال غير يدوية قد تصل إلى ٩٠٪ (في مقابل المعدل القومي الذي يصل إلى ٣٨٪). ويتركز اليهود في مهن مثل: الطب والهندسة والقانون والتدريس في الجامعات. وفي سنة ١٩٨٠، بلغ عدد اليهود الأمريكيين في هيئات التدريس في الجامعات ٢٠٪ (٢٥٪ في كليات الطب، و٣٨٪ في كليات الحقوق). ودخل اليهود الأمريكيون مجالاً جديداً هو مجالس إدارة الشركات وشركات التكنولوجيا المتقدمة. ويوجد منهم عدد من كبار أصحاب المزارع والمصانع في قطاع الصناعة الزراعية. ويلاحظ تركز الرأسماليين من أعضاء الجماعة اليهودية في الصناعات الخفيفة، مثل صناعة الملابس وصناعات الأواني الزجاجية والكحول والسينما (صناعات قريبة من المستهلك)، والخدمات الاستهلاكية، لكن يلاحظ أيضاً غيابهم الكامل تقريباً عن الصناعات الثقيلة (الفحم والفولاذ والمصارف والنفط والسيارات والسفن ووسائل المواصلات)، إذ إنها في أيدي البروتستانت البيض، وهم أعضاء النخبة الاقتصادية والسياسية الذين يتحكمون في العصب الأساسي للاقتصاد الأمريكي، والذي يشكل مصدر النفوذ السياسي الحقيقي. وقد يكون من المفيد أن نذكر في هذا المضمار أن اليهود لا يشغلون مناصب عُليا في المصارف الكبرى الأمريكية، وعددها خمسة وأربعون مصرفاً، إلا في خمسة منها.

ويلاحظ تركُّز اليهود الأمريكيين في تجارة القطاعي، والأعمال العقارية في المدن الكبيرة، والسمسرة، والمضاربات، وعالم المال، والأسهم، والسندات، والكازينوهات، والترفيه.

الفصل الثالث

الصهيونية والمسألة اليهودية

تتسم المصطلحات في العلوم الإنسانية بإبهامها إلى درجة أنه يصعب على العاملين في الحقل المعرفي نفسه أن يتفقوا على تعريف واحد للمصطلح نفسه، ولذا نجد أن مصطلحاً محورياً مثل (الطبيعة) له عدة معانٍ مختلفة، متضاربة أحياناً، إلى درجة أن بعضاً ينادي بالابتعاد تماماً عن التعريف الثابت (الجامع المانع) والاكتفاء بالتعريفات الإجرائية المتغيرة (أي أن يقوم كل باحث بتعريف المصطلحات التي يستخدمها في بحثه، وعليه أن يكون متسقاً مع نفسه بأن يلتزم بهذه التعاريف، وعلى قرائه ونقاده ألا يحاسبوه إلا في إطارها). ويزداد الأمر إبهاماً واختلاطاً حين يكون المصطلح المطلوب تعريفه له مضمون أيديولوجي، إذ إن من يقوم بعملية التعريف تتحكم فيه تحيزاته وأهواؤه وولاءاته الأيديولوجية.

مصطلح (الصهيونية) واختلاط الدلالة

و (الصهيونية) مصطلح أقل ما يمكن أن يوصف به أنه مصطلح ذو مضمون أيديولوجي فاقع. فالتعريفات الشائعة للصهيونية لا تشير إلى واقع الصهيونية، وإنما إلى الأمل الصهيوني، أو الدوافع الصهيونية، أو الاعتذاريات الصهيونية، وكأنها النشيد الوطني الإسرائيلي، وليس تعريفاً يحاول تفسير الواقع.

وقد استُخدم المصطلح لأول مرة، بمعناه الحديث عام ١٨٩٠، حين سكه

المفكر اليهودي النمساوي نيثان بيرنباوم، فرفض التعريف الديني التقليدي للجماعات اليهودية باعتبارها جماعة دينية وهو التعريف الذي كان سائداً بين يهود العالم حتى نهاية القرن التاسع عشر، بدلاً من ذلك تبنى بيرنباوم تعريفاً علمانياً يوحِّد بين القومية والعِرق مع استبعاد الجانب الديني تماماً، وتمَّ تحويل التراث الديني إلى فلكلور (الشعب اليهودي) وجزء من تراثه الثقافي. وقد أصبحت الصهيونية - حسب هذا التصور - هي: «حركة البعث القومي اليهودي الذي يهدف إلى إنهاء حالة المنفى والشتات وعودة اليهود إلى أرض أسلافهم لاستئناف تاريخهم».

وفي رواية أخرى تصبح الصهيونية هي «حركة تحرير الشعب اليهودي» وهكذا. وقد ترجمت هذه الأطروحة نفسها إلى الشعار العنصري: «أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض».

ونحن نرى أن القيمة التفسيرية لمثل هذا التعريف ضعيفة، بل وتكاد تكون منعدمة. فهو تعريف ينحصر نطاقه داخل إطار الدافع الديني أو الإثني الذي حدا بقلة قليلة من أعضاء الجماعات اليهودية إلى الهجرة والاستيطان في فلسطين، وأغفل دوافع الغالبية الساحقة منهم (تحقيق الحراك الاجتماعي داخل إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الإحلالي الغربي)، كما أن التعريف لا يتوجَّه البتَّة لقضية البنية التي تشكلت في الواقع بعيداً عن الدوافع، دينية كانت أم إيمانية. ولهذا نجد أن التعريف لا يفسر مقاومة السكان الأصليين للمستوطنين الصهاينة، ولا الحروب المستعرة المستمرة بين الدولة الصهيونية وجيرانها؛ ولا يتوجه التعريف من قريب أو بعيد لقضية اللاجئين الذين يملؤون المخيمات ويطالبون بالعودة لوطنهم (الذي يدَّعي الصهاينة أنه وطن أسلافهم)، ولا إلى حقيقة أن غالبية (الشعب اليهودي) لا تحب الإقامة في وطنها القومي المزعوم! ولذا نجد أنه بعد إنشاء الدولة الصهيونية بخمسين عاماً لا يزال الوطن القومي اليهودي هو وطن الأقلية، فالأغلبية الساحقة ليهود العالم على ما يبدو تفضل حالة (المنفى) و (الشتات).

ومما زاد الأمر إبهاماً واختلاطاً التطور اللاحق للحقل الدلالي لكلمة (صهيونية)، إذ أصبح المصطلح يشير إلى حركات ومنظمات سياسية غير متجانسة (بل متناقضة أحياناً) في مصالحها وأهدافها ورؤيتها للتاريخ، أو في أصولها الإثنية أو الدينية أو الطبقية. ولعله لهذا السبب كثيراً ما يستخدم مصطلح (صهيونية) مع صفة تحد من حقله الدلالي أو توسعه كأن يُقال: (الصهيونية العامة) و (الصهيونية العمالية) و(الصهيونية الثقافية) و(الصهيونية الروحية) و(الصهيونية العلمانية) و(الصهيونية الدينية) و(الصهيونية الإقليمية) التي يطلق عليها أحياناً اصطلاح (صهيونية بدون صهيون)، أي إنشاء الدولة الصهيونية في أي بقعة خارج فلسطين، مما يشير إلى الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية المجردة للمشروع الصهيوني إن أسقطت ديباجاته اليهودية، وقد ظهر رداً على هذا المصطلح (صهيونية صهيون). . إلخ.

ولكن أهم المصطلحات هو ما يسمَّى (صهيونية الدياسبورا أو الشتات) (أي الجماعات اليهودية في العالم)، وهي صهيونية اليهودي الذي يزعم أنه صهيوني متحمس لصهيونيته متمسكاً بها، وأنه يدين بالولاء للوطن القومي اليهودي، ويؤمن بأن الاستيطان الصهيوني هو الحل لمشاكل اليهود، ولكنه برغم كل هذا يرفض أن يهاجر إلى فلسطين ويستوطن فيها، مؤثراً عليها وطنه الحقيقي الذي يعيش فيه. وقد نحت المفكر الصهيوني العمالي بوروخوف مصطلح (صهيونية الصالونات) ويعني صهيونية الطبقة الوسطى التي تهتم بما تتصوره الإثنية اليهودية والتراث اليهودي، وتنتقي منه ما تشاء، حسبما يروق لها. وبرغم هذا الاهتمام الظاهر إلا أنها لا تكترث كثيراً بالاستيطان، وظهر فيما بعد عدد آخر من المصطلحات لوصف هذه الظاهرة.

لكل ما سبق وبسبب فوضى المصطلحات لا بد من الوصول إلى تعريف جديد للصهيونية، له مقدرة تفسيرية عالية يمكّننا من فهم الظواهر الصهيونية والتنبؤ بحركتها والتعامل معها سلماً، والتصدي لها حرباً. ولإنجاز هذا لا بد

أن نرى الصهيونية باعتبارها ظاهرة مركبة دخل في تركيبها عناصر كثيرة، بعضها خاص بالدوافع وبعضها الآخر خاص بالأفكار، ولكن بعضاً ثالثاً، وهو الأهم، خاص بالبنية وبما تحقق في الواقع. كما أننا يجب ألا نقع في الخطأ المنهجي الذي يقع فيه كثير من الباحثين الذين يتصورون الصهيونية على أنها ظاهرة يهودية، وأنها نتاج التوراة والتلمود والبروتوكولات. ولذا فهم حينما يدرسون الصهيونية وإسرائيل فإنهم يسرعون بالبحث في التوراة وليس في الواقع الإسرائيلي.

ونحن نذهب إلى أن الصهيونية ليست ظاهرة يهودية ولا ظاهرة عالمية (حتى وإن سمّت المنظمة الصهيونية نفسها المنظمة الصهيونية العالمية World Zionist Organization) بل هي فكرة غربية أولاً وأخيراً نشأت في العالم الغربي، وتبناها العالم الغربي، وجنّد يهود العالم الغربي من أجل تحويلها من مجرد فكرة إلى واقع وظاهرة، ثم قام بتحقيقها ودعمها، وهو دعم تزايد على مرّ الأيام. ومن ثم فسياق الصهيونية هو سياق غربي بالدرجة الأولى. ومما يجدر ذكره في هذا المضمار أنه مع نهاية القرن التاسع عشر حين ظهر الفكر الصهيوني ومن بعده الحركة الصهيونية، كان ٩٠٪ من يهود العالم في الغرب، وكان ١٠٪ وحسب موزعين في بقية العالم. فكان عدد يهود الهند، على سبيل المثال، بضعة آلاف، ويهود الصين بضعة عشرات، أي إنه لم يكن هناك أي وجود كمي أو كيفي لأعضاء الجماعات اليهودية خارج الغرب.

وتأكيدنا على أن الصهيونية فكرة غربية لا يعني إهمال الأبعاد الخاصة لهذه الظاهرة، إذ لا بد من أخذها في الاعتبار حتى نصل إلى قدر معقول من الشمول والتركيب داخل المجتمع الغربي، وخاصةً أعضاء الجماعات اليهودية.

كان من الممكن للفكرة الصهيونية أن تبقى في عالم الإمكانية ولا تتحقق إن لم تتوافر لها الظروف التاريخية والحضارية المواتية. ونحن نعتقد أن الصهيونية

قد تحركت من عالم الإمكانية إلى عالم التحقق، وتحولت من مجرد فكرة إلى ظاهرة بسبب عنصرين أساسيين، واحد خاص بالمجتمع الغربي، والآخر خاص بالجماعات اليهودية. هذان العنصران هما: ظاهرة الإمبريالية والمسألة اليهودية، وهما عنصران منفصلان متصلان، فكلاهما هو نتاج تحديث العالم الغربي، كما أن الإمبريالية الغربية هي التي ساهمت في نهاية الأمر في حلّ المسألة اليهودية (كما سنبين فيما بعد). ولنبدأ بالمسألة اليهودية.

المسألة اليهودية

حينما نتعامل مع ظاهرة تاريخية حضارية، لا يمكننا أن نقول: إن كذا قد أدى إلى كذا، فأقصى ما يمكن أن نطمح إليه هو رصد مركب من الأسباب خلق تربة خصبة أدى إلى تحقيق الظاهرة (فيما يسميه ماكس فيبر «التآلف الاختياري electiv affinity). وفي حالة المسألة اليهودية يمكن أن نرصد هذه الأسباب التي خلقت التربة الخصبة لظهورها، ولنبدأ بالعناصر الخاصة بالإدراك الغربي للجماعات اليهودية:

١ - فشلت المسيحية الغربية في صياغة رؤية محددة نسبياً تجاه الأقليات بشكل عام والجماعات اليهودية على وجه الخصوص. فاليهود من وجهة نظر كاثوليكية، إن هم إلا قتلة المسيح، جماعة وضيعة تقف في ضعتها شاهداً على عظمة الكنيسة، وهذه هي وظيفتها الوحيدة والأساسية، أما من وجهة نظر بروتستانتية فاليهود مجرد أداة للخلاص، لا يمكن للعالم أن يصل إلى خلاصه وإلى العصر الألفي السعيد إلا بعد عودة اليهود إلى أرض الميعاد وتنصيرهم، وهذه هي وظيفتهم الوحيدة والأساسية. وهكذا تم حوسلة اليهود (تحويلهم إلى وسيلة) وحصرهم داخل دورهم الذي أسندته لهم الحضارة الغربية وحسب.

٢ - من أهم العناصر التي شكلت إدراك العالم الغربي للجماعات اليهودية

الرؤية الألفية الاسترجاعية والتفسيرات الحرفية للعهد القديم. و (الألفية) ترجمة لكلمة (ميلينيريانزم Millenarianism) الإنجليزية المأخوذة من الكلمة اللاتينية (ميلينياوس) ومعناها (تحتوي على ألف)، وتعود جذور العقيدة الألفية إلى اليهودية، ولكنها أصبحت فكرة مركزية في المسيحية البروتستانتية إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلِّص (أو الماشيَّح حسب الرؤية اليهودية) (الذي يُشار إليه فيها بـ «الملك الألفي») سيحكم العالم (باعتباره الملك المقدَّس) هو والقديسون لمدة ألف عام يشار إليها أحياناً باسم «أيام الماشيَّح» أو «أيام المسيح» وهي فترة سيسود فيها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان.

وعقيدة الملك المقدَّس هذه لم يأت لها أي ذكر في العهد القديم ويبدو أنها مجرد صدى في الوجدان العبراني لمؤسسة الملكية المقدَّسة العبرانية، وما حدث هو أن مؤسسة الملكية المقدَّسة اختفت مع انهيار الدويلات العبرانية ولم تتم استعادتها حتى بعد عودة اليهود بأمر قورش الفارسي. فأسقط الوجدان العبراني فكرة الملك المقدَّس على المستقبل، وأصبحت جزءاً من الأفكار الأخروية (وتتحدث جماعة قمران عن الزوج المشيحاني): الماشيَّح بن هارون الكهنوتي والماشيَّح بن داود الملكي، ثم ظهر فيما بعد الماشيَّح بن يوسف والماشيَّح بن داود.

وقد ظهرت العقيدة الألفية في كتابات معلمي المشناه (تنائيم) وفي الكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا)، بل إن كتب الرؤى (أبوكاليس)، ومعظم الأخبار الأخروية، والكتب المنسوبة (سيود إبيجرفا)، والأحلام الأخروية، وسائر الأساطير الخاصة بآخر الأيام ونهاية الزمان، تدور جميعاً حول هذه العقيدة. وتظهر العقيدة الألفية في العهد الجديد في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي الذي يشبه سفر دانيال في كثير من الوجوه، والذي يدور حول عودة المسيح الثانية وحُكمه العالم لمدة ألف عام.

وترتبط بالعقيدة الألفية عقيدة المسيح الدجال التي ظهرت مع بدايات المسيحية، وزادت أهميتها مع الإصلاح الديني، وهي عقيدة صهيونية بصورة ملموسة إذ إنها تضع اليهود في مركز الدراما الكونية الخاصة بخلاص العالم، وهي أيضاً عقيدة معادية لليهود، إذ إن مركزيتهم نابعة من كونهم تجسيداً للبشر في التاريخ، ومن ثَمَّ فإن تنصُّرهم (ونهاية التاريخ) شرط أساسي للخلاص.

وتذهب هذه العقيدة إلى أن المسيح الدجال شخصية كافرة قاسية طاغية، وهو ابن الشيطان (بل لعله هو نفسه الشيطان المتجسد). ومن علاماته أنه توجد في أقدامه مخالب بدلاً من الأصابع. أما أبوه، فيُصوَّر على هيئة طائر له أربعة أقدام ورأس ثور بقرون مدببة وشعر أسود كثيف.

والمسيح الدجال ابن امرأة يهودية، وسيأتي من قبيلة دان (فاستناداً إلى نبوءة يعقوب، فإن دان سيكون ثعباناً في الطريق، واستناداً إلى كلمات إرميا فإن جيوش دان ستلتهم الأرض. كما أن الإصحاح السابع في رؤيا يوحنا لم تذكر قبيلة دان عندما ذكرت القبائل العبرانية).

ويتواتر الآن في الأوساط المسيحية الحرفية أن المسيح الدجال سيكون يهودياً من سورية، ويُقال: إن المسيح الدجال سيظهر في الشرق الأوسط في نهاية الأيام، وهو العدو اللدود للمسيح، وسيسبق ظهوره ظهور عديد من الدجالين، وأنه سيدَّعي أنه المسيح ويصدقه الكثيرون، خصوصاً وأنه قادر على الإتيان ببعض المعجزات (ولذا، فهو يسمَّى «قرد الإله» أي الذي سيقلد الإله كما تقلد القردة البشر) وسيطيعه الرعد وتحرس الشياطين له بعض كنوز الأرض (التي سيستخدمها في غواية البشر)، كما سيبني الدجال الهيكل وسيهدم روما (مقر البابا) وسيُحيي الموتى وسيحكم الأرض مع الشيطان لمدة يُقال: إنها ستصل إلى خمسين عاماً، وإن كان الرأي الأغلب أن فترة حكمه لا تتجاوز ثلاثة أعوام ونصفاً، وسيساعده اليهود في كل أفعاله، وعندما يصل البؤس إلى منتهاه، سيتدخل الإله فتنفخ الملائكة في البوق معلنة حلول يوم

القيامة وسينزل المسيح (عودة المسيح الثانية) لينقذ البقية الباقية الصالحة. وستدور معركة كونية هي معركة هرمجدون ويَلقى ثُلثا اليهود حتفهم أثناءها. وسيعود إلياهو وإنوخ وسيأمر الدجال بقتلهم، ولكنهم قبل أن يلاقوا حتفهم سينصرون اليهود الذين سيقبلون المسيح باعتبارهم أفراداً (لا شعباً). وسيخرج من فم المسيح سيفٌ ذو حدين سيصرع به المسيح الدجال ويحكم العالم بالعدل ألف عام (أو إلى مالا نهاية) حيث ينتشر السلام والإنجيل في العالم.

وكثيراً ما كان الدجال يُقرَن بالماشيَّح الذي ينتظره اليهود. ويذهب الحرفيون إلى أن إنشاء دولة إسرائيل علامة على أن موعد عودة المسيح قد دنت ومن ثَمَّ لحظة هداية اليهود، كما يَقرن الوجدان البروتستانتي الدجال ببابا روما وبأية شخصية تصبح تجسيداً للآخر (دعاة الاستنارة - قيصر ألمانيا - لينين - هتلر).

وترتبط كلتا العقيدتين بـ «العقيدة الاسترجاعية» وهي الفكرة الدينية التي تذهب إلى أنه كيما يتحقق العصر الألفي، وكيما تبدأ الألف السعيدة التي يحكم فيها المسيح (الملك الألفي)، لا بد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيداً لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هي مركز وعصب العقيدة الألفية. ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشرى الألف عام السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار القديم أو الأول (باعتبار أن المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثاني). ولذا، فإن أرض فلسطين هي أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرَّب لا تسقط حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ولذا، فإن كل من يقف في وجه هذه العودة يُعتبَر من أعداء الإله ويقف ضد الخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، هي عقيدة (صهيونية) تفترض استمراراً كاملاً ووحدة عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثَمَّ فهي تنكر التاريخ تماماً.

٣ - يلاحظ أن الإدراك الغربي للجماعات اليهودية يحوسلهم، فهم مجرد أداة، وقد دعم هذا الإدراك تحول اليهود إلى جماعات وظيفية. ولكن الجماعة الوظيفية لا يُنظر لها في ضوء إنسانيتها وإنما في ضوء مدى نفعها للمجتمع. وبالفعل حينما تمت مناقشة قضية عتق اليهود تمَّ ذلك لا في إطار حقوقها الإنسانية كبشر، وإنما في إطار مدى نفعهم كأداة وظيفية للمجتمعات الغربية، وهذا أمر متوقع، فمفهوم المنفعة مفهوم محوري في الحضارة الغربية الحديثة برؤيتها المادية وتركيزها على التقدم. وقد قبل الصهاينة أنفسهم فكرة نفع اليهود، ودافعوا عن الجماعات اليهودية (ثم الدولة الصهيونية) من منظور مدى نفعهم!

هذا هو الإطار الحضاري العام الذي أدرك الغرب من خلاله الجماعات اليهودية. ويمكن القول: إن وضع الجماعة الوظيفية يظل مستقراً حين يكون المجتمع في حاجة إليها، ولكن يختلف الوضع تماماً حينما تطرأ تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية تجعل المجتمع أقل احتياجاً لها، أو في غنًى عنها تماماً، فيتحول أعضاء الجماعة من جماعة هامشية إلى جماعة منبوذة يود المجتمع التخلص منها بأي شكل. وهذا ما حدث - على سبيل المثال - لجماعة المماليك في مصر بعد ظهور محمد علي وتأسيسه لدولة مركزية لها جيش نظامي من أبناء الشعب، مما حوَّل المماليك من أعضاء جماعة وظيفة عسكرية تدافع عن المجتمع (وتستغله في الوقت نفسه) إلى جماعة طفيلية تعيش عالة عليه.

وقد حدث شيء من هذا القبيل للجماعات اليهودية الوظيفية في الغرب ابتداءً من القرن السابع عشر حين بدأت التجارة تتحول إلى نشاط أساسي في المجتمع الغربي، وظهرت طبقة تجارية وبيوتات مالية كبرى بين أعضاء

الأغلبية، ثم ظهر جهاز مصرفي ودولة مركزية قومية قوية، تعتمد على مؤسسات حديثة، أفقد أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية وظيفتهم. فالبنوك المركزية والبيوتات المالية التابعة لمجتمع الأغلبية حلَّت محل المرابي اليهودي، والمصانع والمتاجر الحديثة حلَّت محل التاجر والحرفي اليهودي.

هذا هو السبب الأساسي للمسألة اليهودية، ولكن المشكلة تفاقمت لأسباب أخرى من بينها:

١ - تعثر التحديث في شرق أوربة وبخاصة روسيا (التي أصبحت تضم في بداية القرن التاسع عشر أكبر تجمع يهودي في العالم بعد أن ضمت أجزاء كبيرة من بولندا (في بداية الثمانينيات). وقد تعثر التحديث لأسباب عدة من أهمها سرعة معدلات النمو الاقتصادي في هذه المجتمعات، الأمر الذي لم يسمح لأعضاء الجماعات اليهودية بالتأقلم مع النظام الجديد. كما أن عملية التحديث والدمج كانت تتم تحت إشراف الدولة بجهازها البيروقراطي المتخلف والمتعصب دينياً الفاسد أخلاقياً. وقد اصطدمت حركة عتق أعضاء الجماعات اليهودية بحركة تحرير الأقنان، إذ أدت الحركة الأخيرة إلى توفير عمالة رخيصة في المدن سدت سبل العيش أمام الجماعات اليهودية وضيَّقت رقعة الأرض الزراعية المتوافرة.

٢ - ولكن هناك - إضافة إلى ذلك - بعض العوامل الخاصة بالجماعات اليهودية في شرق أوربة لعبت دوراً حاسماً في تعثر عملية التحديث، ولعل أهم هذه العوامل تخلفهم الحضاري الذي ربما لم يكن له نظير في أوربة آنذاك بعد مئات السنين من الحياة في الجيتو، الذي ظل بمعزل إلى حدٍّ كبير عن التحولات الضخمة، التي كانت تمر بها أوربة منذ عصر النهضة. ولذا كانت الجماهير من أعضاء الجماعات اليهودية لا تمتلك الكفاءات اللازمة للاندماج في الاقتصاد الحديث، الأمر الذي جعلها تفشل في التكيف مع مجتمعاتها في شرق أوربة، كما أن هذه الجماهير لم تكن مهيأة حضارياً أو نفسياً للتعامل مع

التحولات الضخمة التي كانت المجتمعات الغربية تخوضها. وقد عمَّق هذا الإخفاق من إحساس هذه الجماهير بالعزلة مما ولَّد ما يمكن تسميته بالعقلية الجيتوية التي هي أساساً - حالة عقلية تعبر عن نفسها من خلال رفض المجتمع الحديث والتمسك بأشكال الحياة التي أَلِفَها اليهود في الجيتو وحقَّقت لهم بعض الأمن والهوية.

٣ - حدث انفجار سكاني بين يهود شرق أوربة في منتصف القرن التاسع عشر فتزايدت أعدادهم زيادة ملحوظة، ربما بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ. ولم يتمكن اقتصاد روسيا الضعيف من استيعاب هذه الأعداد الكبيرة، وخصوصاً بعد تعثُّر التحديث في شرق أوربة مما دفع بمئات الألوف من فقراء اليهود إلى أوربة الغربية، الأمر الذي ولَّد الفزع في قلب حكومات غرب أوربة وأعضاء الجماعات اليهودية فيها، ممن اندمجوا في مجتمعاتهم وحققوا مكانة اجتماعية عالية ووضعاً اقتصادياً مميزاً (ونحن نذهب إلى أن عام ١٨٨٢، تاريخ صدور قوانين مايو في روسيا التي عبَّرت بشكل صريح عن تعثُّر التحديث في الإمبراطورية القيصرية الروسية، وكرَّست عزلة اليهود، هو في واقع الأمر، تاريخ ظهور الصهيونية بين اليهود، وليس عام ١٨٩٧، تاريخ عقد المؤتمر الصهيوني الأول).

٤ - عاش أعضاء الجماعة اليهودية في مناطق حدودية متنازع عليها من قبَل الدول الغربية فكانت منطقة ما تتبع بولندا بعض الوقت ثم تتبع روسيا أو النمسا وهكذا. فمنطقة الاستيطان بأسرها كانت تابعة لبولندا ثم ضُمَّت إلى روسيا مع تقسيم بولندا، وجاليشيا كانت مقسَّمة بين بولندا والنمسا وهكذا. وقد أضعف هذا الوضع من ولاء أعضاء الجماعات اليهودية القومي وجعلها غير متجذرة في أي مجتمع.

٥ - كانت اليهودية الحاخامية تجتاز أزمة حقيقية، فقد تكلست تماماً وأصبح من العسير على اليهودي أن يكون يهودياً وإنساناً في الوقت ذاته (على

حد قول أحد المفكرين اليهود). وقد انتهى الأمر بكثير من الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية بالانصراف عن عقيدتهم والانضمام للحركات الثورية أو العدمية. وقد ظهرت اليهودية الإصلاحية (والمحافظة)، وهي صيغ يهودية مخففة للغاية تخلَّت عن كثير من أصول اليهودية وثوابتها وطرحت نفسها على أنها اليهودية الحقيقية.

٦ - سقوط القيادات التقليدية للجماعات اليهودية (الحاخامات وأثرياء اليهود) وظهور المثقف اليهودي الذي فقد هويته اليهودية، ولم يكتسب هوية غربية جديدة، فهو يهودي غير يهودي يصعب على الأغيار تصنيفه يهودياً. ومثل هؤلاء المثقفين هم الذين أخذوا بالتدريج يحلون محل القيادات التقليدية.

كان من الممكن، من الناحية النظرية، حل مشكلة أعضاء الجماعات اليهودية أو التخفيف من حدتها عن طريق هجرة اليهود الذين يشكلون فائضاً إلى أماكن متفرقة من العالم، وبخاصة العالم الجديد، وبالفعل هاجرت أعداد هائلة بلغت أربعة ملايين يهودي (من ضمن ستين مليون أوربي فائضين)، هاجر معظمهم إلى الولايات المتحدة. لكن - كما أسلفنا - حدث انفجار سكاني بين يهود أوربة ويهود بولندا/ روسيا على وجه الخصوص، فقد تضاعف عدد يهود العالم الغربي خمس مرات بين عامي ١٨٢٥ و ١٩٢٥ لتكون الزيادة أكثر مرة ونصف المرة من زيادة شعوب أوربة، وقد حدَّ هذا من أثر هجرة الأعداد الضخمة.

ومما زاد المسألة حدةً وتفاقماً موجات معاداة اليهود في منتصف القرن التاسع عشر، فخطاب أوربة الحضاري وطريقة إدراكها للكون في عصر الإمبريالية كان عنصرياً، والعنصرية الغربية كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الخارج ضد شعوب آسيا وإفريقية (السوداء والصفراء والملونة)، ولكنها - كما هو الحال دائماً - توجهت أيضاً إلى الداخل (فالعنصرية رؤية متسقة مع نفسها لا يمكنها أن تميز بين داخل وخارج) فشملت في نطاقها الأقليات التي

تعيش في أوربة مثل الإيطاليين العاملين خارج بلادهم، والبريتون في فرنسا، والكاثوليك في دول بروتستانتية مثل ألمانيا، والغجر في كل أرجاء أوربة، وقد نال أعضاء الجماعات اليهودية نصيباً من هذه العنصرية باعتبارهم غير مسيحيين وأعضاء جماعة وظيفية بلا وظيفة.

وكان يهود غرب أوربة بمعزل عن المسألة اليهودية وعن العناصر التي دخلت في تشكيلها، فالجماعات اليهودية في هذه البلاد كانت صغيرة، ولم يكن هناك تمايز اقتصادي أو ثقافي ملحوظ بين أعضائها وبين أعضاء الأغلبية، ولذا حققوا معدلات عالية من الاندماج، ونالوا معظم حقوقهم الدينية والمدنية. ولكن وصول المهاجرين اليهود من شرق أوربة كان يهدد مواقعهم الطبقية التي وصلوا إليها والمكانة الاجتماعية التي حققوها، ولذا أصابهم رشاش من المسألة اليهودية الشرق أوربية وأصبحوا يبحثون عن حل لها.

الإمبريالية الغربية

الإمبريالية الغربية هي النموذج الذي سيطر على الحضارة الغربية، وحرَّك جماهيرها وحكوماتها، وأدى في نهاية الأمر إلى ظهور المسألة اليهودية وإلى ظهور الحركة الصهيونية. ونحن نذهب إلى وجود ما نسميه (المسألة الغربية) وهي الإشكالية الناجمة عن تفجر رغبات الإنسان الغربي (الاستهلاكية المادية) وتصاعدها المتزايد إلى درجة تتجاوز مصادر أوربة الطبيعية ومصادر العالم بأسره. وقد طرح العالم الغربي حلاً إمبريالياً لمسألته الغربية هذه يتلخص في تحويل العالم بأسره إلى مادة استعمالية يوظفها لصالحه، وفي إطار هذا قام بتصدير كل مشاكله المادية والمعنوية الناجمة عن تزايد استهلاكيته وشراهته، فمشكله الرغبة المتزايدة في الاستهلاك، في رفع مستوى المعيشة بقدر يتجاوز إمكانات أوربة الطبيعية المادية تم معالجته عن طريق الاستعمار التقليدي، أي تجييش الجيوش وإرسالها لغزو آسيا وإفريقية وقمع أهلها، وتحويلهم إلى عمالة

رخيصة، وتحويل بلادهم إلى مصدر للمواد الخام الرخيصة، وسوق للبضائع البائرة، الأمر الذي ضمن تدفق فائض القيمة إلى بلاد أوربة، وحقق لشعوبها الرفاهية، ولمجتمعاتها الأمن الاجتماعي، كما تم معالجة الفائض البشري (أي العناصر القلقة التي تهدد الأمن الاجتماعي مثل المجرمين والمنشقين دينياً وأعضاء الأقليات غير المرغوب فيهم والعاطلين عن العمل، والعناصر الفاشلة التي لم يمكنها تحقيق أي حراك اجتماعي) عن طريق تصدير هذا الفائض وتوطينه في آسيا أو إفريقية أو أمريكا اللاتينية في جيوب استيطانية إحلالية.

ولكن الإمبريالية، رغم بعدها الاقتصادي الاستغلالي الأساسي، لم توجد في فراغ فكري وحضاري، فالعالم الغربي كان يتعامل مع نفسه ومع العالم بأسره من خلال مقولات إدراكية حضارية عديدة تأثر بها الصهاينة واستوعبوها في خطابهم، وأصبحت مكوناً أساسياً في الفكر الصهيوني. ويمكن تلخيص بعض أهم هذه الأفكار فيما يلي:

١ - من الأفكار المحورية في الفكر الغربي فكرة الإنسان الطبيعي، وضرورة عودة الإنسان إلى الطبيعة ليعيش حسب قوانين الطبيعة البسيطة.

وقد شكلت هذه الفكرة لبنة أساسية في الفكر الصهيوني بعد تحويرها وتعديلها. فالإنسان الطبيعي يصبح المستوطن الصهيوني الذي لا يعرف حدوداً أو قيوداً أو سدوداً وكأنه عنصر طبيعي، لا يكبح جماحه أي اعتبارات أخلاقية أو إنسانية. ولأنه إنسان طبيعي فهو يرفض التاريخ ويرى العالم باعتباره ساحة لنشاطه. والدعوة الصهيونية إلى العودة إلى صهيون أو فلسطين متماثلة بنيوياً مع الدعوة الرومانسية إلى العودة إلى الطبيعة.

٢ - يُعد فكر الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه الداعي إلى احتقار العقل وأخلاق التسامح المسيحية، وإلى تقديس الفعل والحركة والغريزة، وإلى الإيمان بالإنسان الأعلى (السوبرمان) - هذا الإنسان الذي يجسِّد القوة، ولا

شأن له بالخير أو الشر، والذي يشبه عناصر الطبيعة، والذي يتحرك مثل حركة المادة - يُعد هذا الفكر لبنة أساسية في الفكر الغربي الحديث.

وقد تأثر معظم المفكرين الصهاينة بدرجات متفاوتة، عن وعي أو غير وعي، بهذا النسق الفلسفي، فجعل آحاد هعام (اسم الشهرة لآشر جنزبرج) النيتشوية حجر الأساس لفلسفته الصهيونية. ولقد بيَّن آحاد هعام في مقاله (إعادة تقييم القيم) أن اليهودية تجسِّد فلسفة نيتشوية قبل ظهور نيتشه، وأن اليهود ليسوا مجرد أمة، وإنما هم (سوبر أمة) أو (أمة عليا).

٣ - النيتشوية - كما هو معروف - فلسفة داروينية (نسبة إلى تشارلز داروين) تنظر إلى الواقع باعتباره صراعاً لا يهدأ - صراع الجميع ضد الجميع - ويستند فيه البقاء لا إلى الخير أو الجمال وإنما إلى القوة وإلى المزيد منها. وقد ساد في العالم الغربي في أواخر القرن التاسع عشر الفلسفة الداروينية الاجتماعية، وهي أساساً رؤية للعلاقات الاجتماعية من خلال نموذج دارويني ينقل القيم التي اكتشفها داروين في عالم الطبيعة إلى المجتمع الإنساني.

وقد كانت هذه الداروينية من أهم مصادر الصهيونية بخاصة، والفكر الإمبريالي بعامة، فكان يتم تبرير استعمار أرض الآخر والاستيلاء عليها وطرده منها، بل وإبادة الملايين في آسيا وإفريقية باسم البقاء للأصلح، أي الأقوى. فمن منظور دارويني القوة والعنف هما الطريقة الوحيدة لوضع الفكر الصهيوني موضع التنفيذ).

٤ - ظهرت في الغرب نظريات عنصرية تفترض التفاوت العِرْقي والبيولوجي والحضاري بين الأجناس وضرورة إخضاع الشعوب (الأدنى) من منظور غربي، أو حتى إبادتها، حتى تحقق الشعوب الغربية الرقي والمستوى المعيشي الأعلى. وقد صاحب ظهور هذه النظريات تطوير ديباجات ساذجة أو مصقولة لتبرير عملية غزو العالم وشعارات مثل: (عبء الرجل الأبيض) و (نشر التقدم في ربوع الأرض) و (مهمة الإنسان الغربي الحضارية) التي كانت

أوربة تجيِّش جيوشها وتُرسل بهم إلى ربوع الأرض ليأتوا على الأخضر واليابس، وليستغلوا الأرض والبشر، وليبيدوا بعض السكان، أو يقوموا بنقلهم من مكان لآخر لتسخيرهم وتنظيم عملية استغلالهم.

وقد تبنَّى الصهاينة كثيراً من مقولات الفكر العنصري الغربي لتبرير غزوتهم الاستعمارية لفلسطين. ومن المفارقات التي يتسم بها الفكر الصهيوني اليهودي أنه - شأنه شأن الفكر العنصري الغربي - كان معادياً لليهود، إذ يوجد نقد صهيوني عميق للشخصية اليهودية في المنفى باعتبارها شخصية طفيلية مخربة منعدمة الولاء. وقد قرر حاييم برنر المفكر الصهيوني العمالي أن مهمة اليهود الآن: «هي الاعتراف بوضاعتهم منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا وبكل نقائض شخصيتهم وهي كثيرة».

فاليهود - حسب رأي جوردون المفكر العمالي - شخصيات غير طبيعية وناقصة ومنقسمة على نفسها، وهم طفيليات وأناس لا فائدة منهم أصلاً، يحيون حياة السوق وبقيم هذا المكان يعقدون الصفقات التجارية بمهارة، ويكدسون دراهمهم، ويودون الحياة كالنمل أو الكلاب. ومن ثم فلا يمكن إصلاح اليهودي وتخلصه من كل سماته السلبية إلا بتوطينه في فلسطين حيث يمكنه الاشتغال بالأعمال الإنتاجية. وهذا ما يسمى (التطبيع) في الخطاب الصهيوني، أي تحويل اليهودي إلى إنسان طبيعي. ولنلاحظ كيف أنه رغم اختلاف الديباجات (من تقديس لليهود إلى تحقيرهم) المحصلة النهائية واحدة وهي الحقوق المطلقة في فلسطين.

وانطلاقاً من الفكر العنصري الغربي يذهب الصهاينة إلى أن العداء بين اليهود وغير اليهود عداء أزلي للأجانب الذين لا وطن لهم، وعلى حد قول ليوبنسكر فإن جوهر المسألة اليهودية يكمن في أن اليهود «الذين يسكنون الأمم المختلفة يكوِّنون عنصراً لا يمكن أن يذوب فيها ولا يمكن لها أن تهضمه». هذا فضلاً عن أنهم لا وطن لهم ولا حكومة تمثلهم. وقد وجد المتدينون أن سبب

عداء الأغيار لليهود هو قداسة الشعب اليهودي. ففي داخل اليهودي (جذور القلق) فهو باعتباره كائناً مقدساً يشكل «جسماً غريباً.. لا يُعطي العالم أي سلام». أما الاشتراكيون فقد رأوْا أن السبب وراء معاداة اليهود هو وضعهم الطبقي الهامشي.

٥ - من أهم الأفكار الغربية الأخرى التي هيمنت على الوجدان الغربي فكرة الشعب العضوي (الفولك volk)، فبعد علمنة الغرب واضمحلال الدين وتهميش الكنيسة أعادت الشعوب الغربية تعريف نفسها في إطار الفكر القومي العلماني، فأصبح ما يميز أي شعب عن آخر سماته العرقية أو الإثنية (أي سمات مادية كامنة فيه). وكل شعب، يستحق أن يُطلق عليه اصطلاح (شعب) كان يُفترض فيه أن له تراثاً وأرضاً وأنه ثمة علاقة عضوية (ذات طابع بيولوجي) تربطه بهما (وحدة الدم والأرض)، وهي علاقة حتمية لا فكاك له منها، تذيب الفرد في الأمة والجزء في الكل. كانت هذه هي طريقة إدراك الذات، ومن ثَمَّ طريقة إدراك الآخر أيضاً.

والجماعات اليهودية كانت، من منظور الغرب، تشكل شعباً عضوياً. ولكن في إطار الموقف العنصري السائد تقع هذه الجماعات في نطاق الآخر. وفي إطار الفلسفة الداروينية النيتشوية. وفي إطار التصور الإنجيلي، تم إدراك اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً ينتمي إلى أرض غير هذه الأرض (الحضارة الغربية) ووطنه ليس هذا الوطن (المجتمعات الغربية)، سماته العِرقية والإثنية ليست مختلفة وحسب عن سمات الشعوب الغربية بل أدنى، ولذا فهو لا ينتمي للحضارة الغربية وحسب، بل ويشكل عبئاً عليها، ولذا لا بد من (إخراجه) من نطاق هذه الحضارة. وقد ولَّد هذا الفهم لليهود رؤية معادية لهم تطالب بالتخلص منهم وهو ما نسميه مفهوم (الشعب العضوي المنبوذ)، وكانت أولى ثمراته حركات معاداة السامية (العداء لليهود) التي بلغت ذروتها في الرؤية النازية التي خلصت أوربة من عدد كبير من اليهود (والعناصر الأخرى

المرغوب فيها) عن طريق إخراجهم من أوربة، وإرسالهم لأفران الغاز. وكانت من آخر ثمراته الرؤية الصهيونية التي طالبت بالتخلص من اليهود لا عن طريق الإبادة وإنما عن طريق الخروج المنظم والتوطين في أي مكان خارج أوربة.

وقد عبَّر مفهوم الشعب العضوي المنبوذ عن نفسه فيما نسميه «النزعة الصهيونية الكامنة في الحضارة الغربية» والتي تعود بعض جذورها إلى الرؤية المسيحية لليهود (التي سبق وأشرنا إليها والتي تحوسِلُ اليهودَ تماماً وتحولهم إلى مجرد (أداة) في عملية (الخلاص المسيحية)، وتراهم دائماً إما في حالة خروج دائمة، أو في حالة انتظار حتى تحين لحظة الخروج: أرض العبودية في مصر - خروج منها وعودة إلى كنعان (فلسطين/ إسرائيل)؛ ثم المنفى إلى آشور وبابل - خروج (منه) وعودة إلى فلسطين (إسرائيل)؛ تشتيت إلى جميع أنحاء الأرض بما في ذلك أوربة - انتظار للحظة والخروج (من أنحاء العالم) والعودة إلى صهيون.

وقد بدأت هذه النزعة في التبلور على هيئة فكر دنيوي مع التشكيل الحضاري الغربي الحديث بنزعته الاستهلاكية التوسعية الاستعمارية فظهرت الفكرة الصهيونية أول ما ظهرت في الأوساط البروتستانتية في إنجلترا ابتداءً من أواخر القرن السادس عشر. ومع تزايد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية، ظهرت نزعات ومفاهيم صهيونية في أوساط الفلاسفة (ولا سيما الرومانسيين) والمفكرين السياسيين والأباء العلمانيين، تنادي بإعادة توطين اليهود في فلسطين باعتبار أنهم شعب عضوي منبوذ.

الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية

حينما طرحت المسألة اليهودية نفسها على الإنسان الغربي فكر في حلها بطبيعة الحال من خلال إطاره المعرفي ومن خلال مقولاته الحضارية والإدراكية

والتي كان من أهمها الإمبريالية وتصور اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية وشعباً عضوياً منبوذاً، ولذا طرح حلاً إمبريالياً وظيفياً يتلخص في إخراج اليهود من الغرب وتوظيفهم في خدمته (فالعالم بأسره مادة استعمالية توظف لصالح الغرب)، وقد تم ذلك عن طريق ربط المسألة اليهودية بالمسألة الشرقية (أي وضع الإمبراطورية العثمانية المتردي [رجل أوربة المريض ورغبة الغرب في أن يرثها])، فيقوم الغرب بنقل الفائض البشري اليهودي الذي لا وظيفة له في الغرب إلى منطقة استراتيجية في آسيا وإفريقية (هي فلسطين) تطل على البحرين الأبيض والأحمر وفي قلب العالم العربي والإسلامي والدولة العثمانية، حيث يؤسس دولة استيطانية وظيفية تقوم بوظيفة حيوية وهي الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة نظير أن يقوم الغرب بالدفاع عن سكانها وضمان رفاهيتهم وبقائهم واستمرارهم، ولأن العنصر البشري المستورد غريب فإنه سيظل في حال احتكاك مع سكان المنطقة وسيضمن الغرب ولاءه الدائم له، وبذلك يتم التخلص من جماعة وظيفية كانت تعمل بالتجارة والربا وأصبحت بلا وظيفة داخل الحضارة الغربية إلى جماعة وظيفية تعمل بالاستيطان والقتال في خدمة الحضارة الغربية خارج حدودها.

وقد أدرك بعض المثقفين اليهود في شرق أوربة كل هذه الحقائق الصهيونية الكامنة في الحضارة الغربية (الفكر العنصري - الفكر الدارويني النيتشوي وفلسفة القوة - وضع اليهود داخل الحضارة الغربية كجماعة وظيفية وشعب عضوي منبوذ - الإمبريالية باعتبارها أهم الظواهر في الحضارة الغربية الحديثة والآلية الكبرى لمن يود تحقيق أي مشروع) ولذا مع تعثر التحديث وفي شرق أوربة مع إغلاق باب الحراك الاجتماعي أمامهم بدؤوا يفكرون في الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية، أي نقل اليهود إلى إحدى المناطق خارج أوربة في إحدى الأماكن في آسيا وإفريقية ليوطنوا هناك، ولينشئوا وطناً قومياً لهم، وبذلك يريحون أوربة منهم، ويستريحون هم بدورهم منها، فهي التي نبذتهم

وحولتهم إلى فائض بشري، فيحققوا داخل التشكيل الإمبريالي الغربي، ما فشلوا في تحقيقه داخل التشكيل الحضاري الغربي.

ولكن هؤلاء المثقفين كانوا يعرفون أنه لا يمكن ترشيحهم لهذا الحل الإمبريالي إلا بأن يتحولوا إلى شعب [عضوي] فولك volk، مثل كل الشعوب، (كما جاء في الكتابات الصهيونية). وأن مثل هذا الشعب، من منظور غربي، هو وحده الذي له الحق في أرض وفي وطن. ولكنهم كان عليهم الخروج من أوربة، ولذا كان مفهوم الشعب العضوي المنبوذ هو المخرج، فهو يوفر لهم حق الشعوب العضوية في أرض وفي وطن، وفي الوقت ذاته يرضي أوربة لأن هذا الوطن يوجد خارجها مما يعني خروج الشعب العضوي المنبوذ من أوربة! ومن هنا ظهر تعريف الصهيونية بأنها (القومية اليهودية) التي تتحقق (هناك) في فلسطين وليس هنا في أوربة.

وقد ساعدهم في مسعاهم هذا عدة عناصر اجتماعية وفكرية من أهمها وضع اليهود داخل الحضارة الغربية كجماعة وظيفية. فالجماعات الوظيفية – كما أسلفنا – تحافظ على عزلتها وانفصالها، ويساعدها المجتمع على ذلك حتى يتيسر لها أن تلعب دورها الوظيفي، فهي، إذن، ذات سمات إثنية خاصة تميز كل واحدة منها من أعضاء الأغلبية في المجتمعات التي يعيش اليهود بين ظهرانيها مما خلق وهم القومية لدى أعضاء الجماعات اليهودية.

ومفهوم القومية اليهودية (والشعب اليهودي) يفترض أن اليهود يشكلون جماعة قومية أو شعباً يهودياً. وكلمة (الشعب) تتواتر في الكتابات الدينية اليهودية، ولكن المقصود بها في سياقها الديني أن اليهود يشكلون جماعة دينية ذات عقيدة دينية وانتماء ديني واحد. وهناك مصطلحات أخرى مماثلة مثل (الشعب المختار) و (أمة الروح) و (الشعب المقدس) وهي مصطلحات تهدف إلى الإشارة إلى تجمع ديني أو أخلاقي وحسب. وقد استفاد الصهاينة من هذا التشابه في الدوال بين مصطلح (شعب) في السياق الديني ومصطلح (شعب) في المعجم الحضاري الغربي في أواخر القرن التاسع عشر.

ومما ساعد على هذا الاتجاه ما يسمى بمفهوم (حب صهيون)، وهو حي يعبر عن نفسه من خلال الصلاة والتجارب والطقوس الدينية المختلفة، وفي أحيان نادرة على شكل الذهاب إلى فلسطين للعيش فيها بغرض التعبد وحسب. ولذا كان المهاجرون اليهود الذين يستقرون هناك لا يعملون، ويعيشون على الصدقات التي يرسلها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. وقد كان العيش في فلسطين يُعد عملاً من أعمال التقوى لا عملاً من أعمال الدنيا، وجزاؤه يكون في الآخرة أو في آخر الأيام، ولذا فإنه لا تربطه رابطة كبيرة بالاستيطان الصهيوني، وخصوصاً أن اليهودية الحاخامية (الأرثوذكسية) تحرِّم محاولة العودة الجماعية الفعلية إلى فلسطين وتعتبرها تجديفاً وهرطقة ومن قبيل (دحيكات هاكتس، أي: التعجيل بالنهاية). فاليهودية تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الرَّب وبطريقته، وأنها ليست فعلاً بشرياً يتم على يد البشر. وهذه النزعة الصهيونية الدينية (التي تؤكد عنصر تجاوز المادة) لا علاقة لها بالاستيطان الصهيوني الفعلي والمادي في فلسطين ولا حتى بما يسمى (الصهيونية الدينية) في الوقت الحالي، ومع هذا استفاد الصهاينة منها في صياغة تعريفهم.

وثمة عنصر آخر داخل اليهودية ساعد الصهاينة كثيراً وهو ما نسميه: «التيار الحلولي داخل اليهودية». والحلولية كما نعرِّفها هي حلول الإله المفارق، المتجاوز للطبيعة والتاريخ، في مخلوقاته داخل الزمان إلى أن يصبح جزءاً منها، بحيث لا يمكن التفريق بين المخلوق والخالق، ويتم (تطبيع) الإله (أي جعله ظاهرة طبيعية زمنية مادية) ويتم تأليه المخلوقات الزمنية. وهذا هو ما تم في إطار التيار الحلولي اليهودي، إذ حل إله اليهود فيهم وفي أرضهم فأصبحوا كياناً مقدساً وأصبحت أراضيهم أرضاً مقدسة، مما أدى إلى وجود علاقة مساواة بين الخالق من جهة، ومن جهة أخرى الشعب اليهودي والأرض اليهودية! أو كما يقول بن جوريون: «لقد اختار الإله الشعب

اليهودي، واختار الشعب اليهودي الإله»، وهي أيضاً علاقة ترادف، ولذا أمكن لجابوتنسكي أن يقول: إنه يتعبد لإلهه الشعب اليهودي ولموشيه ديان أن يقول: إن إلهه هو أرض إسرائيل. والحلولية اليهودية لا تختلف كثيراً عن الأديان الوثنية الحلولية حيث يقتصر الدين والإله على شعب واحد دون غيره من الشعوب.

واليهودية من هذا المنظور الحلولي قومية دينية مقدسة تمزج الوجود التاريخي الزمني بالتصور الديني المثالي، ولذا نجد أن الملكوت السماوي وآخر الأيام يكتسبان في اليهودية الحلولية طابعاً قومياً، فهما مرتبطان بمجيء الماشيّح (المسيح المخلص اليهودي الذي سيأتي في آخر الأيام ليجمع شتات شعبه اليهودي ويقوده إلى صهيون أو أرض الميعاد ليؤسس مملكته هناك).

ومما ساعد على تأكيد مفهوم القومية اليهودية بالمعنى الزمني العلماني هو أن الشريعة اليهودية عرَّفتِ اليهودي بأنه من وُلِد لأم يهودية، أو تهود، أي إنها لا تعرِف اليهودية على أساس الإيمان بالعقيدة وحسب (كما هو الحال بالنسبة للإسلام والمسيحية على سبيل المثال) وإنما على أساس الجينات والوراثة، وهي في هذا لا تختلف عن تعريف القومية السائد في الغرب في نهاية القرن التاسع عشر.

بسبب كل العناصر السابقة، نجح بعض المثقفين اليهود من شرق أوربة ووسطها بالدرجة الأولى صياغة مفهوم الصهيونية باعتبارها (القومية اليهودية) وهو مفهوم يستند بدوره إلى الإيمان بأن ثمة وحدة يهودية عالمية تخص كل يهود العالم وتسمهم بخصوصية يهودية تفصلهم عن كل شعوب الأرض (الأغيار). وقد تفرع عن مفهوم الوحدة هذا مفاهيم ومصطلحات عديدة من بينها – على سبيل المثال لا الحصر – مفهوم (اليهود ككل) (بالإنجليزية: Jewry) و(الإثنية اليهودية) وأهمها طرّاً هو مفهوم (التاريخ اليهودي).

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع
تاريخ الصهيونية

تناولنا في الفصل السابق مركب الأسباب الذي خلق التربة الخصبة، وساعد على تحول الفكرة الصهيونية إلى حقيقة وظاهرة. ولعل تركيبة تاريخ الحركة الصهيونية يعود إلى مركب الأسباب نفسه، وإلى تداخل مستوياته وساحاته. وفي محاولة لتقديم تاريخ عام ومركَّب للصهيونية سنقسِّمه إلى خمس مراحل أساسية:

١ - المرحلة التكوينية: (بلورة الفكرة الصهيونية).

٢ - الصهيونية بين اليهود.

٣ - ولادة الصهيونية.

٤ - الاستيطان وفلسطين (حتى عام ١٩٦٧).

٥ - أزمة الصهيونية.

أولاً - المرحلة التكوينية

يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى عدة مراحل:

١ - الصهيونية ذات الديباجة المسيحية (حتى نهاية القرن السابع عشر):

شهدت هذه المرحلة من ناحية الخلفية العامة البدايات الحقيقية للانقلاب التجاري في الغرب، إذ هيمن الجيب التجاري (الذي كان منعزلاً في المدن في أوربة الإقطاعية) على الاقتصاد الزراعي الإقطاعي عام ١٥٠٠ تقريباً، وأعاد

صياغة الإنتاج وتوجيهه بحيث خرج به عن نطاق الاكتفاء الذاتي وسد الحاجة، وبدأ التجار يلعبون دوراً مهماً في توجيه سياسات الحكومات، وهذا ما يُعبَّر عنه باصطلاح (الانقلاب التجاري). وقد شجع هذا الانقلاب حركة الاكتشافات الجغرافية وهي حركة استعمارية ضخمة كانت تأخذ شكل استيطان في مراكز تجارية على الساحل. وفي أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، أصبحت إنجلترا بعد أن تحوَّلت عن الكاثوليكية ونفضت النفوذ الإسباني عنها، أهم قوة استعمارية، فراكمت الثروات وسيطرت على رقعة كبيرة من الأرض. وواكب كل هذا حركة الإصلاح الديني التي أعادت تعريف علاقة الإنسان بالخالق وبالكتاب المقدَّس، بحيث أصبح في إمكان الفرد أن يحقق الخلاص بنفسه لنفسه خارج الإطار الكنسي الجمعي، ودون حاجة إلى رجال الدين، وأصبح من واجبه أن يفسر الكتاب المقدَّس لنفسه.

وإذا ما تركنا الخلفية والمادة البشرية جانباً وانتقلنا إلى الساحة، فلسطين، وجدنا أن الإمبراطورية العثمانية في هذه المرحلة كانت لا تزال تقف شامخة تحمي كل رعاياها، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، وتُشكِّل كتلة بشرية ضخمة متماسكة، ولم يكن الاستعمار الغربي يجرؤ على مواجهتها، وكان يفضل الالتفاف من حولها. ومع هذا يجب أن نسجل أن هذه الفترة شهدت بداية جمود الدولة العثمانية وظهور علامات ضعفها (في الوقت الذي كانت فيه الدول القومية الأوربية تزداد قوة بتأثير الانقلاب التجاري).

ظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية في أواخر القرن السادس عشر على شكل الأحلام الاسترجاعية في الأوساط البروتستانتية الاستعمارية، خصوصاً في إنجلترا، وقد وُلدت كفكرة وحسب، كإمكانية تبغي التحقق لا في أوربة وإنما خارجها، وليس من خلال الإنسان الأوربي ككل، وإنما من خلال الجماعات الوظيفية اليهودية (اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع [جماعة وظيفية بلا وظيفة] يجب نقله خارج أوربة ليتحول إلى شعب عضوي

نافع [انظر الفصل الخامس، الجزء المعنون (نحو تعريف أكثر تفسيرية)]).
وكانت الصيغة الصهيونية الأساسية متدثرة بديباجات مسيحية بروتستانتية، وقد كانت هذه الصهيونية ترى اليهود باعتبارهم مادة متحوسلة تماماً. ولذا، يُتصوَّر أن يكون لهم دولة وظيفية مستقلة (فمركز الحلول هو المسيحيون البروتستانت) والمكان الذي سيُنقَلون إليه كان يختلف من مفكر لآخر. والهدف من نقلهم هو الإعداد للخلاص المسيحي. ويُلاحَظ أن الصهيونية التوطينية (يهودية كانت أم مسيحية) تنظر إلى اليهود من الخارج كعنصر يُستخدَم ومادة تُوظَّف، وإن كان يجدر ملاحظة أن الصهيونية هي بالدرجة الأولى حركة غير مسيحية. كما يُلاحَظ أن الخطاب الصهيوني كان هامشياً للغاية، مقصوراً على الأصوليين البروتستانت.

٢ - صهيونية غير اليهود (العلمانية) (حتى منتصف القرن التاسع عشر):

شهدت هذه المرحلة تراكم رؤوس الأموال وهيمنة الملكيات المطلقة (بتوجهها المركنتالي) على معظم أوربة، غربها ووسطها، وإلى حدٍّ ما شرقها، ورغم أن القوى السياسية التقليدية كانت لا تزال مسيطرة على دفة الحكم فإن الطبقات البورجوازية ازدادت قوة وثقة بنفسها وبدأت تطالب بنصيب من الحكم، بل بدأت تؤثر فيه. وقد عبَّر هذا عن نفسه من خلال الفلسفات الثورية المختلفة والنظريات الكثيرة عن الدولة والفكر العقلاني، وأخيراً من خلال الثورة الفرنسية التي تُعدُّ ثمرة كل الإرهاصات السابقة وتشكِّل نقطة تحوُّل في تاريخ أوربة بأسرها.

وقد أدَّى تراكم رؤوس الأموال والفتوحات العسكرية والاكتشافات الجغرافية وتقدُّم العلم والتكنولوجيا إلى حدوث النقلة النوعية التي يُطلَق عليها (الثورة الصناعية)، ويرى بعض المؤرخين أن بدايتها تعود إلى هذه الفترة. وكانت إنجلترا في المقدمة في هذا التحول، فقد كانت أول دولة في العالم تتحول من دولة تجارية إلى دولة رأسمالية صناعية، ثم تحوَّلت إلى قوة عظمى بعد

انتصارها على فرنسا في حرب السنوات السبع، وبعد توقيع معاهدة أوترخت عام ١٧١٣، وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت إنجلترا أكبر قوة استعمارية في العالم. ومع تصاعُد المشروع الاستعماري انزوى دعاة الديباجات الدينية وتدثرت الصياغة الصهيونية الأساسية بالديباجات العلمانية الرومانسية والعضوية والنفعية والعقلانية. وقد دعا نابليون (أول غاز في الشرق الإسلامي وعدو اليهود) إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين مستخدماً خليطاً من الديباجات الرومانسية والدينية والنفعية.

وكان الوهن الذي دبَّ في أوصال الدولة العثمانية (رجل أوربة المريض) قد بدأ يظهر ويتضح، وكانت كل القوى الغربية تفكر في طريقة للاستفادة من هذا الضعف لتحقق لنفسها بعض المكاسب. وقد أخذ هذا شكل الهجوم المباشر من روسيا التي ضمت بعض الإمارات التركية على البحر الأسود، ثم هجوم نابليون على مصر، بينما قررت إنجلترا، ومن بعدها ألمانيا (في مراحل مختلفة) الحفاظ على هذه الإمبراطورية مع تحقيق المكاسب من خلال التدخل في شؤونها وإصلاحها حتى تقف حاجزاً ضد أي زحف روسي محتمل.

ظلت الصهيونية حتى هذه اللحظة مفهوماً عائماً غائماً، ولم تكن أبعاده السياسية واضحة، ولكن التطورات السياسية أدت إلى بلورته إلى أن أصبحت الصهيونية قضية حقيقية مطروحة على المستوى السياسي، وبشكل جدي. وكما أكدت التايمز (عام ١٨٤٠): «لم تعد الصهيونية فكرة هامشية أو فلسفية أو تطلعاً عاماً، وإنما أصبحت فكرة مركزية في الوجدان السياسي الغربي».

ولعل أهم القرائن على هذه الحقيقة أن المفكرين الصهاينة أصبحوا قريبين من صانع القرار، ويمكن أن نذكر في هذا المضمار جورج جولر George Gqwler حاكم جنوب أستراليا وهنري إنس Henry Innes وزير البحرية البريطانية الذي كتب مذكرة عام ١٨٣٩ موجهة إلى كل دول شمال أوربة وأمريكا البروتستانتية (قام بالمرستون Palmerston رئيس الوزراء برفعها

إلى الملكة فكتوريا) تدعو إلى إعادة اليهود إلى فلسطين، وقد نشرت **التايمز** المذكرة عام ١٨٤٠ ونشرت جريدة **جلوب** اللندنية (القريبة من وزارة الخارجية) مجموعة مقالات عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠ تؤيد مسألة تحييد سورية (التي ناقشها مؤتمر لندن).

ويعود هذا التحول إلى ظهور محمد علي المفاجئ في مصر الذي غيَّر الأوضاع تماماً، إذ إنه قلب موازين القوى وهدد المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يفترض أن العالم كله ما هو إلا ساحة لنشاطه وسوق لسلعه، وكان على وشك أن يضع حدّاً لآمال الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المواتية لاقتسام تركة الرجل المريض المحتضر، ولذا تحالفت الدول الغربية كلها، وضمنها فرنسا، حليفة محمد علي، وأجهضت مشروعه التحديثي، وعقدت مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ ثم اضطرته إلى التوقيع على (معاهدة لندن لتهدئة المشرق). وتمثل هذه النقطة، كما يقول ناحوم سوكولوف (رئيس المنظمة الصهيونية ومؤلف كتاب **تاريخ الصهيونية**) «نقطة تحول في تاريخ فلسطين، إذ تبلورت الفكرة الصهيونية بسرعة بحيث خرجت من نطاق الأفكار السياسية ودخلت حيز المشاريع السياسية، فطرحت فكرة تحييد سورية، بمعنى فصلها عن كل من محمد علي وتركيا». ويضيف سوكولوف: «في هذه اللحظة كان من الممكن أن يستعيد اليهود أرضهم القديمة لو كان عندهم منظمة لتنفيذ الخطة». وإن أردنا ترجمة هذا الكلام إلى مصطلح سياسي أكثر دقة لقلنا: (المسألة الشرقية) وهي المشاكل الناجمة عن وضع الإمبراطورية العثمانية المتردي الذي كانت فلسطين جزءاً لا يتجزأ منها والذي كان يؤثر في ميزان القوى في أوربة التقت بمسألة أوربة اليهودية فاندمجتا تمام الاندماج، وتم التوصل إلى إمكانية حل المسألة اليهودية عن طريق ربطها بالمسألة الشرقية. ويأخذ الحل الشكل التالي:

١ - تتفق الدول العظمى على تسوية المسألة الشرقية على أساس استقلال سورية.

٢ - يتم إدخال «مادة جديدة» في نسيج سورية الاجتماعي

٣ - هذه المادة هي اليهود الذين سيتم استرجاعهم إلى فلسطين حاملين معهم عُدة الحضارة وأجهزتها، بحيث يكوِّنون نواة لخلق مؤسسات أوربية تحت رعاية القوى الأوربية الخمس.

٤ - ستجد إنجلترا حليفاً جديداً سيثبت أن الصداقة معه في نهاية الأمر ذات نفع لها في التعامل مع المسألة الشرقية.

عند هذه النقطة تبلورت الفكرة الصهيونية، ويمكن القول بأن عملية بلورة منظومة الفكر الصهيوني بشكل كامل تمت على يد كل من اللورد شافتسبري (١٨٠١ - ١٨٨٥) والسير لورانس أوليفانت (١٨٢٩ - ١٨٨٩). وكان أولهما يرى اليهود باعتبارهم شعباً مستقلاً وجنساً عبرياً يتمتع باستمرارية لم تنقطع، فيهود العهد القديم (الخارجين من مصر، الصاعدين إلى كنعان) هم أنفسهم يهود إنجلترا وفرنسا وبولندا (الخارجين من المنفى الصاعدين إلى فلسطين العربية!). وقد بيَّن شافتسبري أن هذا الشعب يمكن توظيفه في خدمة الإمبراطورية الإنجليزية لأنهم «جنس معروف بمهارته ومثابرته الفائقة، ويستطيع أعضاؤه العيش في غبطة وسعادة على أقل شيء، فهم قد ألفوا العذاب عبر العصور الطويلة». وهم علاوة على هذا شعب مرتبط ببقعة جغرافية محددة خارج أوربة هي فلسطين، فبعثهم لا يمكن أن يتم إلا هناك، كما أن وجودهم في هذه البقعة يمثل عنصراً حيوياً في الرؤية المسيحية للخلاص. وكما قال: «إن أي شعب لا بد أن يكون له وطن. الأرض القديمة للشعب القديم». ثم طوَّر هذا الشعار ليصبح «وطن بلا شعب لشعب بلا وطن». كما لاحظ شافتسبري أهمية سورية (وضمنها فلسطين) لإنجلترا ومدى حاجتها (لإسفين بريطاني هناك).

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار طُرحت قبل عشرين سنة من ميلاد هرتزل فإن كل ملامح المشروع الصهيوني موجودة فيها، ولا سيما فكرة توظيف

وضع اليهود الشاذ داخل المجتمعات الغربية في خدمة هذه المجتمعات عن طريق نقلهم. وصاغ شافتسبري رؤية اليهود ككتلة مستوطنين لا تخدم دولة غربية واحدة وإنما كل دول الغرب (وهو الأمر الذي تحقق فيما بعد).

أما الشخصية الثانية المهمة فهو سير لورانس أوليفانت صديق لورد شافتسبري، الذي كان يرى، مثل بعض السياسيين البريطانيين في نهاية القرن التاسع عشر، ضرورة إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية لتظل حاجزاً صلباً ضد الزحف الروسي عن طريق إدخال عنصر اقتصادي نشط في جسدها المتهاوي، وقد وجد أن اليهود هم هذا العنصر، ولذلك دعا بريطانيا إلى تأييد مشروع توطين اليهود، لا في فلسطين وحسب، وإنما في الضفة الشرقية للأردن كذلك. وكان المشروع يتلخص في إنشاء شركة استيطانية لتوطين اليهود برعاية بريطانية وبتمويل من الخارج ويكون مركزها إستنبول. وقد لاحظ بن هالبرن، وهو أحد المؤرخين المحدثين للصهيونية ومن المؤيدين لها، أوجه الشبه بين هذه الخطة واقتراحات هرتزل فيما بعد.

ولم يكن شافتسبري وأوليفانت إلا تعبيراً عن رؤية الحضارة الغربية لليهود باعتبارهم شعباً منبوذاً. وقد عبَّرت هذه الرؤية عن نفسها فيما نسميه (الوعود البلفورية) (نسبة إلى وعد بلفور) وهي التصريحات التي أصدرها الساسة الغربيون، والتي يربطون فيها بين اليهود وفلسطين، ويدعونهم إلى الاستيطان فيها. ومن أهمها تصريح نابليون في أوائل القرن التاسع عشر حين دعا اليهود للاستيطان فيها. ومن أهمها تصريح نابليون في أوائل القرن التاسع عشر حين دعا اليهود للاستيطان في (بلاد أجدادهم). وقد صدرت وعود بلفورية من ألمانيا كان أهمها خطاب من دوق إيلونبرج باسم حكومة القيصر إلى هرتزل مؤرخ في سبتمبر ١٨٩٨، وجاء فيه: إن جلالته على استعداد لأن يأخذ على عاتقه محمية يهودية في حالة تأسيسها. كما أصدرت حكومة روسيا القيصرية وعداً بلفورياً أخذ شكل رسالة وجهها فون بليفيه وزير داخلية روسيا إلى

تيودور هرتزل يعبِّر فيها عن تأييد روسيا المعنوي والمادي للحركة الصهيونية. ويمكن النظر إلى مشروع توطين شرق إفريقية الذي تبنته إنجلترا عام ١٩٠٥ باعتباره وعداً بلفورياً آخر.

ومما يجدر ملاحظته أن كل الشخصيات التي كانت وراء إصدار الوعود البلفورية كانت معادية لليهود تود ترحيلهم من أوطانهم إلى أي مكان آخر. فبلفور، على سبيل المثال، لم يكن يضمر كثيراً من الحب والاحترام لليهود. وقد اعترف هو نفسه لوايزمان بدوافعه المعادية لليهود وفي المقدمة التي كتبها **لتاريخ الصهيونية** الذي ألَّفه سولوكوف. ويتحدث عن اليهود باعتبارهم عبئاً على الحضارة الغربية. والقول نفسه ينطبق على الآخرين ابتداءً بنابليون وانتهاءً بقيصر ألمانيا.

من الواضح إذن أن الدافع وراء صدور الوعود البلفورية ليس حب اليهود وإنما الرغبة في التخلص منهم باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً. ولكن أوربة - كما قلنا - كانت حضارة نفعية مادية تتجاوز الحب والكره وتلتزم بأمر واحد وهو تحويل العالم إلى مادة استعمالية لا قداسة لها، وكما يقول بالمرستون «ليس لنا أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون، بل مصالح دائمة». وكان معظم الذين يصدرون الوعود البلفورية يهدفون إلى توظيف اليهود في خدمة مشاريعهم وإلى تحويلهم إلى عملاء لهم.

ثانياً: الصهيونية بين اليهود

نشأت الصهيونية حركةً سياسيةً بين الجهات الغربية غير اليهودية ثم انتقلت إلى الجماعات اليهودية، ويمكن تقسيم تاريخ الصهيونية بين اليهود إلى عدة مراحل أيضاً:

١ - صهيونية أثرياء الغرب المندمجين (النصف الثاني من القرن التاسع عشر)

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تَعُد الحروب ضد دول آسيا وإفريقية بعد التطورات الصناعية المذهلة في أوربة، أمراً يبهظ خزائن الدول الاستعمارية، بل إن العائد أصبح يفوق التكاليف (وكانت إحدى مقولات أعداء المشروع الاستعماري: إنَّ تكاليف الإمبراطورية تفوق عائدها). ومما تجدر ملاحظته كذلك أن الضغوط السكانية والأزمة الاقتصادية داخل المجتمعات الغربية جعلتها تبحث عن حل لمشاكلها خارج أوربة ولكل هذا طرحت الإمبريالية نفسها باعتبارها المخرج من المأزق التاريخي.

ولكن المشروع الإمبريالي لم يكن يتم في ظل نظريات التجارة الحرة، إذ سيطر فكر احتكاري جديد يُسمَّى «نيو - مركنتالي neo - mercantile» أي «المركنتالي الجديد») بحيث تَمَّ تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ واحتكارات، كل منطقة منها مقصورة على الدولة التي استعمرتها (ومن هنا المؤتمرات الدولية المختلفة في هذه الفترة لتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ). ومع منتصف القرن التاسع عشر كانت إنجلترا ورشة العالم بلا منازع، فإنتاجها الصناعي كان قد وصل إلى مستوى لم تعرفه البشرية من قبل، وإمبراطوريتها كانت مترامية الأطراف تحميها قوة عسكرية ضخمة وأسطول يُسيطر على كل بحار العالم. وقد اتخذت السياسة البريطانية شكلاً إمبريالياً أكثر حدة، ولا سيما بعد تحطيم مطامع روسيا في حرب القرم، وتحوَّل مشروعها الاستعماري إلى أواسط آسيا وغيرها من المناطق البعيدة عن إفريقية والشرق الأوسط اللذين تزايد الاهتمام الإمبريالي البريطاني بهما، فاشترت بريطانيا أسهم شركة قناة السويس عام ١٨٧٦، واستولت على قبرص عام ١٨٧٨، واحتلت مصر (الطريق إلى الهند) عام ١٨٨٢م. ونتيجة كل هذا أصبح مصير فلسطين جزءاً من المخطط الاستعماري البريطاني، الأمر الذي حدا بكتشنر أن يطالب بتأمين ضم

فلسطين للإمبراطورية، ومع هذا كانت بريطانية لا تزال ملتزمة بضمان ممتلكات الدولة العثمانية «من النيل إلى الفرات» التي «وعد الرَّب بها إبراهيم» ومن ثم أصبحت منطقة نفوذ بريطانية. ولكن في عام ١٨٨٥ قرَّرت حكومة المحافظين أن من الخير الموافقة على اقتراح القيصر بتقسيم الإمبراطورية (العثمانية).

ومع هزيمة فرنسا على يد ألمانيا عام ١٨٧١ نشط المشروع الإمبريالي الألماني، وبالتالي العلاقة مع الدولة العثمانية، فزاد حجم القروض الألمانية لها، وزار القيصر وليام الثاني القسطنطينية عام ١٨٩٨ وزار بعدها فلسطين، ولذا ظل المشروع الصهيوني متأرجحاً بين أعظم قوتين إمبرياليتين في ذلك الحين، البريطانية والألمانية.

كانت الصيغة الصهيونية حتى هذه المرحلة مجرد فكرة تبحث عن المادة البشرية اليهودية المُستهدَفة التي ستُوظَّف. ومع تعثُّر التحديث في شرق أوربة في أواخر القرن التاسع عشر، تدفَّق المهاجرون اليهود من شرق أوربة إلى غربها، الأمر الذي هدَّد أمن هذه الدول كما هدَّد مكانة أعضاء الجماعات اليهودية فيها، وقد أدَّى هذا إلى تشابك مصير يهود غرب أوربة ومصير يهود اليديشية. وحلاً لهذه المشكلة، اكتشفت يهود الغرب الحل الصهيوني دون أية ديباجات قومية أو سياسية (ومن هنا رفض فكرة الدولة اليهودية والابتعاد عن فلسطين كمكان للتوطين وعدم الاهتمام بالدولة الراعية إذ لا حاجة لها). وظهرت الصهيونية التوطينية بين اليهود في غرب أوربة، وخصوصاً بين أثرياء الغرب المندمجين. وعلى هذا، فهو يعتبر أول اتجاه صهيوني يظهر بين اليهود، ومع هذا فهو يشبه صهيونية غير اليهود في أنه ينظر لليهود من الخارج.

ويمكننا أن نقول: إن تاريخ صهيونية غير اليهود يبدأ مع ظهور حركة الاستعمار الاستيطاني وتتبلور ديباجاته وتكتسب بُعْداً أساسياً مع ظهور محمد علي وسقوطه (ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية لا علاقة لهم بتطور

الفكرة الصهيونية). ولا يبدأ تاريخ الصهيونية عند اليهود إلا مع تعثُّر التحديث وتعاظم الإمبريالية، كرؤية وكممارسة.

ومن أهم الصهاينة التوطينيين في هذه المرحلة إدموند دي روتشيلد وهيرش ومونتفيوري.

٢ - إرهاصات التيارات الصهيونية المختلفة بين اليهود (العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر).

لا تختلف الخلفية التاريخية لهذه المرحلة كثيراً عن سابقتها، فالإمبريالية الغربية كانت قد قسَّمت العالم بينها. وكانت ألمانيا تحاول أن تُعيد التقسيم لتوسيع الرقعة التي تهيمن عليها. ومن هنا استمرار تذبذب الصهاينة بين بريطانيا وألمانيا. وبرغم أن سياسة بريطانيا الرسمية كانت الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية وأملاكها إلا أن القرار بتقسيمها كان قد تم اتخاذه بالفعل. وكان التعبير عن كل هذه الصراعات هو الحرب العالمية الأولى التي انتهت بضم فلسطين (الساحة) إلى الإمبراطورية البريطانية واختفاء الدولة العثمانية كقوة سياسية.

أ) الصهيونية التسللية: اكتشف يهود شرق أوربة الصهيونية كحركة استيطانية، ولكنهم لم يدركوا حتمية الحل الإمبريالي. ونظراً لقصور رؤيتهم، حاولوا الاستيطان دون دعم إمبريالي، وحاولوا تجنيد أثرياء يهود الغرب المندمجين ليرعوا مشروعهم ويدعموه، وهذا ما سميناه (الصهيونية التسللية) التي يقال لها (عملية) وهي أول صهيونية استيطانية وتتسم بأنها نابعة من المادة البشرية المُستهدَفة، ويظل مفهوم الدولة شاحباً بين دعاة الصهيونية التسللية، كما أن فلسطين ليست بالضرورة ساحة الاستيطان. ومن أهم دعاة الصهيونية التسللية ليلينبلوم وينسكر، ثم ظهرت جماعات البيلو وأحباء صهيون. ويمكن

النظر إليها باعتبارها إرهاصات لهرتزل وللصيغة الصهيونية الأساسية بعد تهويدها.

ب) إرهاصات الصهيونية الإثنية الدينية والعلمانية: وظهرت كتابات كاليشر والقلعي التي تعتبر إرهاصات للصهيونية الإثنية الدينية، ونشر آحاد هعام كتاباته الصهيونية التي ترى أهمية تأسيس دولة يهودية في فلسطين، ولكن وظيفتها لم تكن الإسراع بعملية دمج اليهود بل الحفاظ على هويتهم.

ج) إرهاصات الصهيونية العمالية: وقد ظهرت كذلك كتابات هس في منتصف القرن التاسع عشر التي ساعدت مفكري الصهيونية العمالية على صياغة أفكارهم.

٣ - مرحلة هرتزل (العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)

ظهر هرتزل بين صفوف يهود الغرب المندمجين التوطينيين فاكتشف حاجة الغرب ويهود الغرب للتخلص وبسرعة من يهود شرق أوربة، ولكنه اكتشف الحقيقة البدهية الغائبة عن الجميع: حتمية التحرك داخل إطار الإمبريالية الغربية التي يمكنها وحدها أن تنقل اليهود خارج أوربة وأن توظفهم لصالحها نظير أن تزودهم بالدعم والحماية. وقد اكتشف هرتزل أيضاً فكرة القومية العضوية والشعب العضوي (فولك) التي تستطيع أوربة العلمانية الإمبريالية أن تدرك اليهود من خلالها. وقد نجح هرتزل في التوصُّل إلى خطاب مراوغ (صياغة هلامية، وتوظيف الصمت) وهو ما جعل وضع نصوص العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم ممكناً. وهو عقد يُرضي يهود الشرق ولا يُفزع يهود الغرب، ويجعل بإمكان الإمبريالية

أن تضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ. كما أنه فتح الباب أمام عملية تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية من خلال الديباجات اليهودية المختلفة. ويتميز هرتزل عن كل من شافتسبري وأوليفانت في أنه هو نفسه يهودي ينظر إلى المادة البشرية المُستهدَفة من الداخل. ولكنه يهودي غير يهودي، ولذا فهو ينظر إلى هذه المادة من الخارج ويراها باعتبارها مشكلة تبغي حلاً لا قيمة إنسانية تبغي التحقق. وبسبب ازدواجيته هذه، نجح هرتزل في أن يكون جسراً بين التوطينيين والاستيطانيين وبين اليهود والغرب، ولذا يمكن القول بأن الصهيونية تحوَّلت من فكرة إلى مشروع استيطاني استعماري على يد هرتزل في مؤتمر بال الذي وُلِدت فيه الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. وقد فزع أثرياء الغرب اليهود من دعوة هرتزل في بادئ الأمر، كما رفضها معظم الجماعات والمنظمات اليهودية في العالم.

٤ - تبلور الفكرة الصهيونية بين اليهود

أ) حتمية الحل الإمبريالي: أدرك قادة يهود شرق أوربة حتمية الحل الإمبريالي من خلال هرتزل.

ب) استقرار الصيغة الصهيونية الشاملة: تَمَّ قبول الدولة اليهودية الوظيفية باعتبارها الهدف الأساسي للحركة الصهيونية والإطار الذي يتم توظيف اليهود من خلاله. وأدَّى تقسيم الدولة العثمانية إلى حسم الأمور تماماً لصالح دعاة الاستيطان في فلسطين.

جـ) تهويد الصيغة الصهيونية: أحسَّ قادة شرق أوربة أن الصيغة الصهيونية الأساسية، وصيغة هرتزل الاستعمارية، لا يمكن أن تُجنِّد يهود اليديشية، ولذا فقد أثاروا قضية المعنى والوعي اليهودي وأضافوا ديباجات إثنية دينية وعلمانية أدَّت إلى تهويد الصيغة الصهيونية (وسنتناول هذا الجانب في الفصل الخامس).

٥ - تأسيس المنظمة الصهيونية:

لم تكن بلورة الفكرة الصهيونية كافية، بل كان ضرورياً أن يوجد إطار تنظيمي، وقد وضع هرتزل التصور الأساسي في كتابه **(دولة اليهود)**، ثم دعا للمؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) وتمَّ تأسيس المنظمة الصهيونية.

ثالثاً: ولادة الصهيونية

تختلف خريطة العالم السياسية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى عن التي سادت قبلها اختلافاً بيِّناً. فقد انتصر الاستعمار البريطاني على الاستعمار الألماني، والتهم النصيب الأكبر من الإمبراطورية العثمانية، ثم ظهرت إرهاصات القومية العربية (ولكن حركة القومية العربية وحركة المقاومة العربية الفلسطينية، وبخاصة في العقود الأولى من هذه الفترة كانت ضعيفة غير قادرة على تعبئة الجماهير وتنظيمها ضد الاستعمارين الإنجليزي والصهيوني بتنظيمهما الحديث وعلاقتهما العالمية وتعاونهما الوثيق داخل فلسطين وخارجها). وقد تصاعدت المقاومة في الثلاثينيات، ولكن المؤسستين الاستعماريتين نجحتا في قمعها وانتهى الأمر بطرد غالبية الفلسطينيين من ديارهم، وأُعلنت الدولة عام ١٩٤٨ بموافقة الدول الغربية العظمى كلها وموافقة الاتحاد السوفييتي (ولم تظهر المقاومة الفلسطينية مرة أخرى بشكل منظم إلا عام ١٩٦٥ بقيادة فتح وبمشاركة الفصائل الفلسطينية الأخرى). وقد خاضت الدولة الصهيونية حروبها المتعددة ضد العرب، من عام ١٩٤٨ إلى حرب ١٩٥٦ إلى حرب ١٩٦٧ إلى حرب ١٩٧٣ إلى اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ وما تبعه من توسُّع ومزيد من القمع.

وفي بداية هذه المرحلة ظهرت الولايات المتحدة كقوة كبرى لها ثقل يُعتدُّ به على الصعيد العالمي. أما الاتحاد السوفييتي فقد دخل مرحلة البناء والتحديث الاشتراكي التي فرضت عليه نوعاً من العزلة. ومع ثلاثينيات القرن بدأ مركز

الإمبريالية في الانتقال من لندن إلى واشنطن، وهي عملية يمكن القول بأنها اكتملت بعد الحرب العالمية الثانية التي خرجت منها الولايات المتحدة قائداً للمعسكر الإمبريالي بلا منازع.

كما يُلاحَظ تَركُّز معظم يهود العالم في الولايات المتحدة، وقد كان لهذين العنصرين أعمق الأثر في تعميق توجُّه الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية نحو أمريكا.

مع وعد بلفور، حُسمت كل الأمور، فبعد ظهور الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وقبول القيادات الصهيونية لها، يظهر بلفور (ممثل الإمبراطورية البريطانية والحضارة الغربية ككل) ويوقع عقد بلفور باعتباره ممثلاً للحضارة الغربية (ويوقعه عن الطرف الآخر الصهاينة التوطينيون من يهود الغرب المندَمجين والصهاينة الاستيطانيين اليهود ممثلي المادة البشرية اليهودية من شرق أوربة) فتصبح الحركة الصهيونية مشروعاً استعمارياً استيطانياً إحلالياً.

ويجب ألا نخلق انطباعاً خاطئاً بأن هناك تعاقباً زمنياً صارماً، فالصهيونية ذات الديباجة المسيحية لا تزال مزدهرة برغم أن الحضارة الغربية قد تطوَّرت بطريقة همشت المسيحية ككل، كما أن صهيونية غير اليهود (العلمانية) لا تزال قائمة والصهيونية التوطينية لا تزال هي الصهيونية المنتشرة بين معظم يهود العالم (ويُطلَق عليها صهيونية الدياسبورا).

وبعد إعلان وعد بلفور، وبعد اكتساب المنظمات الصهيونية الشرعية الاستعمارية التي كانت تسعى إليها، تغيَّرت الصورة تماماً، فلم تَعُد القضية قضية بعض قيادات الفائض اليهودي من شرق أوربة، ولم تَعُد المسألة متصلة بإغاثة بضعة آلاف من اليهود، وإنما أصبحت المنظمة تابعة لأكبر قوة استعمارية على وجه الأرض آنذاك، وأصبح لها وظيفة محددة هي نَقْل المادة البشرية اليهودية إلى فلسطين لتأسيس قاعدة لهذه القوة. ولذا فلم يَعُد هناك

مجال للاختلافات الصغيرة بين دعاة الاستيطان العمليين مقابل دعاة بذل الجهود الدبلوماسية مع الدولة الراعية. كما لم يَعُد هناك أي مبرر لوجود دعاة الصهيونية الإقليمية (أي توطين اليهود خارج فلسطين)، وتساقطت بالتالي كثير من التقسيمات الفرعية أو أصبحت غير ذات موضوع، وتم تقسيم العمل على أساس جديد يقبله الجميع، وظهر ما يمكن تسميته (الصهيونية التوفيقية)، كما أن الرفض اليهودي للصهيونية فقد دعامته الأساسية: الخوف من ازدواج الولاء إذ أصبح تأييد الصهيونية أمراً لا يتناقض مع ولاء الإنسان الغربي لوطنه وحضارته.

وتاريخ الحركة الصهيونية بعد ذلك هو تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين تحت رعاية حكومة الانتداب. وقد ظهرت بعض التوترات بين القوة الاستعمارية الراعية والمستوطنين (وهو توتر يسم علاقة أية دولة راعية بالمستوطنين التابعين لها، وهو لا يعود إلى تناقض المصالح وإنما إلى اختلاف نطاقها، فمصالح الدولة الراعية أكثر اتساعاً وعالمية من مصالح المستوطنين). ولذا، فقد أصدرت الحكومة البريطانية الراعية مجموعة من الكتب البيضاء لتوضح موقفها من المستوطنين الصهاينة ومن العرب، وقد انتقل دور الدولة الراعية من إنجلترا إلى الولايات المتحدة. ولكن كل هذه العناصر لا تغيِّر بنية الفكر الصهيوني ولا اتجاه الحركة ولا تؤثر في المنظمة الصهيونية.

أما بالنسبة للمنظمة الصهيونية، فبعد صدور وعد بلفور كان ضرورياً أن يكون لها ذراعها الاستيطاني الذي يتعامل مع حقائق الموقف في فلسطين. وقد أسَّست المنظمة الصهيونية ساعدها التنفيذي المعروف باسم الوكالة اليهودية عام ١٩٢٢، إذ نص صك الانتداب البريطاني على فلسطين على الاعتراف بوكالة يهودية مناسبة لإسداء المشورة إلى سلطات الانتداب في جميع الأمور المتعلقة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

وفي عام ١٩٢٩، نجح وايزمان - رئيس المنظمة الصهيونية آنذاك - في إقناع

أعضاء المؤتمر الصهيوني السادس عشر بضرورة توسيع الوكالة اليهودية بحيث يتشكل مجلسها من عدد من أعضاء المنظمة وعدد مثله من غير أعضائها. وكان الغرض من ذلك استمالة أثرياء اليهود التوطينيين لتمويل المشروع الصهيوني دون إلزامهم بالانخراط في صفوف المنظمة، والإيحاء في الوقت نفسه بأن الوكالة تمثل جميع يهود العالم ولا تقتصر على أعضاء المنظمة.

وكان من شأن هذه الخطوة أن تعطي دفعة قوية للحركة الصهيونية وتدعم الموقف التفاوضي للمنظمة الصهيونية مع الحكومة البريطانية التي كان يقلقها تصاعد الأصوات الرافضة الصهيونية في أوساط يهود بريطانيا (وقد ظلت المنظمتان تُعرَفان بالاسم نفسه على النحو التالي: المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية حتى عام ١٩٧١ حين جرت عملية مزعومة وشكلية لإعادة التنظيم بحيث أصبحت المنظمتان منفصلتين قانونياً ولكل منهما قيادة مختلفة).

ولم يهدأ الصراع تماماً بين التوطينيين والاستيطانيين. فحتى عام ١٩٤٨، كان الصراع يدور حول من يتحكم في المنظمة؟ وحول تحديد أهداف المشروع الصهيوني. أما بعد عام ١٩٤٨، فإن مجال الصراع أصبح تعريف اليهودي (الديني والعلماني) إذ حُسمت قضية التحكم في المنظمة لصالح المستوطنين تماماً، ولم يعد الصهاينة التوطينيون يهتمون بها.

رابعاً: الاستيطان حتى عام ١٩٦٧

برغم عدم اشتراك يهود البلاد العربية في إفراز الفكر الصهيوني أو الحركة الصهيونية، وبرغم أن الصهيونية (بشقيها الشرقي والغربي) لم تتوجه إليهم بشكل خاص ولم تحاول تجنيدهم بشكل عام وواسع قبل عام ١٩٤٨، فإن إنشاء الدولة قد خلق حركيات تتخطى إرادتهم، كما أن حاجة الدولة الصهيونية إلى طاقة بشرية (بعد عزل يهود الشرق أو اختفائهم وبعد رفض يهود الغرب الهجرة) جعلها تهتم بهم وتجندهم وتفرض عليهم في نهاية الأمر (مصيراً

صهيونياً)، أي الخروج من أوطانهم، وقد استقرت أعداد كبيرة منهم في الدولة الصهيونية، وإن كان من الملحوظ أن أعداداً أكبر استقرت خارجها.

وقد ظهرت صراعات بين دعاة الديموقراطية ودعاة الشمولية، وبين دعاة المشروع الرأسمالي الحر والنهج الاشتراكي، ولكنها صراعات لا علاقة لها بالفكر الصهيوني ولا الحركة الصهيونية فهي صراعات داخلية بين المستوطنين، وإذا شارك فيها الصهاينة التوطينيون فإن مساهمتهم تظل ثانوية. وتعود هامشية هذه الصراعات إلى أن الولايات المتحدة تمول التجمُّع الصهيوني بأسره، بمن فيه من رأسماليين وإرهابيين وعقلاء واشتراكيين وقتلة. فالحقيقة الأساسية هي وظيفية الدولة الصهيونية، ولذا فإن الصراعات ذات المضمون الأيديولوجي العميق أو السياسي المسطح ليست ذات أهمية كبيرة. أما الصراع بين الإشكناز والشرقيين فهو صراع عميق ومهم ولكنه لا يؤثر في الفكر الصهيوني أو الحركة الصهيونية، فهو قضية إسرائيلية داخلية تماماً.

وشهدت هذه المرحلة تحول الفكرة الصهيونية، الاستيطانية الإحلالية، إلى واقع استيطاني إحلالي، إذ نجحت الدولة الصهيونية في طرد معظم العرب من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، واستبعاد من تبقى منهم، وحلت دولة الشتات أو الدولة الجيتو المرفوضة من السكان أصحاب الأرض الأصليين. وبعد ضم الأراضي العربية بمن عليها من سكان عام ١٩٦٧، تحولت الدولة الصهيونية من دولة استيطانية إحلالية إلى دولة استيطانية مبنية على التفرقة اللونية (الأبارتهايد)، وشهدت هذه الفترة مولد المقاومة الفلسطينية المنظمة وتصاعدها.

خامساً: أزمة الصهيونية

وهو ما سنتناوله في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

* * *

الفصل الخامس

الاستعمار الصهيوني الاستيطاني الإحلالي

بيَّنّا في الفصول السابقة أن تصور الصهيونية باعتبارها عودة اليهود المنفيين إلى أرض الأجداد ليس له مقدرة تفسيرية عالية، فهو يعجز عن تفسير كثير من العناصر في الواقع الفلسطيني والإسرائيلي (مخيمات اللاجئين - المستوطنات المسلحة - المقاومة الفلسطينية)، بل في واقع الجماعات اليهودية في العالم (عدم التجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية - إشكالية من هو اليهودي - الغالبية الساحقة من يهود العالم لا تزال موجودة خارج أرض الأجداد). ولذا لابد من أن نبحث عن تعريف يفسر تلك العناصر التي تجاهلها التعريف الصهيوني. ولكن بدلاً من أن نبدأ بالتعريف (العام) قد يكون من المفيد أن نشير إلى ما نتصوره أهم سمات الصهيونية العامة والخاصة، ثم انطلاقاً من هذا، ومن الخلفية الحضارية والفكرية التي رسمناها، ونطرح تعريفنا.

الصهيونية حركة استعمارية

والسمة الأساسية للصهيونية أنها حركة استعمارية، جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الغربي، وقد عرف الصهاينة من البداية أن أي مشروع، بما في ذلك المشروع الصهيوني، لا يمكن له أن يتحقق إلا من خلال مساندة القوى الإمبريالية. وقد أدرك هرتزل تماماً الطبيعة الاستعمارية للمشروع الصهيوني، ولذا نجده يعدد في مذكراته (بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٠٣) أسماء بعض الشخصيات الاستعمارية التي اعتقد أنه يتلاعب بها كما لو كانت قطع

الشطرنج: سيسل رودس، والرئيس تيودور روزفلت، وملك إنجلترا، وقيصر روسيا. وقد كتب هرتزل للسير سيسل رودس يدعوه إلى أن يساعد في صنع التاريخ، باشتراكه (في شيء استعماري). بعد هذا التعميم يدخل هرتزل في التفصيلات، فيخبر المفكر الاستعماري بأن هذا الشيء لا يتضمن إفريقية، وإنما يقع في آسيا، وهو لا يخص الإنجليز، وإنما يخص اليهود.

وقد توجه هرتزل إلى إنجلترا لتحقيق مشروعه الاستعماري، لأنه أدرك (كما جاء في خطاب ألقاه في لندن في عام ١٨٩٩) أن الإنجليز هم أول من اعترفوا بضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث، ولذلك فإن عَلَم بريطانيا العظمى يرفرف عبر البحار. ولذا توقع الزعيم الصهيوني أنه سيجد كثيراً من الإعجاب لرؤيته الصهيونية، لأن (الفكرة الصهيونية) التي «تعتبر فكرة استعمارية، لابد أن تلقى الفهم في إنجلترا بسهولة وبسرعة». وقد حاول هرتزل، طيلة حياته، أن يظهر الفوائد التي ستعود على الإمبراطورية البريطانية من إقامة الدولة الصهيونية؛ إذ كتب - قبل وفاته بعامين - إلى لورد روتشيلد في إنجلترا يخبره أن المشروع الصهيوني سيدعم النفوذ البريطاني في شرق البحر المتوسط عن طريق إنشاء مستعمرة كبيرة تضم أفراد شعبنا (اليهودي) وتقع عند نقطة التقاء المصالح المصرية بالمصالح الهندية/ الفارسية»

الصهيونية، إذن - كما وصفها هرتزل - (فكرة استعمارية)، مدينة للإمبريالية الغربية بفكرها وقوتها وتحولها إلى حقيقة واقعة في الشرق الأوسط، والدولة الصهيونية إن هي إلا امتداد لهذه الإمبريالية وتتسم بكل صفاتها. وقد حاول كتاب مدخل (الإمبريالية) في **الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية** أن يحل مشكلة تعريف هذا المصطلح بحصر كافة المحاولات الرامية لتعريفه. فوجد أنه عادةً ما يتم تعريف الإمبريالية عن طريق حصر أهدافها أو الوسائل التي تستخدمها أو دوافعها أو القوى الاجتماعية التي تحمل لواءها. وقد قرر كاتب المدخل أن يتبنى هذا المنهج في التعريف، وبذلك يعطي صورة مركبة

للإمبريالية على أن يتناول كل هذه العناصر وغيرها كل واحدٍ على حدة. وإن استخدمنا نموذجه التفسيري لوجدنا أن كل سمات الإمبريالية - حسب تصوره - هي أيضاً السمات العامة للصهيونية.

١ - **الأهداف الاقتصادية والسياسية**: بدأ كاتب المدخل يتحدث عن أهداف الإمبريالية، فبيَّن أن من أهداف الإمبريالية الربح الاقتصادي، وتحقيق النفوذ السياسي، وصرف الانتباه عن القلاقل الداخلية في الوطن المستعمر عن طريق شن الحروب. كما أن الهدف قد يكون أيديولوجياً، بمعنى ألاّ تكون الأيديولوجية مجرد غطاء، وإنما تكون قوة ذاتية تدفع نحو الحروب التبشيرية (لنشر الحضارة) و (لإعلان كلمة الحق)، (الحضارة) كما يراها الإمبرياليون، و(الحق) الذي يخدم مصالحهم، بطبيعة الحال. والصهيونية تشارك في كل هذه السمات، فالهدف منها قد يكون استراتيجياً بالدرجة الأولى، وهو إنشاء منطقة نفوذ توازن القوى القومية في الشرق الأوسط. والهدف السياسي يخدم المصالح الاقتصادية للإمبريالية عن طريق (تهدئة) المنطقة، وإحلال السلام فيها، حتى يستمر تدفق المواد الخام منها، ورؤوس الأموال والسلع إليها. كما أن استغلال الصهاينة للأرض الفلسطينية (وللشعب الفلسطيني، وبخاصة بعد ١٩٦٧) هو استغلال يخدم المصالح الاقتصادية الذاتية الصهيونية، وثمة دفعة أيديولوجية هائلة وراء الاستعمار الصهيوني، كما أن ثمة ركاماً هائلاً من الاعتذاريات والتبريرات الفذة (التي سنعرض لها فيما بعد). والدولة الصهيونية لا يمكنها أن تستمر في حالة سلام، لأن المجتمع الصهيوني في فلسطين مجتمع لم يكتمل بعد وهو مجتمع يضم أقليات قومية كثيرة، تتحدث أكثر من لغة، ولها تقاليدها الحضارية المختلفة، لذا فهو يصر على البقاء في حالة حرب أو صراع ساخن لصرف الانتباه عن التناقضات التي تتفاعل داخله. وادعاءات التجمع الصهيوني عن نفسه باعتباره مجتمعاً ديموقراطياً مسالماً ليس لها حد.

٢ - **الإمبريالية وموازين القوى:** من الأبعاد الهامة التي يذكرها كاتب المدخل أنه يمكن النظر إلى الإمبريالية على أنها نتيجة طبيعية لعلاقات القوى الإمبريالية بحيث تصبح هي الطريقة التي تصحح بها إحدى القوى موازين القوى لصالحها. والصهيونية لم يكن لها القوة الذاتية لتصحيح موازين القوى لصالحها، ولكنها استفادت من إعادة توزيع مناطق النفوذ بعد الحرب العالمية الأولى، كما استفادت من التوتر الذي كان قائماً بين القوتين العظميين، لذا كانت الحرب الباردة في صالحها.

٣ - **دوافع الإمبريالية:** أما بخصوص الدوافع الكامنة وراء الإمبريالية، فيقول مؤلف مدخل (الإمبريالية) إنها قد تنبع من الطموحات الخاصة أو الضغوط النفسية التي يشعر بها بعض الأشخاص ذوي النزعة القيادية مثل سير سيسل رودس. وعلى الرغم من أننا نرى أن العامل النفسي قد يكون ثانوياً بالقياس إلى عوامل أخرى، فإنه من اليسير أن نجد كثيراً من الشخصيات القيادية الصهيونية التي تعاني من مشاكل نفسية حادة، فهرتزل مات نتيجة الإصابة بمرض سري، وليو بنسكر أصيب بأزمة نفسية حادة، تبنى بعدها الحل الصهيوني للمسألة اليهودية. بل يمكن رؤية الحل الصهيوني ككل، ومحاولة الصهاينة تغيير أو «تطبيع» ما يسمى «الشخصية اليهودية» على أنه نتاج جرح نفسي عميق، وعدم رضى عن الذات، بل وكره عميق لها.

٤ - **القوى الاجتماعية المساندة للإمبريالية:** يرى مؤلف مدخل (الإمبريالية) أن هناك قوى اجتماعية تحمل لواء الفكر الإمبريالي، وقوى أخرى تقف موقف المعارضة، أو موقف عدم الاكتراث منه. وقد اختلف المفكرون فيما إذا كانت هناك طبقة بالذات مرشحة أكثر من غيرها لتبني الرؤية الإمبريالية، ربما لأنها ترى أن هذا الموقف يحل مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية والنفسية. واليهود من أعضاء البورجوازية الصغيرة المثقفة، ذات الأصول الأوربية الشرقية، كانوا بلا شك هم عصب هذه الفئة الاجتماعية

التي كانت تبحث عن حل لمشاكلها بعد أن تعثر التحديث في روسيا وأصبح من المستحيل عليها تحقيق الحراك الاجتماعي أو الاندماج؛ والاستعمار الصهيوني كان بمثابة الحل السريع لمشاكلها. ومع أن أعضاء البورجوازية الكبيرة والصغيرة من اليهود في الغرب لم يكن عندهم مسألة يهودية إلا أنهم تقبلوا هم أيضاً الحل الصهيوني الاستعماري حلاً لمشكلة يهود الشرق وحماية لمواقعها الطبقية والحضارية. ومن هنا ظهور ما نسميه (الصهيونيتان)، و(صهيونية استيطانية) (حين يحزِّم الصهيوني متاعه ويستوطن في فلسطين)، و(صهيونية توطينية) (حين يكتفي اليهودي مدعي الصهيونية بأن يدعم المستوطن الصهيوني مالياً وسياسياً ولكن لا يهاجر هو قط). والصهيونية الاستيطانية كانت دائماً شرق أوربية أم التوطينية فهي غرب أوربية وأمريكية.

٥ - **الإمبريالية والفكر القومي**: يذهب كاتب مدخل (الإمبريالية) إلى أن الإمبريالية هي امتداد للفكر القومي (المتطرف)، الذي يشوه صورة الآخرين، وينسب للذات حقوقاً مقدسة أو مطلقة. والصهيونية إما أنها قامت بتشويه صورة العربي أو أخفته تماماً عن الأنظار، حتى تصبح فلسطين هي (أرض الميعاد)، هي الأرض الخالية (أرض بلا شعب) التي تنتظر اليهود. وقد نسب الصهاينة لأنفسهم حقوقاً دينية وحضارية شتى ونسبوا إلى العرب شتى السلبيات.

٦ - **وسائل الإمبريالية**: أما بخصوص الوسائل التي تستخدمها الإمبريالية لتحقيق أهدافها، فقد ذكر مؤلف مدخل (الإمبريالية) في الموسوعة المشار إليها أن أنواع الضغط التي تستخدمها الإمبريالية لتحقيق مآربها تختلف من وسائل سلمية تماماً (مثل عمليات التبادل المالية والاقتصادية العادية) إلى وسائل أكثر عنفاً (الرشوة والتهديد والإرهاب العسكري)، ثم إلى العنف المباشر. وقد لجأ المستعمر إلى الوسائل أو الحيل القانونية؛ فالقانون الدولي يشتمل على طرق كثيرة لفرض الهيمنة والتسلط. والصهيونية لجأت لكل هذه الوسائل، فقامت

بشراء الأراضي من كبار الملاك الإقطاعيين في فلسطين ومن حكومة الانتداب، كما لجأت للتهديد والإرهاب العسكري والعنف المباشر، كما حدث في مذبحة دير ياسين. أما الوسائل القانونية، فالصهاينة هم خير من يسخِّرون القانون الدولي لصالحهم، ابتداءً من وعد بلفور إلى وضع فلسطين تحت الانتداب، ثم - أخيراً - استصدار قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين، وهو القرار الذي لم توافق عليه، حين عُرض للتصويت أول مرة، أية دولة آسيوية أو إفريقية. ولكن إن صدرت قرارات دولية ضدهم فهم (أي الصهاينة) لا يتوانون عن خرقها، وعدد قرارات هيئة الأمم الذي صدر منذ عام ١٩٤٨ ولم تنفذه إسرائيل، بما في ذلك القرار الخاص بعودة اللاجئين والذي قُبلت عضويتها في هيئة الأمم المتحدة بناء عليه، هو عدد كبير للغاية.

لكل هذا يمكن القول بأن العناصر التي حصرها مؤلف مدخل (الإمبريالية) في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية على أنها من مكونات الإمبريالية ومن سماتها الأساسية، أو مرتبطة بها، تدخل في تركيب الصهيونية بشكل أو بآخر. ولكن حيث إنه لا يوجد تطابق كامل بين الكل والجزء وبين الحركة التاريخية والعناصر التي تتجسد الحركة من خلالها، فيجب ألا نقنع بدراسة الاستعمار الصهيوني بوصفه شكلاً من أشكال الإمبريالية الغربية على وجه العموم فحسب، وإنما يجب أن ندرس أي خصوصية يتسم بها حتى نحيط بالظاهرة الصهيونية في جوانبها العامة والخاصة.

استعمار استيطاني

لعل السمة الأولى الخاصة التي تميز الاستعمار الصهيوني هي أنه استعمار استيطاني (أو سكاني). وقد أشرنا من قبل إلى أن المجتمعات الغربية، انطلاقاً من رؤيتها الإمبريالية، كانت تحاول حل مشاكلها عن طريق تصديرها إلى إفريقية وآسيا. فعلى سبيل المثال يمكن حل مشكلة تكدس السلع عن طريق السوق الهندية، ويمكن أيضاً حل مشكلة المواد الخام اللازمة للمصانع

البريطانية عن طريق تحويل مصر إلى مزرعة قطن. كما يمكن حل مشكلة الفائض البشري أو المسألة اليهودية بطريقة مماثلة، أي عن طريق تصديرها إلى الشرق (فلسطين مثلاً). وإذا كان الاستعمار التقليدي يأخذ شكل جيش يقهر الأمة المستضعفة ويحتلها ليستغل إمكاناتها الاقتصادية والبشرية لصالح البلد الأوربي الغازي، فالاستعمار الاستيطاني يأخذ شكل نقل مواطنين أوربيين من بلادهم إلى البلد الجديد ليعيشوا فيه وليتخذوه وطناً جديداً لهم، كما كان الحال مع المستوطنين الفرنسيين في الجزائر والمستوطنين البيض في روديسيا.

وكان الزعيم الصهيوني ماكس نوردو، حتى قبل اعتناقه العقيدة الصهيونية، يفكر بهذه الطريقة، فقد اقترح أن تحل أوربة مشكلة البطالة عن طريق تحويل العمال الصناعيين إلى فلاحين، «وإذا كانت أوربة تفتقر إلى المساحة اللازمة، فينبغي عليهم أن يهاجروا عبر البحار». ومما له دلالته أن الحل الاستعماري اتخذ من إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية مسرحاً لنشاطه، وأن هذا النشاط لم يمتد بتاتاً إلى أي مناطق داخل أوربة ذاتها، فلم يحدث أن استعمرت دولة أوربية دولة أوربية أخرى. كانت البلاد تتصارع وتتقاتل ثم تتم تسوية الحدود داخل إطار القوميات. وعلى الرغم من أن نمط الاستعمار التقليدي والاستيطاني مختلفان، لأنهما يتوجهان لمشكلتين مختلفتين، فهما تعبير عن الظاهرة الاستعمارية نفسها، ويخدمان مصالحها، بل ويتداخلان في كثير من الأحيان.. فجيوب الاستعمار الاستيطاني لن تستوعب الفائض الإنساني فحسب، بل يمكن استخدامها أيضاً قواعد لعمليات الاستعمار التقليدي ضد الدول المجاورة.

وسنجد الشيء نفسه ينطبق على الجيب الاستعماري الاستيطاني الصهيوني فهو كان يقوم باستيعاب الفائض البشري اليهودي الذي نبذه العالم الغربي، وفي الوقت ذاته أصبح قاعدة أساسية للإمبريالية الغربية يمكنها أن تنطلق معها للهيمنة على المنطقة. وقد حدَّدت منظمة الهاجاناه الاستراتيجية الاستيطانية

عندما أكدت (عام ١٩٤٣) أن الاستيطان ليس هدفاً في حد ذاته، وإنما هو وسيلة الاستيلاء السياسي على البلد، أي فلسطين. وقد استمرت هذه السياسة قبل وبعد عام ١٩٤٨، أي إنها العنصر الأساسي الثابت في الاستراتيجية الصهيونية. ومن ثم عرَّف بن جوريون الصهيونية «بأنها الاستيطان» وهو مُحق في ذلك تماماً. ولذا يمكن القول بأن الاستيطان هو نفسه التوسع الصهيوني، لا يوجد أيّ فاصل بينهما.

ويتسم الاستيطان الصهيوني - شأنه شأن التجارب الاستيطانية الأخرى - بأنه استيطان جماعي عسكري بسبب الهاجس الأمني (استجابةً لمقاومة السكان) ولأن جماعة المستوطنين ترفض الاندماج في المحيط الحضاري الجديد الذي انتقلت إليه. وقد تغيَّرت أهداف الاستيطان الصهيوني في الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧، وإن كان التغير لم يكن جوهرياً:

١ - تهيئة الفرصة لوجود عسكري إسرائيلي، سواء من خلال قوات الجيش الرئيسية أو عن طريق الاستعانة بمستوطنين مسلحين يتبعون هذه القوات أو باستخدام وحدات من جيش الاحتلال يتم نشرها.

٢ - أن تكون المستوطنات رأس جسر لكسب مزيد من الأرض من خلال نزع الملكية أو سُبل أخرى أكثر دهاءً مثل إزالة المزروعات واقتلاع الأشجار ورفض التصريح بإقامة مبانٍ جديدة أو إصلاح المباني القديمة.

٣ - خَلْق الحقائق الاستيطانية الجديدة في الأراضي المحتلة بحيث تصبح العودة إلى حدود عام ١٩٦٧ مستحيلة.

٤ - إيجاد القاعدة البشرية من المهاجرين اليهود من مختلف أنحاء العالم.

٥ - بعد فشل الصهاينة في إقناع الفلسطينيين (عن طريق شراء الأراضي والإرهاب) بترك الأرض بحيث تصبح أرضاً بلا شعب، قرَّر الصهاينة اللجوء إلى أسلوب الأبارتهايد التقليدي وهو تأسيس المعازل، ومن ثَمَّ أصبح من أهم أهداف المستوطنات قطع التواصل بين مناطق سكنى الفلسطينيين، بحيث

ينقطع الاستمرار بين المراكز السكانية الفلسطينية الأساسية، أي إن وظيفة المستوطنات أصبحت تحويل الضفة الغربية إلى كانتونات ممزقة مفصولة بعضها عن بعض، ولا تربطها سوى ممرات محدودة تحيط بها من كل جانب المستوطنات والثكنات العسكرية للجيش الإسرائيلي بحيث لا يستطيع الفلسطينيون التحرك بحرية داخل الأراضي المحتلة.

ولكن يجب أن نشير إلى سمة خاصة بالاستعمار الاستيطاني الصهيوني؛ وهي أنه ليس مشروعاً اقتصادياً وإنما مشروع عسكري، أسَّسه الغرب لتحقيق مكاسب استراتيجية باعتباره قاعدة عسكرية تخدم مصالحه الأمنية والاقتصادية، مما ييسر له عملية الهيمنة على المنطقة. فالمكاسب الاقتصادية التي يحققها الراعي الإمبريالي لا تأتي مباشرةً من الجيب الصهيوني وإنما من خلال استخدامه كأداة. فكأن المردود المباشر استراتيجي، والمردود غير المباشر اقتصادي. ومن هنا كم المساعدات الهائلة التي تصب فيه. لكل هذا لا يخضع هذا الجيب لمعايير الجدوى الاقتصادية، ولا بد أن يموَّل من الخارج (الخارج هو الراعي الإمبريالي بالدرجة الأولى، وإن كانت الدياسبورا اليهودية الثرية [أي الأثرياء من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم] يقومون بالمساهمة في الدعم المالي للجيب الاستيطاني. ولكن مع تزايد مصاريف الدعم تضاءلت نسبة وأهمية دعم يهود العالم).

استعمار استيطاني إحلالي

يمكننا القول بأن «استيطانية» الاستعمار الصهيوني هي **أولى** سماته الثابتة البنيوية (أي اللصيقة ببنيته وطبيعته). أما السمة **الثانية** فهي أنه استعمار إحلالي. والاستعمار الاستيطاني الإحلالي يتطلب أن تقوم الكتلة البشرية الغربية الوافدة بإبادة السكان الأصليين أو طردهم أو استعبادهم، أو خليط من كل هذه الأمور (كما حدث في أمريكا الشمالية وفي فلسطين). وتستند

عمليات الطرد والإبادة إلى مجموعة من الأفكار تشكل في جماعها ما نسميه «أسطورة الاستعمار الاستيطاني الغربي».

١ - ينطلق الاستعمار الاستيطاني بشكل عام، من الإنكار الكامل للتاريخ بشكل متطرف، وإعلان نهايته. ويزداد الإنكار حدةً وعنفاً في حالة المجتمعات الاستيطانية الإحلالية، وهذا الإنكار يأخذ شكلين: إنكار تاريخ المستوطنين في بلادهم الأصلية، وإنكار تاريخ سكان البلد التي يستوطنها أعضاء الكتلة البشرية الوافدة:

أ) نقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين من العالم الغربي هي عادةً رفض تاريخ بلادهم الأصلية، باعتباره تاريخ اضطهاد وكفر. ويحاول المهاجرون أن يضعوا (حلاً نهائياً) لمشاكلهم، وأن يبدؤوا من نقطة الصفر الفردوسية في الأرض الجديدة. وتبدأ أسطورة الاستيطان الصهيونية هي الأخرى برفض تاريخ اليهود في المنفى (وضمن ذلك العالم الغربي). والصهيونية هي الحل النهائي الذي يطرحه الصهاينة والاستيطان في صهيون هو نقطة البداية والصفر، ومع هذا لا يكفُّ الصهاينة عن الحديث عن دولتهم باعتبارها واحة الديمقراطية الغربية في الشرق وقاعدة الحضارة الغربية فيه.

ب) عادةً ما ينكر المستوطنون البيض تاريخ السكان الأصليين في الأرض التي سيهاجرون إليها ويستوطنون فيها، فهي عادة أرض عذراء بلا تاريخ، غير مأهولة بالبشر (أرض بلا شعب)، على عكس الأرض التي يأتي منها المستوطنون، فهي مكتظة بالسكان. وأسطورة الاستيطان الصهيونية تعبِّر عن هذا بشكل متبلور، إذ يزعم الصهاينة أن فلسطين هي إسرائيل أو صهيون، وأن تاريخها قد توقَّف تماماً برحيل اليهود عنها. بل إن تاريخ اليهود أنفسهم قد توقَّف هو الآخر برحيلهم عنها، ولن يُستأنف هذا التاريخ إلا بعودتهم إليها.

٢- تحاول أسطورة الاستيطان أن تهمش السكان الأصليين وتنعتهم بنعوت سلبية كثيرة، فهم قليلو العدد متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعية الكامنة في الأرض. وهم عادةً مجرد رحالة لا يستقرون في مكان واحد، فأعضاؤه جزء لا يتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومن ثَمَّ لا حقوق لهم. لكل هذا فإن وجود مثل هؤلاء الناس هو وجود عرضي ومن الضروري وضع حل جذري ونهائي للمشكلة الديموجرافية، أي مشكلة وجود السكان الأصليين في الأرض العذراء، وضرورة اجتثاث شأفتهم تماماً.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسطيني في فلسطين باعتباره أمراً عرضياً هامشياً، والاعتذاريات الصهيونية مليئة بالحديث عن فلسطين باعتبارها أرض مهجورة مهملة، وكثيراً ما يتحدث الصهاينة عن الفلسطينيين كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة بلا تاريخ. وكل هذا ينتهي بطبيعة الحال بتأكيد حق اليهود المطلق في فلسطين (ومن هنا قانون العودة) وينكرون هذا الحق على الفلسطينيين (ومن هنا مخيمات اللاجئين). وتحاول الحركة الصهيونية وضع حل نهائي للمشكلة الديموجرافية فقامت أحياناً بالإبادة (دير ياسين - كفر قاسم). ولكن الطرد كان الشكل الأساسي. وبعد اتفاقيات أوسلو أخذ الحل النهائي شكل عزل السكان الأصليين داخل مجموعة من القرى والمدن ومحاصرتهم بالقوات العسكرية الإسرائيلية والطرق الالتفافية.

وقد اقترح بن جوريون على ديجول أن يتبنى الشكل الإحلالي من الاستعمار الاستيطاني حلاً للمشكلة الجزائرية، فتقوم فرنسا بإخلاء المنطقة الساحلية من الجزائر من سكانها العرب ويوطن فيها الأوربيون وحدهم، ويقيمون فيها المستوطنات، ثم تعلن دولة مستقلة، لسكانها (حق تقرير المصير) وكان رد ديجول يتسم بالذكاء التاريخي، إذ قال: «أتريدني أن أخلق إسرائيل أخرى؟». وقد أشار كارل كاوتسكي إشارة عابرة لتلك السمة المميزة

والأساسية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني في كلاسيكيته هل يشكل اليهود جنساً؟ وتكهن بأن المستوطنين اليهود سيعانون الكثير خلال النضال العربي من أجل الاستقلال؛ «لأن استعمار اليهود لفلسطين يدل على نيتهم البقاء فيها، وأنهم لا ينوون استغلال السكان الأصليين فحسب، بل سيقومون بطردهم نهائياً».

ومن المعروف أن موقف المستوطنين البيض من السكان الأصليين يختلف من بلد إلى آخر؛ ففي أمريكا اللاتينية، كان هدف الاستعمار الاستيطاني هو استغلال الأرض وسكانها عن طريق إنشاء المزارع الكبيرة التي يقوم السكان الأصليون بزراعتها لتحقيق فائض القيمة من خلالهم. أما في الولايات المتحدة فكان المستوطنون البيوريتان يبغون الحصول على الأرض فقط، لإنشاء مجتمع جديد، فكان لا بد من طرد ثم إبادة السكان وإحلال عنصر بشري جديد محل العنصر القديم. وكانت جنوب إفريقية حتى عهد قريب من هذا النوع الإحلالي، فنجد أن المستوطنين البيض استولوا على خير أراضيها وطردوا السكان الأصليين منها. ولكن بمرور الزمن طرأت تغيرات بنيوية على الجيب الاستيطاني، وأصبح تحقيق فائض القيمة واستغلال السكان الأصليين أحد الأهداف الأساسية، ولذا نجد في جنوب إفريقية استعماراً استيطانياً يقوم الآن بتجميع السود في أماكن عمل ومدن مستقلة (بانتوستان) تقع خارج حدود المناطق والمدن البيضاء، ولكنها تقع بالقرب منها، حتى يتسنى للعمال السود (الهجرة) اليومية داخل المناطق البيضاء للعمل فيها.

والأمر بالنسبة لإسرائيل لا يختلف كثيراً عنه في جنوب إفريقية؛ إذ استهدفت الأيديولوجية الصهيونية منذ البداية تغيير الشخصية اليهودية (وتطبيعها)، أي أن تجعلها طبيعية، وتحويل الجماعات اليهودية المتفرقة في العالم إلى أمة مثل باقي الأمم وتأسيس دولة يهودية خالصة. لذا كان الصهاينة يطمعون في الحصول على أرض لا يقطنها أحد (أرض بلا شعب، لشعب بلا

أرض) على حد قول الشعار الصهيوني: حتى يتسنى لهم تنفيذ المخطط الصهيوني. ولكن مثل هذه الأرض لا توجد إلا في القمر (على حد قول حنا أرنت)، وكان يتحتم على الاستعمار الصهيوني أن يستولي على قطعة أرض ثم يفرغها من سكانها عن طريق العنف، أي إن طرد الفلسطينيين جزء عضوي من الرؤية والممارسة الصهيونية. ولا تزال هذه هي السمة الأساسية للاستعمار الصهيوني في فلسطين، إنه استعمار استيطاني إحلالي، وإحلاليته هي مصدر (صهيونيته). وإحلالية الصهيونية تتضح في موقف الدولة الصهيونية من سكان الضفة الغربية، فهي على استعداد لإعطائهم نوعاً من الاستقلال الذاتي، وعلى الرغم من أنه قسط ضعيف للغاية من الاستقلال فإنه لا يمتد بأية صورة إلى الأرض الفلسطينية، مطمع الصهاينة وهدف المخطط الصهيوني. ولكن يبدو أن الاستعمار الصهيوني بدأ يفقد شيئاً من طبيعته في جنوب إفريقية، الذي يقوم على استغلال الأرض والسكان معاً. ولكن تجب الإشارة إلى أن ثمة رفضاً عميقاً لهذا التحول بين الصهاينة؛ لأنه يعني أن الدولة اليهودية ستفقد هويتها الخالصة.

ويمكن في هذا المضمار أن نتصور الأنماط الاستعمارية المختلفة على شكل هرم، قاعدته ما يسمى «الاستعمار الجديد» أو «النظام العالمي الجديد»، وهو أقل أنواع الاستعمار وضوحاً (وإن كان أكثرها شيوعاً في الوقت الحاضر بعد سقوط الهيمنة الإمبريالية القديمة)، لأنه يلجأ إلى السيطرة الاقتصادية والسياسية عن طريق بعض أبناء البلد ذاتها، كما يمنحهم شيئاً من الاستقلال السياسي ويغويهم بحلم المشاركة في استغلال الشعوب. ويعلو هذا النمط في الدرجة الاستعمار التقليدي، حيث يمارس المستعمر الهيمنة السياسية والاقتصادية المباشرة، ويتحكم في مقادير الشعوب عن طريق الغزو العسكري المباشر والاحتفاظ بقوات عسكرية لتحمي مصالحه ضد القوى القومية المحلية، يعلو هذا النمط الأخير الاستعمار الاستيطاني، بأشكاله المختلفة:

١- الاستعمار الاستيطاني الاندماجي، الذي يبدأ فيه العنصر الدخيل، بالهيمنة على السكان الأصليين ثم الاندماج معهم بعد حين، إلى أن يمتزج الطرفان كليةً مكونين كتلة جديدة (كما هو الحال في أمريكا اللاتينية).

٢ - الاستعمار الاستيطاني المبني على التفرقة اللونية (كما هو الحال في جنوب إفريقية)، حيث يحتفظ العنصر السكاني الدخيل باستقلاله، ويلجأ إلى عزل السكان الأصليين داخل مناطق محدودة حتى يسهل استغلالهم (كما بيّنّا من قبل).

٣ - في أعلى الهرم يوجد الاستعمار الاستيطاني الإحلالي (كما هو الحال في الولايات المتحدة وفي إسرائيل) حيث يظل العنصر البشري الدخيل محتفظاً باستقلاله عن السكان الأصليين، ثم يحاول التخلص منهم عن طريق إبادتهم ونقلهم خارج الحدود، فالأبارتهايد (الانفصال اللوني الكامل) لا يحل مشكلة الاستعمار الصهيوني بمنطلقاته الأيديولوجية (وإصراره على دولة يهودية خالصة). والاستعمار الإحلالي يضمن الاستقرار العنصري والاجتماعي الداخلي للمجتمع الاستيطاني، وفي الوقت ذاته يشوه بشكل كامل البناء الاقتصادي والحضاري للسكان الأصليين الذين تم طردهم، وبذا يكون الاستعمار الصهيوني الاستيطاني/ الإحلالي أعلى مراحل الاستعمار وأكثر أشكاله شراسةً وعنفاً.

والاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني له خصوصيته التي تميزه عن التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية الأخرى، وتنبع هذه الخصوصية من عنصرين أساسيين:

١ - فشل الجيب الاستيطاني الإحلالي الصهيوني في إبادة السكان الأصليين الذي يعود للأسباب التالية:

أ) يتكون الفلسطينيون من جماعة بشرية موحدة لها تاريخ طويل وتراث مركب، وهي جماعة، في غاية التركيب والوعي، قادرة على استخدام

كل الأسلحة الممكنة بما في ذلك الإعلام، ومثل هذه الكتلة ليست سلبية، تجلس في مكانها دون حراك، بينما يقوم عدوها بذبحها ذبح الشاة.

ب) منذ نهاية القرن التاسع عشر (تاريخ الاستيطان الصهيوني) أصبح العالم أصغر في حجمه وأكثر اتصالاً بسبب وسائل المواصلات ووصول الإعلام إلى كل أرجائه. وقد تزايدت هذه العملية، مما يجعل عمليات الإبادة أمراً مستحيلاً، فهي عادةً ما تتم وراء ستار كثيف من الصمت، حتى لا يحتج أحد.

ج) توجد فلسطين في وسط العالم القديم ومن ثم يصعب إبادة سكانها.

د) يحيط الفلسطينيين دول عربية تضم جماهير متعاطفة مع الفلسطينيين وقضيتهم وتزودهم بالعون.

٢ - تزايد عدد السكان الأصليين وتصاعد كفاءتهم

نجم عن فشل الجيب الصهيوني في تصفية السكان الأصليين عدة نتائج من أهمها ما يسمَّى (المشكلة الديموجرافية، السكانية)، أي تزايد عدد الفلسطينيين بدرجة كبيرة، مما يهدد الطابع اليهودي الإحلالي لهذا الجيب، والفلسطينيون لا يتزايدون في العدد وحسب، وإنما تزداد نسبة المتعلمين بينهم، ويتحسن أداؤهم، وتتزايد مقاومتهم يوماً بعد يوم.

وقد فاقم من هذه المشكلة الديموجرافية عنصران: جفاف ينابيع المادة البشرية الاستيطانية (خاصّةً بعد الهجرة السوفييتية الأخيرة، واضعين في اعتبارنا أن يهود العالم الغربي لا يهاجرون فقط) وضم الجيب الصهيوني للضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧م اللذين يتسمان بكثافة بشرية عربية.

كل هذا أدى إلى اتضاح زيف الافتراض الصهيوني المبدئي أن فلسطين أرض بلا شعب، مما يعني أن فرض الأسطورة الجيب الصهيونية على الواقع

يحتاج إلى مزيد من العنف. ولكن العنف لا يؤدي إلى تخفيف وطأة الهاجس الأمني، فالإسرائيلي يعيش في خوف دائم من العرب، وهو محق في خوفه هذا، فقد اغتصب أرضهم وشردهم وهو يعلم أنهم لن يستسلموا، ولن يقبلوا وضعهم هذا. ولذا نجد أن كل اتفاقيات (السلام) اتفاقيات أمنية تهدف بالدرجة الأولى لتحقيق أمن إسرائيل، هذا الشيء المستحيل (وقد أخبرني أحد الأطباء النفسيين في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م أن المرضى النفسيين الإسرائيليين قد استبعدوا العرب تماماً من أحلامهم وكوابيسهم، مما يعني أن خوفهم قد بلغ من العمق أنه تم استبعاد العرب تماماً، حتى على مستوى اللاوعي).

ولا شك في أن الإسرائيليين يعرفون مصير ممالك الفرنجة كما يعرفون أن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التي قُدِّر لها البقاء (مثل أمريكا الشمالية وأستراليا) نجحت لأنها أبادت السكان الأصليين، أما تلك التي لم تنجح في ذلك (مثل الجزائر وأنجولا وجنوب إفريقية) فقد تم تصنيفها. وهو يعرف أنه لا يوجد أي سبب لأن يمثل الجيب الاستيطاني الصهيوني استثناء لهذه القاعدة التاريخية العامة.

استعمار الاستيطاني إحلالي توسعي

التوسعية الصهيونية ليست أمراً عرضياً دخيلاً على الرؤية الصهيونية وإنما هي سمة بنيوية فيها. ويمكن تفسير هذا الوضع بالإشارة إلى العناصر التالية:

١ - نبتت الصهيونية في تربة إمبريالية غربية ترى أن العالم إن هو إلا مادة يغزوها الإنسان ويوظفها لصالحه. وعملية الغزو هذه عملية تستمر إلى مالا نهاية، ذلك أن عقيدة التقدم علَّمت الإنسان الغربي أن التقدم لا نهائي وأن المادة التي سيقوم بغزوها وتوظيفها هي الأخرى لا متناهية.

٢ - طرحت الصهيونية نفسها على أنها ستقيم دولة الشعب اليهودي

بأسره، وهو ما يعني أن عملية نَقْل الكتلة البشرية الوافدة يمكن أن تستمر إلى أن يتم نقل كل يهود العالم، كما يعني الشره المستمر للأراضي.

٣ - أحد عناصر الثالوث الحلولي الصهيوني هو الأرض، بل إن بعض الاتجاهات الصهيونية تعطيه أولوية على كل العناصر الأخرى، ولكن حدود هذه الأرض غير معروفة المعالم على الإطلاق ولم يتم الاتفاق بشأنها.

٤ - الأرض هي المصدر الأساسي لتدفُّق فائض القيمة على الكيان الاستيطاني (وبخاصة قبل ١٩٤٨م)، وهي القاعدة التي سيؤسَّس عليها الجيب الاستيطاني، وكلما اتسعت هذه القاعدة كلما ازداد تدفُّق فائض القيمة وكلما ازداد الجيب الصهيوني قوة.

لكل هذا ليس من الغريب أنه بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الأول قام أحد الصحفيين بنصيحة هرتزل بأن يدرس برنامج فلسطين الكبرى قبل أن يفوت الأوان، بحيث يمكن وضع عشرة ملايين يهودي فيها. وقبل ذلك كان وليام هشلر، الصهيوني غير اليهودي، قد طلب من هرتزل، في ٢٦ أبريل ١٨٩٦م، أن يتبنَّى الشعار التالي ويروجه كشعار للدولة اليهودية: «فلسطين داود وسليمان». ويبدو أن الاقتراح قد ترك انطباعاً إيجابياً لدى الزعيم الصهيوني، ذلك أنه، بعد عامين، حدد منطقة الدولة اليهودية على أنها تمتد من نهر مصر إلى الفرات. وقد ردد الحاخام فيشمان (عضو الوكالة اليهودية) هذا الشعار في ٩ يوليه ١٩٤٧، أثناء شهادته أمام لجنة التحقيق الخاصة التابعة للأمم المتحدة، فقال: «الأرض الموعودة تمتد من نهر النيل إلى الفرات» ليس مجرد فرية عربية، وليس نتاج العقلية التآمرية وإنما هو جزء من التصور الصهيوني.

ومع هذا، ينبغي على المرء ألا يأخذ صيغة (من الفرات إلى النيل) هذه بجدية تامة، فهي لا تعدو أن تكون أحد الأحلام الصهيونية. ولكن، ومع ذلك، يجب ألا يهمل المرء أوهام العدو عن نفسه كلياً، فهي تعطينا مؤشرات عن اتجاهه وحركته. وعلى كلٍّ، فإن ما يهمنا في السياق الحالي ليس الحدود

الجغرافية أو التاريخية الوهمية للدولة الصهيونية وإنما الذهنية الصهيونية التوسعية نفسها، وقد يكون من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار الكلمات التي سجلها هرتزل في يومياته حين قال: كلما ازداد عدد المهاجرين اتسعت رقعة الأرض. والطريف أن هذا التصوُّر الصهيوني لا يختلف كثيراً عن التصوُّر التقليدي لبعض الحاخامات اليهود الذين شبهوا الأرض بجلد الإبل الذي ينكمش في حالة العطش والجوع ويتمدد بالشبع والري، فالأرض المقدَّسة تنكمش إذا هجرها ساكنوها من اليهود وتتمدد إن جاءها اليهود من كل بقاع الأرض. ويبدو أن القيادة الصهونية، منطلقة من تصورات سياسية شبيهة، آثرت عدم إعلان دستور للدولة الصهيونية حتى يُترَك المجال مفتوحاً أمام التوسع اللانهائي، ذلك لأن الدستور (الرسمي) يتطلب رسماً دقيقاً للحدود.

وقد أعلن أحد أعضاء حركة إسرائيل الكبرى معارضته قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ على أساس أنه قد يسفر عن خنق الصهيونية «وهي في ذروة اندفاعها». فالانتصارات الصهيونية هي التي أعطت دفعة قوية لحركة الهجرة من الاتحاد السوفييتي، وذلك على عكس الانسحاب من الأراضي الذي يتسبب في ضعف الصهيونية ووهنها. وأضاف: إن التوسع الصهيوني هو الذي يعطي المجتمع الإسرائيلي معنى وهدفاً.

وقد قدم عضو الكنيست السابق الصحفي أوري أفنيري قراءة ذكية لتاريخ الدولة العبرانية في الماضي، وتاريخ الدولة الصهيونية في الحاضر، فبين أن قيامهما لم يكن يستند إلى قوتهما الذاتية وإنما إلى ضعف الشعوب القاطنة في فلسطين (الكنعانيون في الماضي والعرب في الحاضر). ثم يذكر أفنيري أن ما يدفع الصهاينة ويقرر حركتهم ليس الدافع العقائدي (الآخذ في الضمور) وإنما موازين القوى وحسب. ومن ثم، فإن العقيدة الصهيونية ليست سوى مسوِّغ يتلو «خلق الحقائق الجديدة». ولذا فإنه يتنبأ بأن التوسع الصهيوني لن يتوقف ما دام هناك فراغ بسبب الغياب العربي، ويتنبأ بأن هذا التوسع سيستمر حتى

يتخطى حدود إسرائيل الكبرى نفسها إذا سنحت الفرصة، أي إن القوة الذاتية الصهيونية (لا الأوهام العقائدية) هي التي تحدِّد مدى التوسعية الصهيونية.

إن كون إسرائيل كياناً توسعياً في جوهرها يجعلها لا تعدم الذرائع والمبررات المختلفة للتوسع، بل إن هذه الذرائع تصير ضرورة لتسويغها التوسع وإضفاء نوع من الشرعية الشكلية عليه، وعندما تلوح الفرصة (المتمثلة في ميل موازين القوى بمعناها الشامل لصالحها) لتوسيع الحدود يتم اتخاذ الوسائل التي تحقق ذلك، فالفكرة الصهيونية قائمة على التوسع والاستيلاء على الأرض.

وقد قال ديفيد بن جوريون في المقدمة التي كتبها لتتصدر الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل عام ١٩٥٢ إن «دولة إسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل» وهو ما يؤكد كون التوسع الصهيوني في طليعة الأهداف التي تجاهر بها إسرائيل، حيث كانت حدود (الوضع الراهن) بعد التوقيع على اتفاقيات الهدنة تبقى في نظر بن جوريون أشبه بالحدود الانتقالية أو المؤقتة، ما دامت حدود الدولة لم تأت مطابقة لحدود الأمة المنشودة، فالخريطة التي رسمتها الصهيونية لمملكتها الموعودة ما زالت أوسع بكثير من المساحات التي تم احتلالها والاستيلاء عليها بقوة السلاح. وينتقد بن جوريون افتراض وجود حدود تاريخية وطبيعية ثابتة للدولة فالحدود تتغيَّر وفق تغيُّر الظروف والمراحل الزمنية المختلفة، ولذا لا بد من إعادة النظر في مصطلح (حدود طبيعية) فهو يرى أن الظروف الطبيعية قد تجبر الدولة على إعادة النظر مرة أخرى في تعيين حدودها الطبيعية واستبدالها بحدود جديدة كلما دعت الضرورة. ومما يجدر ذكره أن الصهيونية قد عرفت تيارات مختلفة، ولكن قيادة المشروع الصهيوني تدور في إطار نوع من الإجماع الصهيوني الذي لا يختلف بشأن مبدأ التوسع نفسه وإنما وسيلته وشكله.

ورغم أن الظروف السائدة بعد حرب ١٩٥٦ لم تسمح بترسيخ السيطرة

الصهيونية على المناطق المحتلة في غزة وسيناء، فإن حرب ١٩٦٧ - وما يترتَّب عليها من احتلال الأراضي العربية في سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة - شكلت منعطفاً بارزاً في تاريخ التوسع الصهيوني باعتبار أن الكيان الصهيوني حقَّق أقصى اتساع له ووصل إلى الحدود الآمنة.

ولأن الجيب الصهيوني مرتبط بيهود الشتات - على الأقل نظرياً، فلن يتمكن قط من تحقيق أي نوع من أنواع الاستقرار أو التحييد. بيد أنه ينبغي ألا نتصور أن إسرائيل تتوسع بسبب يهود الشتات فحسب، أو بسبب رؤيتها القومية/ الدينية، لأن التوسع الصهيوني له جوانبه الاقتصادية الواضحة، لأنه يحقق الكثير من المكاسب المادية للدولة الصهيونية، مثل ضم حقول البترول في سيناء والأراضي الفلسطينية التي تساعد العدو على التنمية الاقتصادية. وتشير الدراسات الأخيرة إلى أن اعتماد الاقتصاد الإسرائيلي على الضفة الغربية أصبح كبيراً لدرجة يصعب معها تخيله منفصلاً عن سوق الضفة الغربية وعمالتها. ولكن تلك الجوانب الاقتصادية والاستراتيجية من الاستعمار الصهيوني ليست قاصرة عليه، وإنما هي سمات يشترك فيها مع أنماط الاستعمار الأخرى، واهتمامنا في السياق الحالي ينصب على الجوانب السياسية والاقتصادية الفريدة للتوسع الصهيوني، ويهود الشتات، مفهوماً وحقيقة، شيء فريد وخاص بالاستيطان الصهيوني يميزه عما سواه.

استعمار عميل

ومن أهم سمات الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني أنه استعمار عميل تابع للاستعمار الغربي، وإدراك هذه الحقيقة هو الصفة المميزة لجميع المدارس الصهيونية، سواء أكانت عمالية أو عامة أو سياسية. فنوردو، على سبيل المثال، صرح في خطاب له في لندن في ١٦ يونيه ١٩٢٠ بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون «بلداً تحت وصاية» بريطانيا العظمى، وأن اليهود سيكونون «حراساً يقفون على طول الطريق الذي تحفه المخاطر والذي يمتد عبر

الشرقين الأدنى والمتوسط حتى حدود الهند». وقد وصف ريتشارد كروسمان، عضو البرلمان البريطاني العمالي، صديقه الحميم وايزمان بأنه كان من المؤمنين إيماناً راسخاً (بمزايا الإمبراطورية)، وأنه كان يرى أن الاستيطان اليهودي في فلسطين ضمان أكيد لسلامة إنجلترا، ولا سيما، (فيما يتعلق بقناة السويس). وقد أعلن بن جوريون في المؤتمر الصحفي الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) أن خيانة بريطانيا العظمى هي خيانة للصهيونية وتحدث في أماكن أخرى عن الجيب الصهيوني بوصفه قاعدة دفاعية للإمبراطورية في البر والبحر. وقد بينت حنا إرنت، في مقالها عن الصهيونية، الذي كتبته عام ١٩٤٥، والذي يضم عدداً من النبوءات الصادقة، أن موقف الصهيونية الممالئ للاستعمار هو أمر حتمي؛ لأن الصهيونية حين عدت نفسها (حركة قومية) باعت نفسها منذ اللحظة الأولى إلى أصحاب السلطة والنفوذ. فشعار الدولة اليهودية كان يعني - في الواقع - أن اليهود ينوون أن يتستروا بستار القومية، وأن يقدموا أنفسهم على أنهم (مجال نفوذ) لأية قوة كبرى.

وثمة موضوع آخر يتكرر بصفة منتظمة في كتابات المفكرين والزعماء الصهاينة، هو أن (يهودية) الدولة التي ستنشأ على أرض فلسطين هي الضمان الأكيد لولائها وعمالتها للقوى الاستعمارية. فقد كان نوردو - على سبيل المثال - يرى أن بريطانيا مهددة من الاتحاد السوفييتي وبسبب ظهور القومية العربية وتطلعات العرب نحو الوحدة، وبيَّن أن العامل الأخير بخاصة سيعرِّض سيطرة بريطانيا على قناة السويس للخطر، ولذا أكد نوردو أن وجود حليف موثوق به أمر يجب أن يلقى الترحيب، فالصهيونية تعرض أن تكون هذا الحليف بشرط أن تمنحها بريطانيا الفرصة لأن تكون دولة يهودية قوية في أرض الآباء.

وأكد فلاديمير جابوتنسكي أهمية فلسطين من وجهة نظر المصالح الإمبريالية البريطانية، التي عدها (حقيقة بديهية معروفة). بيد أن هذه الحقيقة تستند إلى

«شرط هام، وهو أن فلسطين يجب ألا تظل بلداً عربياً»، فمن رأيه «أن ثمة عيباً أساسياً في كل معاقل إنجلترا في البحر المتوسط» هو أنها جميعاً «آهلة بالسكان الذين لهم مراكز جذب قومية مختلفة» يتوجهون إليها «بشكل عضوي لا يمكن علاجه». فكل هؤلاء السكان - إن عاجلاً أو آجلاً - سيسعون للحصول على استقلالهم مبتعدين بذلك عن إنجلترا. وسينطبق هذا القانون على عرب فلسطين الذين سيدخلون «فلك المصير العربي؛ اتحاد الدول العربية، وإزالة كل أثر من آثار النفوذ الأوربي». وقد قارن جابوتنسكي بين هذه الصورة السلبية لفلسطين العربية - التي تنتمي إلى عالم عربي موحد - وصورة فلسطين اليهودية التي لا تنتمي إلى المنطقة والموالية بشكل دائم لبريطانيا، وقد استخدم وايزمان الحجة نفسها حين حذَّر القوى الاستعمارية الغربية من الاعتماد على «هذا الولاء العربي المشكوك في أمره». ثم قال: «إن الحركة العربية تقود المرء للاعتقاد بأنها مناهضة لأوربة.. ولذا يجب الاعتماد على اليهود لضمان وجود عنصر موالٍ (للغرب).

هذه الدولة العميلة التابعة نسميها (دولة وظيفية) وهي إعادة إنتاج لظاهرة الجماعة اليهودية في العصر الحديث على هيئة دولة. ولذا ليس من الغريب أن نجد أن هذه الدولة الوظيفية تتسم بمعظم (إن لم يكن كل) سمات الجماعة الوظيفية، فقد استورد الاستعمار الغربي سكانها من خارج المنطقة وغرسهم غرساً في العالم العربي ثم عرَّفها في ضوء وظيفتها الاستيطانية والقتالية، وهي تدين بالولاء لراعيها الإمبريالي، تدافع عن مصالحه نظير أن يدافع هو عن بقائها وأمنها ويضمن لمستوطنيها مستوى معيشياً مرتفعاً. وعلاقة الدولة الوظيفية بالإمبريالية علاقة نفعية، فالراعي الإمبريالي يدعمها ما دامت قد لعبت دورها الاستيطاني وأدت وظيفتها القتالية، وهي دولة منعزلة عن وسطها العربي، غير متجذرة في المنطقة، فهي في الشرق العربي وليست منه، منعزلة عن الزمان والمكان. وحيث إن السكان الأصليين يقاومون وجودها - كما هو متوقع منهم - تحولت إلى جيتو مسلح.

وقد أدلى الصهاينة بعدد من التصريحات تبين أنهم أدركوا الطبيعة الوظيفية للدولة الصهيونية ولسكانها الذين تم حوسلتهم تماماً لصالح الغرب، وأهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق (حتى عهد قريب هو الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية) فعائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد استراتيجي، والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال: القتال مقابل المال، أي إنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى، وفيما عدا ذلك، فإنها ديباجات اعتذارية وتفاصيل فرعية.

وهكذا تحولت الإمكانية الصهيونية إلى حقيقة تأخذ شكل دولة تستوعب الفائض البشري اليهودي الغربي فتخلص الغرب منهم وتجندهم لصالحه.

نحو تعريف أكثر تفسيرية للصهيونية

بعد أن تناولنا العناصر المكونة والخلفية التاريخية والثقافية للصهيونية (في الفصل الثاني)، وبعد أن تناولنا أهم سماتها، وبعد أن بيَّنا عجز المقدرة التفسيرية للتعريف الغربي والصهيوني للصهيونية، أعتقد أنه من حقنا أن نطرح تعريفنا لهذه الظاهرة، ولكن بدلاً من طرح تعريف (جامع مانع) في عدة كلمات نطرح ما نسميه «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» و «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة».

١ - الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة تحتوي على العناصر الأساسية المكوِّنة للصهيونية بغض النظر عن الديباجات والاعتذاريات المستخدمة والتي تشكل الأساس الكامن للإجماع الصهيوني. ويمكن تلخيص هذه الصيغة فيما يلي:

أ) ثمة عناصر داخل الحضارة الغربية (الرؤية الغربية المسيحية لليهود [بعد علمنتها] - الإمبريالية الغربية - العنصرية والنيتشوية والداروينية - المسألة اليهودية التي تعود إلى العناصر السابقة وإلى وضع اليهود

كجماعة وظيفية داخل الحضارة الغربية وإلى بعض الأسباب الخاصة باليهود مثل الانفجار السكاني بينهم وأزمة اليهودية الحاخامية.. إلخ). كل هذه العناصر أدت إلى ظهور وتبلور الفكر الصهيوني على يد بعض المفكرين غير اليهود (شافتسبري وأوليفانت وغيرهما)، ويمكن أن نشير للحل الصهيوني للمسألة اليهودية باعتباره الحل الإمبريالي لأنه في جوهره حل يهدف إلى تخليص أوربة من اليهود عن طريق تصديرهم إلى الشرق.

ب) تذهب الفكرة الصهيونية الغربية إلى أن اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع (جماعة وظيفية بلا وظيفة)، يجب نقله خارج أوربة ليتحوَّل إلى شعب عضوي نافع (وهذا هو أساس التلاقي بين الصهاينة وأعداء اليهود).

ج) يتم توسيع نطاق مفهوم الشعب العضوي المنبوذ ليسمى (الشعب اليهودي ككل) الذي يضم خليطاً غير متجانس دينياً أو عِرْقياً أو ثقافياً من المتدينين والعلمانيين، والشرقيين والغربيين، والصهاينة وغير الصهاينة.

د) يُنقل هذا الشعب إلى أي بقعة خارج أوربة (استقر الرأي، في نهاية الأمر، على فلسطين بسبب أهميتها الاستراتيجية للحضارة الغربية) ليوطّن فيها وليحل محل سكانها الأصليين، الذين لا بد أن تتم إبادتهم أو طردهم على الأقل (كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية المماثلة).

هـ) يتم توظيف هذا الشعب داخل إطار دولة ستسمى (الدولة اليهودية) (بغض النظر عن توجهها الأيديولوجي)، وهي في واقع الأمر دولة وظيفية تعمل لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعم هذه الدولة مالياً وسياسياً وعسكرياً ويضمن بقاءها واستمرارها.

وهذه الصيغة الشاملة لم يُفصح عنها أحد بشكل مباشر، إلا بعض المتطرفين في بعض لحظات الصدق النماذجية النادرة. ولكن عدم الإفصاح عنها لا يعني غيابها، فهي تشكل هيكل المشروع الصهيوني والبنية الفكرية التي أدرك الصهاينة الواقع من خلالها.

ولم تظهر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كاملةً بين يوم وليلة، وإنما ظهرت بالتدريج، وكان يُضاف لكل مرحلة عنصر جديد إلى أن اكتملت مع صدور وعد بلفور وتحوَّلت إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. والواضح أن الصيغة الصهيونية الأساسية تضرب بجذورها في الحضارة الغربية - وهنا نعرض لتاريخ تشكُّلها واكتمالها:

١- تضرب الصيغة بجذورها في موقف الحضارة الغربية من الجماعات اليهودية وفي وضعهم داخلها، وهو موقف صهيوني ومعاد لليهود في آن واحد؛ أو صهيوني لأنه معاد لليهود، فاليهود شعب مختار عضوي متماسك (شعب شاهد - جماعة وظيفية)، ووجوده في مجتمع ما ليس له أهمية في حد ذاته وإنما بمقدار ما يخدم الوظيفة الموكلة إليه. وحين يفقد الشعب وظيفته، لا بد من التخلص منه. ومن هنا، فإن نقطة الانطلاق (الشعب العضوي المنبوذ) هي الرقعة المشتركة بين معاداة اليهود والصهيونية، وهي صيغة خروجية تصفوية إذ تطالب بإخراج اليهود من أوربة وتصفيتهم، فالعنصر الأول بشقيه هو جوهر عداء اليهود وهو أيضاً المقدمة الأساسية للصهيونية.

٢- وأضيف لهذه الصيغة العنصر الثاني (الكامن تاريخياً وبنيوياً في العنصر الأول) وهو اكتشاف نفع اليهود، ومن ثم إمكانية توظيفهم خارج أوربة (وإصلاحهم). وقد اكتُشف هذا الجزء أو تم تأكيده ابتداءً من القرن السابع عشر، عصر ظهور الرؤية المعرفية الإمبريالية. ويُلاحَظ أن ما يميِّز الصهيونية عن معاداة اليهود هو هذا الجزء، فكلاهما يرى اليهود عنصراً غير نافع يوجد داخل الحضارة العربية، ولكنه لا ينتمي إليها، ولا حل للمشكلة إلا بإخراج

اليهود. وبينما يلجأ أعداء اليهود إلى إخراج اليهود بشكل عشوائي عن طريق طردهم أو إبادتهم دون تخطيط أو ترشيد فإن الصهاينة يرشِّدون العملية كلها ويرون إمكانية إخراج اليهود بشكل منهجي وتحويلهم إلى عنصر نافع. كما يُلاحَظ أن مكونات هذين العنصرين (المنبوذون - النافعون الذين يمكن توظيفهم) هي ذاتها السمات الأساسية للجماعة الوظيفية. ومن ثم، فإن اكتشاف نفع اليهود كان أمراً متوقعاً، إذ إن ذلك لصيق ببنية الجماعة الوظيفية وهو سر وجودها وبقائها، إذ إنها لا يمكن أن يكتب لها البقاء في مجتمع إلا إذا كانت (نافعة) و (تلعب دوراً ضرورياً).

٣- تظل الصيغة الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة، ولكنها تتحول إلى حركة منظمة بعد مرحلة هرتزل وبلفور ومضمونها أن يتم التوظيف من خلال دولة وظيفية على أن تشرف على العملية إحدى الدول الاستعمارية الكبرى في الغرب التي تُؤمِّن للمستوطنين موطئ قدم وتضمن بقاء واستمرار الدولة الوظيفية والاستيطانية. ومع وعد بلفور، يصبح المكان الذي ستقام فيه الدولة الوظيفية هو فلسطين وتتحول الصيغة الأساسية إلى الصيغة الشاملة.

ولنا أن نلاحظ أن المفهوم الكامن وراء الصيغة الأساسية الشاملة في الصهيونية الغربية مفهوم محوري في الحضارة الغربية، فلم يتم إدراك اليهود وحدهم من خلاله وإنما تم إدراك كل المنحرفين اجتماعياً، فمثلاً كان يتم نَقْل المساجين إلى أستراليا وتوظيفهم هناك بحيث يتحوَّلون إلى عناصر صالحة؛ أعضاء في الحضارة التي نبذتهم ونقلتهم.

والصيغة الشاملة هي الأساس الذي يستند إليه ما نسميه (العقد الصهيوني الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود الغرب)، فهذا العقد يتيح الفرصة أمام يهود الغرب لأن يحققوا من خلال الخروج من العالم الغربي ما فشلوا في تحقيقه من خلال البقاء فيه. وعلى المستوى السياسي، يمكن

القول بأن الصيغة الشاملة تعني ربط حل المسألة اليهودية (المادة البشرية المستهدفة) بالمسألة الشرقية (المجال الذي ستُنقَل فيه لتُوظَّف لصالح الحضارة الغربية).

وقد تمَّ تهويد الصيغة الشاملة من خلال مجموعة من الديباجات بحيث أصبحت «الصيغة الشاملة المُهوَّدة»، وذلك حتى يتحقق لليهود استبطانها. وقد تم تهويد هذه الصيغة فيما نسميه «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة»، وهي «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» بعد أن اكتسبت ديباجات ومسوغات يهودية جعل بإمكان المادة البشرية المستهدفة استبطانها. فالصيغة الشاملة تُعلمن اليهود تماماً وتُحَوْسلهم إلى أقصى حد، وهي أيضاً تُعلمن الهدف من نقلهم والأرض التي سينتقلون إليها. وليس من السهل على المرء قبول أن يتحول إلى وسيلة وأن يُنقَل كما لو كان شيئاً لا قيمة له إلى أرض (أي أرض). ولذا، نجد أن المقدرة التعبوية للصيغة الشاملة تكاد تكون منعدمة، إذ إنها تفترض أن ينظر اليهود إلى أنفسهم بشكل براني، وهذا أمر مستحيل بطبيعة الحال.

وقد طوَّر هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الأبواب المغلقة أمام كل الديباجات اليهودية المتناقضة والتي غطت، بسبب كثافتها، على الصيغة الأساسية الشاملة وأخفت إطارها المادي النفعي حتى حلَّت، بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب بل بالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي، محل الصيغة الأساسية الشاملة.

وقد تم إنجاز هذا بأن قامت الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية) بإسقاط ديباجات الحلولية الكمونية (التي تلغي الحدود بين الإله والأرض والشعب وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي) على الصيغة الشاملة بحيث يتحول اليهود من مادة نافعة إلى كيان إنساني له هدف وغاية ووسيلة ورسالة. وتجعل عملية نقله مسألة ذات أبعاد صوفية أو شبه صوفية نبيلة. لكل هذا أصبح من السهل

على المادة البشرية أن تستبطن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، وأصبح من السهل التحالف بين الدينيين والعلمانيين: الجميع يتفق على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته) ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها. ورغم كثافة الديباجات وإغراقها في الحلولية، تظل الثوابت كما هي، وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كما هي.

٢ - الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة

تقوم الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعلمنة اليهود تماماً وتُحوسلهم إلى أقصى حد وتجعلهم عنصراً نافعاً ومادة متحوسلة تُستخدم وتُوظف، وهي أيضاً تُعلمن الهدف من نقلهم والوسيلة التي سيُنقلون بها والأرض التي سيُنقلون إليها. وليس من السهل على المرء قبول أن يتحول إلى وسيلة وأن يُنقل كما لو كان شيئاً (لا قيمة له) من وطنه إلى أرض أخرى (أي أرض). ولذا، نجد أن المقدرة التعبوية للصيغة الشاملة تكاد تكون منعدمة، إذ إنها تفترض أن ينظر اليهود إلى أنفسهم بشكل براني، وأن يقبلوا أن يتحركوا من أوطانهم إلى أماكن أخرى لخدمة الحضارة الغربية التي تنبذهم وتناصبهم العداء، وهذا أمر مستحيل بطبيعة الحال، ولذا تم تطوير «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» لتصبح «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة».

تتفق الصيغتان الشاملة والمهوَّدة على «الفعل» الاستعماري الاستيطاني الإحلالي، أي نقل كتلة بشرية من الغرب إلى فلسطين لتحل الكتلة الوافدة محل السكان الأصليين. ولكن يغطي هذا الفعل سحابة كثيفة من الديباجات. فاليهود - حسب التصور الغربي - يشكلون مادة استيطانية استعمالية، وحسب الرؤية الغربية هم «شعب عضوي منبوذ» لابد أن يُنقل من أوطانه إلى فلسطين. وهم حسب الديباجة الغربية «شعب إسرائيل الذي لا يستقر في مكان، فهو إما في حالة خروج، أو في حالة انتظار الخروج».

تنطلق الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة من كل هذه العناصر، ولكنها تقوم بإسقاط ديباجات الحلولية الكمونية (التي تلغي الحدود بين الإله والأرض والشعب وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي) على الصيغة الشاملة بحيث يتحول اليهود من شعب عضوي منبوذ ومن مادة نافعة إلى كيان إنساني له هدف وغاية ووسيلة ورسالة، وتجعل عملية نقله مسألة ذات أبعاد صوفية أو شبه صوفية نبيلة، فالشعب العضوي المنبوذ في الديباجة الصهيونية يصبح «الشعب المقدس المشتت» والوطن الأصلي هو «المنفى» أما فلسطين فتصبح «أرض الميعاد».

ثم تتنوع الديباجات الصهيونية بتنوع التيارات الصهيونية المختلفة:

أ) الشعب العضوي المنبوذ له حقوق مطلقة في أرض فلسطين (إرتس يسرائيل) بسبب صلته العضوية المستمرة بهذه الأرض (الصهيونية الإثنية العلمانية) أو لأنها مقدسة مثل الشعب المقدس (الصهيونية الإثنية الدينية) أو لأنها الأرض الوحيدة التي يمكن أن يقف فيها الهرم الطبقي اليهودي المقلوب على قاعدته (الصهيونية العمالية). وهي الأرض الوحيدة التي تصلح للخلاص (المشيَّحاني أو الاشتراكي أو الليبرالي)، فهي (أرض الميعاد) الإثنية الدينية أو العلمانية، بل إن خلاص الشعب هو خلاص الأرض، وهو نفسه مشيئة الإله.

ب) لا يُنبَذ الشعب العضوي اليهودي بسبب أنه جماعة وظيفية فقدت دورها (كما تبين بعض الدراسات السوسيولوجية التاريخية) أو لأنه قاتل المسيح (كما تدَّعي الحضارة الغربية)، وإنما لعدد من الأسباب تتغيَّر بتغيُّر صاحب الديباجة. فالشعب اليهودي شعب مقدَّس مكروه من الأغيار في كل زمان ومكان بسبب قداسته (الصهيونية الإثنية الدينية) أو بسبب تركيبه الطبقي غير السوي (الصهيونية العمالية) أو لأن هويته الإثنية العضوية لا يمكن أن تتحقق إلا في أرضه (الصهيونية

الإثنية العلمانية[الثقافية]) أو لأنه شعب ليبرالي عادي يود أن يكون مثل كل الشعوب، خصوصاً الشعوب الغربية (الصهيونية السياسة). ومهما اختلفت الأسباب فإن هذا الشعب ينظر إلى نفسه فيرى كياناً عضوياً مطلقاً له قيمة إيجابية ذاتية (بل يجد أنه المطلق وموضع الحلول).

ج) الهدف من نقل هذا الشعب (أعضاء الجماعات اليهودية في مصطلحنا) ليس التخلص من اليهود أو تأسيس دولة وظيفية تقوم على خدمة الغرب (كما هو الحال في التصور الغربي) وإنما هو إصلاح الشخصية اليهودية وتطبيعها وتأسيس دولة اشتراكية تحقق مُثُل الاشتراكية (الصهيونية العمالية) أو الاستجابة للحلم الأزلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية وتأسيس دولة تستند إلى الشريعة اليهودية (الصهيونية الدينية) أو تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يهودية بالمعنى العلماني تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (الصهيونية الإثنية العلمانية) أو تحقيق مُثُل الحرية وتأسيس دولة ديموقراطية غربية (الصهيونية السياسية).

د) آليات الانتقال ليست الاستعمار الغربي أو العنف أو الإرهاب (كما هو معروف لكل من درس تاريخ المستوطن الصهيوني) وإنما هي «القانون الدولي العام» متمثلاً في وعد بلفور (حسب الديباجة الصهيونية السياسية) أو «تنفيذاً للوعد الإلهي والميثاق مع الإله» (حسب الديباجة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (حسب الديباجة الصهيونية التصحيحية).

ولكن مهما كانت الديباجات فالنتيجة النهائية واحدة وهي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى لاجئين. وعلى هذا، فإن عملية نقل اليهود من المنفى إلى فلسطين (سواء بسبب الوعد

الإلهي أو بسبب وعد بلفور) تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (إلى المنفى).

وقد اتجهت الصيغة المهوَّدة لقضية يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم والذين لا ينوون (لعدة أسباب خاصة بهم) الانتقال إلى أرض الميعاد الاشتراكية أو الرأسمالية أو اليهودية. فقبلت قرارهم هذا نظير تلقِّي دعمهم والتفافهم حولها على أن تلزم الحركة الصهيونية الصمت تجاه فضيحة الصهاينة الذين لا يهاجرون (أي إن الصهيونية الاستيطانية الحقيقية لزمت الصمت تجاه الصهيونية التوطينية الزائفة).

لكل هذا أصبح من السهل التحالف بين الدينيين والعلمانيين: الجميع يتفق على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته) ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها. ورغم كثافة الديباجات وإغراقها في الحلولية، تظل الثوابت كما هي، وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كما هي. والأهم من هذا تحولت الصيغة الصهيونية من صيغة برانية تعرضها الحضارة الغربية على الجماعات اليهودية إلى صيغة جوانية يستبطنها أعضاء هذه الجماعات ويدافعون عنها كما لو كانت صيغة يهودية خالصة وتحقيقاً لرؤى الأنبياء والوعد الإلهي، ولا علاقة لها بموازين القوى السياسية أو الدولية أو محاولة الهيمنة الاستعمارية على الشرق العربي.

ويُلاحَظ أن كثيراً من الأُسس التي تستند إليها الصيغة الشاملة والمهوَّدة قد اختفى بفعل التطورات التاريخية. فيهود العالم الغربي قد تناقص عددهم واندمجوا بشكل شبه كامل في مجتمعاتهم، ولم يعد هناك مجال للحديث عن (عدم نفعهم). كما أن عملية نقل اليهود ونفي العرب اكتملت معالمها إلى حدٍّ كبير، خصوصاً وأنه بعد تأسيس الدولة أصبح (نقل) اليهود عملية هجرة تتم في ظلال قانون العودة الصهيوني الإسرائيلي. وبعد استقرار الدولة الصهيونية ونجاحها في التوسع والهيمنة تراجعت الديباجات اليهودية (إلا بين المتطرفين

الدينين) وحلت محلها ديباجات برجماتية مثل «قبول الأمر الواقع» - «الموازين الدولية» - «ضم الأراضي بسبب المشكلة الأمنية (وليس الوعد الإلهي)». . إلخ. ولم يعد معظم الصهاينة يتحدثون عن الشعب المختار، وإنما عن احتياجات المستوطنين الصهاينة للمياه والأسواق العربية والعولمة وعن إنجازات إسرائيل الاقتصادية والعسكرية، وتترجم الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة نفسها في الوقت الحاضر إلى ما نسميه (الإجماع الصهيوني).

الإجماع الصهيوني وإجماع المستوطنين

(الإجماع) في عالم السياسة هو الاتفاق بين النخبة والغالبية الساحقة من الشعب بشأن عدد من المسلمات الفلسفية والأخلاقية والسياسية. و(الإجماع الصهيوني) هو اتفاق داخل الدولة الصهيونية بين «التيارات والاتجاهات والأحزاب» الصهيونية التي تضم الغالبية الساحقة من المستوطنين الصهاينة بشأن الأمن وحدود الدولة والعلاقة مع الفلسطينيين ومع يهود العالم ودول العالم، وبخاصة دول العالم الغربي وفي مقدمتها الولايات المتحدة التي ترعى الكيان الصهيوني. وقد تظهر اختلافات بشأن الوسائل والنهج، ولكنها لا تنصرف قط إلى المسلمات النهائية. والعقد الاجتماعي الذي يستند إليه التجمُّع الصهيوني هو نفسه هذا الإجماع، وهو الذي يشكل المرجعية النهائية لكل الأحزاب والتيارات الصهيونية. ولكن الإجماع الصهيوني، النابع من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة، منفصل عن الواقع التاريخي، والذي يلفظه بقوة. ولذا بعد ذكر عنصر من عناصر الإجماع الصهيوني سنذكر تلك العناصر في الواقع الصهيوني التي تقوضه وتظهر زيفه.

ويمكن تلخيص الإجماع الصهيوني فيما يلي:

١- اليهود شعب واحد، طليعته هم المستوطنون الصهاينة، وفلسطين هي أرض الميعاد أو إرتس يسرائيل (وطن اليهود القومي) وليست فلسطين، وعلى

يهود العالم أن يهاجروا إلى إرتس يسرائيل وأن يلتفوا حول دولتهم الصهيونية القومية ويقوموا بدعمها مالياً وسياسياً فهي المركز وهم الهامش. هذه الدولة يجب أن تكون دولة يهودية خالصة (دولة اليهود ودولة يهودية في آن واحد) تجسِّد الرؤى اليهودية وبإمكان اليهودي أن يحقِّق فيها ذاته وهويته. ويستند الإجماع الصهيوني إلى ما يسمى (الوضع الراهن) وهي أنه بعد إنشاء الدولة الصهيونية يتم الحفاظ على الأوضاع التي كانت سائدة في فلسطين بخصوص الشؤون الدينية في عصر الانتداب.

ولكن الدولة الصهيونية بدأت تدرك أن اليهود ليسوا شعباً واحداً (كما كان يدَّعي الصهاينة قبل ١٩٤٨) ولذا لم تَعُد تطلب من يهود العالم الغربي الهجرة إليها، ولم تَعُد تتبع الأسلوب العقائدي العدواني الذي كانت تستخدمه في الماضي معهم. ومن هنا بدلاً من الحديث عن «في الدياسبورا» يتحدث الصهاينة عن «صهيونية الدياسبورا» وعن «الصهيونية التكنولوجية» أو «الإلكترونية» التي تعني أنه لا توجد ضرورة لهجرة يهود العالم إلى إسرائيل، ومن ثم لن تقوم المؤسسة الصهيونية بتقريعهم بسبب رفضهم الاستيطان وستكتفي بأن يرسلوا بثمرات جهدهم، في عصر المعلومات، بالبريد الإلكتروني، أي إن الحركة الصهيونية قد قبلت بأمر واقع مفاده أن اليهود ليسوا شعباً واحداً وأن إسرائيل ليست وطنهم الوحيد وأن يهود المنفى لهم حق البقاء فيه، ومن هنا قبول الصهيونية التوطينية، ومحاولة توظيف يهود (المنفى) في منفاهم، أي أوطانهم. كما أن الفشل الصهيوني/ الإسرائيلي في تعريف اليهودي مشكلة أساسية تقوض الإجماع الصهيوني وتهدده. وأزمة العلمانيين والدينيين آخذة في التفاقم.

٢- وجود الفلسطينيين في وطنهم فلسطين - حسب التصوُّر الصهيوني - أمر عرضي زائل ومن ثم لا بد من التخلص منهم إما بالطرق السلمية أو الإرهابية. وانطلاقاً من كل هذا يصبح من (حق) الدولة الصهيونية أن

(تدافع) عن نفسها وعن حقوقها المطلقة بكل ضراوة من خلال (جيش الدفاع الإسرائيلي) ضد (إرهاب) السكان الأصليين، أي الفلسطينيين ممن يرفضون الإذعان للرؤية الصهيونية.

وينظر الصهاينة إلى القضية الفلسطينية باعتبارها (قضية أخلاقية) وحسب، ومن ثم يجب عدم الحديث عن (عودة) الفلسطينيين إلى ديارهم «(إعادة توطينهم» في المصطلح العربي)، وإنما يجب الحديث عن (منح تعويضات) مالية للمتضررين منهم (وهذا استمرار للعقلية التجارية القومية الصهيونية، التي ترى أن كل شيء يُباع ويُشترى بما في ذلك الأوطان). أما المتبقون فيُستوعبون في أماكن وجودهم(أي في البلدان العربية المختلفة، وبخاصة سورية ولبنان).

ومع هذا أدرك الصهاينة صعوبة التخلص من الفلسطينيين ومن وجودهم (العرضي الزائل). ولذا يحاول الصهاينة الآن قبول الأمر السكاني الواقع مع الاتجاه نحو تقليل الاحتكاك بالفلسطينيين ومحاصرتهم عبر إقامة كيان خاص بهم، لأنهم يهددون شرعية الوجود الصهيوني ذاته. ولكن الحديث عن (محاصرة السكان) هو نفسه دليل على الفشل الصهيوني في إنشاء الدولة الصهيونية الخالصة، وفي حماية المزاعم الصهيونية التي تحدتها الانتفاضة المباركة. وقد تحوَّل النظام الاستيطاني الصهيوني عن الإحلال، وأصبح نظاماً مبنياً على التفرقة العنصرية (الأبارتهايد).

٣- سياسة الأمر الواقع هي السياسة الوحيدة التي يمكن اتباعها مع العرب، فالأمر الواقع هو الذي يغيِّر الواقع [العربي] ويفرض واقعاً [صهيونياً] جديداً عليه ويمكن تحقيق السلام وبالشروط الصهيونية من خلاله.

وقد تتفاوت مفاهيم السلام بين حزب صهيوني يميني وآخر صهيوني يساري، ولكن في التحليل الأخير نجد أن مفهوم الأمن لدى الأحزاب الصهيونية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يشير إلى مضمون جوهري واحد. فالتيار العمالي يتبنَّى مقولة بن جوريون إن «العرب لا يفهمون سوى لغة القوة».

أما التيار التصحيحي فيتبنّى نظرية فلاديمير جابوتنسكي بشأن «الجدار الحديدي» وهي النظرة التي طوَّرها شارون إلى مفهوم «الجدار الفولاذي» وأكدها نتنياهو (وقد وافق باراك على هذا بطريقة ملتوية مراوغة). وقد تبدَّى هذا في كل الترتيبات العسكرية الصهيونية ابتداءً من أصغر الأسلحة شأناً حتى الردع النووي.

وقد أثبتت الانتفاضة و (الحزام الأمني) في لبنان عدم جدوى الأمر الواقع وعبثيته واستحالة فرض السلام بالشروط الصهيونية. ولذا نجد أن الإجماع الصهيوني قد اهتز بشأن غزوات إسرائيل العسكرية دفاعاً عن نفسها (والتي تفرض الأمر الواقع والسلام بالشروط الصهيونية من خلالها)، فلا يوجد إجماع بشأن حرب لبنان، ولا يكف بعض أعضاء النخبة عن الحديث عن ضرورة الانسحاب من طرف واحد (وإن ظل الإجماع الصهيوني بشأن قمع الانتفاضة، لأنها تتحدى شرعية الوجود الصهيوني ذاتها). كل هذا يعني في واقع الأمر أن الإجماع الصهيوني يهتز في حالة قيام العرب بالمقاومة.

٤- لا يمكن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل، فتفكيك المستوطنات يضرب في صميم الشرعية الصهيونية، ولا بد من الحفاظ عليها بشكل أو بآخر. ولكن، هل يجب أن تكون هذه المستوطنات متصلة، بطرق برية أم أنفاق تحت الأرض، أم تظل منفصلة؟ وهل هي مستوطنات أمنية مؤقتة (أمنية) أم دائمة (عضوية، إن صح التعبير)؟ كل هذه أمور ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها بين أعضاء حزب العمل وحزب الليكود.

ولكن مع هذا نجد أن أمراً جوهرياً مثل الاستيطان، حجر الزاوية في الإجماع الصهيوني، قد يصبح هو الآخر موضع خرف. فمع تزايد مشاعر العداء بين مستوطني عام ١٩٤٨ (وراء الخط الأخضر) ومستوطني الضفة والقطاع، بسبب حجم الإنفاق الاقتصادي والعسكري العالي الذي ليس له عائد واضح، ظهرت أصوات كثيرة تصف هذا الاستيطان بأنه (مكلف)، أو

(مترف) أو كصنبور الماء المفتوح، وطالب البعض، من منظور الصهيوني، بوقفه أو فكه أو تجميده، وبخاصة بعد أن أصبح الاستيطان (مكيف الهواء) وأصبح على الجيش حماية المستوطنين (بعد أن كانوا يشكلون طليعته العسكرية).

٥- القدس هي العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية (وليست موضوعاً للمساومة) وبإمكان الفلسطينيين أن يأخذوا مكاناً خارج القدس وليسمونه ما يشاؤون الـ Quds على سبيل المثال، وهذه (مع الأسف) ليست مجرد نكتة سياسية سخيفة وإنما حقيقة صهيونية.

ولكن العالم العربي الإسلامي بأسره يرفض مثل هذه الحلول البهلوانية، بل إن بعض العناصر الدينية المتطرفة داخل التجمع الصهيوني ترفض هذا الحل لأنَّه كما يقولون يضع الفلسطينيين على بوابات القدس، ويمكنهم أن يقفزوا منها إلى القدس ذاتها!

٦- الدولة الصهيونية تضم الضفة الغربية، وحدودها هي نهر الأردن. ويختلف العماليون فيما بينهم، كما يختلفون مع أعضاء الليكود، عما إذا كان الوجود الإسرائيلي على نهر الأردن مستمر (عضوي دائم) أم مؤقت (أمني). إذ يرى أعضاء الليكود أن حدود إسرائيل هي نهر الأردن بالفعل وأن الوجود الإسرائيلي هناك وجود دائم، أما العماليون فمستعدون (للخروج) من هذه الأرض، من الناحية النظرية على الأقل).

وكل هذه الاختلافات السابقة إن هي إلا امتداد للاختلافات التي نشأت في البداية، بين التيارات الصهيونية المختلفة.

٧- الكيان الفلسطيني الذي سينشأ بعد ذلك (في الضفة والقطاع) كيان سياسي متقوّض السيادة، منزوع السلاح من دون جيش. ويشبَّه هذا الكيان ببورتوريكو وأندورا (والأولى دولة حرة، تابعة للولايات المتحدة، لسكانها حق التصويت، دون أن يحملوا الجنسية الأمريكية، أما الثانية، فتخضع لنظام

حكم تحت سيادة فرنسا وأسقف من إسبانيا [فهي تقع بين البلدين]). أما ماذا تسمَّى هذه الدولة (هل هي «حكم ذاتي» أم «دولة فلسطينية مستقلة»؟) فهذه مسألة ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها.

٨- تنازل معظم الصهاينة عن الشعارات القديمة مثل (جمع المنفيين) و (إسرائيل الكبرى جغرافياً) (أي إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات أو على ضفتي نهر الأردن)، وبدؤوا في تبنّي شعارات مثل «إسرائيل العظمى اقتصادياً» المهيمنة على المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج، فهذا هو عصر النظام العالمي الجديد وما بعد الحداثة، وقد أثبتت الصهاينة مقدرة غير عادية على التكيف مع المعطيات الدولية، وهذه سمة أساسية للدولة الوظيفية.

٩- يذهب الإجماع الصهيوني - رغم كل ديباجات الاستقلال الصهيوني والاعتماد على الذات ورفض الجوييم - إلى أنه دون الدعم الغربي، وبخاصة الأمريكي، للمستوطن الصهيوني لن يُقدر له البقاء والاستمرار، وأن هذا المستوطن الصهيوني هو أساساً دولة وظيفية أُسست للاضطلاع بوظيفة أساسية، هي الدفاع عن المصالح الغربية، وأن الغرب قد تبنى المشروع الصهيوني وضمن له البقاء والاستمرار كي يدافع عن مصالح الغرب في المنطقة، ودون أداء هذه الوظيفة لوظيفتها، لن يكون هناك دعماً.

ولعل العنصر الوحيد الذي لم يهتز هو إدراك الصهاينة أن الدعم الأمريكي أمر حيوي وأساسي للبقاء والاستمرار الصهيونيين، أي إن كل الثوابت قد اهتزت وظهرت عليها التشققات والتغيرات إلا هذا العنصر، ومن هنا تسميتنا له «بالثابت الثابت». أما عناصر الإجماع الأخرى فقد ظهر أنها متغيرات خاضعة للتفاوض.

بل ونحن نذهب إلى أن معظم، إن لم يكن كل بنود الإجماع الصهيوني، قد تساقطت وتفككت حتى إن دارسي الكيان الصهيوني يذهبون إلى أن الصهيونية لم تعُد هي الأيديولوجية التي تهدي المستوطنين في سلوكهم، ولم تعُد هي

الإطار الذي يدركون العالم من خلاله. وهذا القول - في تصوري - صحيح إلى حدٍّ كبير، ولعل أكبر دليل على هذا هو الفتور وعدم الاكتراث تجاه المؤتمرات الصهيونية. انظر على سبيل المثال ما حدث في المؤتمر الصهيوني الثالث والثلاثين الذي عُقد في القدس في ديسمبر ١٩٩٧. وصل عيزرا وايزمان، رئيس الدولة، وبنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء، متأخرين عن موعدهما. ولم تُعِر الصحف الإسرائيلية المؤتمر اهتماماً كبيراً، ونشرت أخباره في مقابل صفحة الوفيات.

وقد أُثيرت في الآونة الأخيرة شكوك قوية - من جانب كثير من القيادات والتيارات الصهيونية - حول جدوى المؤتمرات الصهيونية ومدى فاعليتها. إذ يرى الكثيرون أن المؤتمرات تحوَّلت إلى منتديات كلامية وأصبحت عاجزة عن مواجهة المظاهر المتفاقمة للأزمة الشاملة للحركة الصهيونية ودولتها، والتي تتمثل في مشاكل النزوح والتساقط واندماج اليهود في مجتمعاتهم والزواج المُختلَط والتمايز بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، بالإضافة إلى انفضاض يهود العالم عن حركة الصهيونية مما يكرس عزلتها، ومن أبرز الدلائل على تلك الأزمة أن المؤتمرات الصهيونية المتتالية لم تفلح حتى الآن في الاتفاق على حلٍّ لمشكلة من هو اليهودي ومن هو الصهيوني؟ رغم أنها تأتي دائماً في مقدمة الموضوعات المطروحة على جدول الأعمال في المؤتمرات المختلفة. ورغم أن البعض يحاول أن يُرجع هذا العجز إلى أسباب فنية وتنظيمية، لتصل إلى جذور المشروع الصهيوني نفسه، وإلى طابع نشأته وتطوره. ولهذا، فليس من قبيل المبالغة أن يُضاف عجز المنظمة الصهيونية العالمية بهيئاتها المختلفة، ومنها المؤتمر، إلى مجمل المظاهر العامة لأزمة الحركة الصهيونية.

ولعل ظهور ما بعد الصهيونية هو تعبير عن مدى عمق أزمة الأيديولوجية الصهيونية (كلمة «بعد» في الخطاب الفلسفي الغربي أن النموذج المهيمن قد ضمر وذوى ولم يولد نموذج جديد يحل محله، أي إن ثمة أزمة على مستوى

النموذج لم يظهر لها حل بعد، ولعل الكلمة تعني أيضاً (نهاية). ومن أهم مصطلحات المابعد مصطلح (ما بعد الحداثة) الذي صيغ مصطلح (ما بعد الصهيونية) قياساً عليه).

ويصاحب ظاهرة ما بعد الصهيونية ظاهرة المؤرخين الجدد الذين جعلوا همهم تقويض الأساطير الصهيونية، ويمكن أن نضم لهؤلاء المؤرخ زئيف هروتزوج الذي بيَّن أن كثيراً من الأساطير التوراتية التي يستند إليها الصهاينة ليس لها سند تاريخي. وقد طُرح عليه السؤال التالي: «إذا كان الأمر كذلك، فماذا تفعلون هنا في شرقنا العربي؟» فأجاب: «نحن هنا لأننا هنا».

وهي عبارة بسيطة لكنها تخبئ الوضع الصهيوني الحالي، وهو أن الديباجات اليهودية هي مجرد ديباجات، وأن الجيب الاستيطاني الصهيوني قائم في إطار الاستعمار الدارويني الذي يغيِّر الواقع عن طريق العنف وقوة السلاح والدعم الغربي. وأن المستوطنين الصهاينة لا يختلفون عن أي مستوطنين آخرين، سلبوا الأرض وحاولوا سحق السكان. وأن كل حديثهم عن السلام هو حديث عن سلام في ضوء إجماع المستوطنين على البقاء بحد السلاح.

إن تعريف الصهيونية الذي نطرحه له قيمة تفسيرية عالية، فهو يفسر المسألة الفلسطينية، والحروب المستمرة بين الصهاينة والعرب والدعم الغربي المستمر للدولة الصهيونية والتفات معظم يهود العالم إلى إسرائيل ورفض معظمهم في الوقت نفسه الهجرة إليها. كما أنه يبين هذا التلاقي الذي يبدو غريباً بين الصهاينة والمعادين للسامية (اليهود). ويفسر الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية للدولة الصهيونية وديباجاتها اليهودية الفاقعة في الوقت ذاته، كما أنه يلقي الضوء على أسباب ظهور الأزمة الصهيونية.

* * *

الفصل السادس

أزمة الصهيونية

(أزمة الصهيونية) اصطلاح نستخدمه للإشارة إلى المشاكل التي تواجهها الصهيونية كعقيدة تستند إليها الدولة الصهيونية، وتدَّعي لنفسها الشرعية على أساسها، وتؤسس علاقتها بيهود العالم والعالم الغربي من خلالها.

النجاحات الصهيونية

لا يمكن أن نفكر في أن الصهيونية قد نجحت في تجنيد يهود العالم والمستوطن الصهيوني، وهذا يعود لأسباب كثيرة نورد منها ما يلي:

١- الصهيونية أيديولوجية ذات مقدرة تعبوية عالية، لأنها لجأت إلى صيغ مراوغة من الصعب كشفها إلا بعد عملية اختبار تستغرق وقتاً طويلاً. فقد ادعت الصهيونية أن اليهود شعب واحد، وهو ادعاء ليس له ما يسانده في الواقع، ومع هذا طُرح هذا الشعار، وكأنه حقيقة قائمة، وصدقه الكثيرون بما في ذلك أعضاء الجماعات اليهودية. ولكن تطور الواقع الإسرائيلي أثبت كذب هذه الادعاءات. وهو الأمر الذي يدركه الإسرائيليون تمام الإدراك. فبعد هجرة السفارد من أنحاء العالم، وبني إسرائيل من الهند، والفلاشاه من إثيوبيا أصبح من الصعب على أخذ القول بأن كل هؤلاء شعب واحد.

٢- تظهر الصيغة المراوغة للصهيونية فيما نسميه «قضية الصهيونيتين». ففي تصورنا لا توجد صهيونية واحدة وإنما توجد - كما أسلفنا - صهيونيتان:

صهيونية استيطانية وأخرى توطينية. وقد سخر دعاة الصهيونية الاستيطانية من الصهيونية التوطينية (سماها بورخوف «صهيونية الصالونات») ودائماً ما يحدث اشتباك بين الفريقين داخل المؤتمرات الصهيونية، ومع هذا عرفت الصهيونية وعرف الصهاينة أن يتعايشوا مع التناقض وأن يتقبلوا الصهيونيتين. ولكن مؤخراً كفَّ الصهاينة عن المطالبة بـ «نفي الدياسبورا» أي تصفيتها، كما كانوا يفعلون في الماضي، كما كفّوا عن المطالبة بـ «غزو الجماعات» أي توظيفها لصالح المستوطن الصهيوني. وأصبح الحديث الآن عن «الدياسبورا الإلكترونية» و «الصهيونية التقنية» و «الصهيونية الاقتصادية» (ويهودية «دفتر الشيكات») أي أن يساهم أعضاء الجماعات اليهودية بأموالهم ومعرفتهم ونفوذهم في دعم المستوطن الصهيوني، دون أن يستوطنوا فيه بالضرورة.

٣- الأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية حديثة بمعنى الكلمة، داروينية حتى النخاع. لا تؤمن إلا بقيم الصراع والبقاء المادي للأقوى. وهي بالتالي أيديولوجية ذات جاذبية خاصة تلاقي هوى عند إنسان أوربة الحديث، دارويني المنزع والاتجاه. ومع هذا، ورغم داروينيتها الواضحة نجحت الصهيونية في أن تخبئ هذا الجوهر المادي الحديث من خلال ديباجات دينية قوية ذات طابع رومانسي جذاب. وأخيراً اكتشف مؤسسو الحركة الصهيونية قضية في غاية البساطة جعلت نجاحهم محتوماً وهي الإمبريالية الغربية. فكل من كان لديه مشروع يرغب في تحقيقه ما كان عليه إلا أن يتبنى الحل السحري وهو الحل الإمبريالي. فالإمبراطورية الغربية كانت هي القوة العظمى التي كانت تقتسم العالم وتصدر له كل المشاكل الغربية وكل فواتير التقدم الغربية. وقد اكتشف هرتزل عبث المحاولات الصهيونية السابقة عليه، الرامية إلى تأسيس الوطن القومي اليهودي من خلال «الجهود اليهودية الذاتية» ولذا بدلاً من التوجه لروتشيلد، المليونير اليهودي، توجه مباشرةً إلى الاستعمار الإنجليزي. وقد نجح الصهاينة في نهاية الأمر في تأسيس دولتهم الصهيونية.

واحتلال الأرض الفلسطينية بالقوة، وطرد أعداد كبيرة من الفلسطينيين من ديارهم، ووضع الباقين منهم تحت قبضته الإدارية والعسكرية الحديدية. كما نجح المشروع الصهيوني في نقل كتلة بشرية ضخمة استوطنت في هذه البقعة، وأسست بنية تحتية زراعية صناعية عسكرية، وانتصرت في عدة حروب ضد جيوش الدول العربية. ويحصل المشروع الصهيوني على الدعم غير المشروط من التشكيل الحضاري والسياسي الغربي، خاصةً من الولايات المتحدة، التي تقف في الوقت الحاضر على رأس هذا التشكيل.

ولكن رغم كل هذه الإنجازات المهمة، التي لا يمكن التهوين من شأنها، يرى كثير من المثقفين الإسرائيليين أن نجاح الدولة الصهيونية ليس نجاحاً خالصاً، بل إنهم يشككون في أنه أصلاً نجاح. فقد قال المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون (بعد انتصار ١٩٦٧ الذي لم يحل مشكلة إسرائيل الأساسية): إنَّ هذا إنْ هو إلا عقم الانتصار. أما المثقف الإسرائيلي شلومو رايخ فقد وصف وضع إسرائيل بأنها تركض من نصر إلى نصر حتى تصل إلى هزيمتها النهائية المحتومة. ويردد أصحاب المشروع الصهيوني أنفسهم أن مشروعهم يواجه أزمة حقيقية، حتى أن عبارة «أزمة الصهيونية» أصبحت مُصطلحاً أساسياً في الخطاب السياسي، ولا تخلو صحيفة إسرائيلية من عبارات مثل «صهيونية من دون روح صهيونية» و «انحسار الصهيونية».

والآن بعد أن تعاملنا مع أهم جوانب أزمة التجمع الاستيطاني الصهيوني لابد أن نطرح السؤال التالي: هل هذا يعني أن هذا التجمع سينهار من الداخل من تلقاء نفسه بسبب أزمته وتناقضاته الداخلية الحادة، كما يمنِّي البعض نفسه؟ الإجابة عن هذا ستكون بالنفي القاطع للأسباب التالية:

١- مقومات حياة التجمع الصهيونية لا تنبع من داخله، وإنما من خارجه، فهو مدعوم مالياً وعسكرياً وسياسياً من الولايات المتحدة، والعالم الغربي، والجماعات اليهودية فيه، ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!

٢- يتسم المجتمع الإسرائيلي بالشفافية، وبالتالي حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدي لها أو التكيف معها.

٣- توجد مؤسسات ديموقراطية وعلمية، يمكن لكل قطاعات السكان في التجمع الصهيوني أن يقدموا الحلول من خلالها.

٤- ثبت أن كثيراً من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، ما دامت لا يتحداها أحد من الخارج. وأعتقد أن الحاسوب (الكمبيوتر) يساهم في هذه العملية، إذ يمكن للإنسان المأزوم والمتفسخ بشرياً أن يستمر في العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التي تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذاً جنسياً أو تعاطى الخمور والمخدرات في الليلة السابقة.

إن القضاء على الجيب الاستيطاني الصهيوني العنصري لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومي المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تآكُل في التجمُّع الصهيوني هي عوامل يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس قوة ضخمة لا تُقهر، لكنها في حد ذاتها لا يمكنها أن تودي به أو أن تؤدي إلى انهياره.

وتُناقَش الأزمة الصهيونية بشكل شبه مستمر في المؤتمرات الصهيونية الواحد تلو الآخر. ونحن نذهب إلى أن أسباب هذه الأزمة بنيوية، أي لصيقة ببنية الاستيطان الصهيوني نفسه. ولذا بدأت الأزمة مع بداية هذا الاستيطان عام ١٨٨٢، ولم يحلها إنشاء الدولة بل زادها تفاقماً، وإن ظلت في حالة كمون إلى أن تبدَّلت بشكل واضح عام ١٩٦٧، وزادت حدتها مع حرب الاستنزاف وحرب ١٩٧٣، ووصلت إلى لحظة حرجة مع هزيمة الدولة الصهيونية في لبنان ثم اندلاع الانتفاضة.

وعناصر الأزمة كثيرة من أهمها: قضية الهوية اليهودية (من هو اليهودي؟) وتطبيع الشخصية اليهودية، وهوية الدولة اليهودية، والأزمة السكانية والاستيطانية، وتحجر الثقافة السياسية الصهيونية، وتصاعد معدلات العولمة والأمركة في المستوطن الصهيوني.

وعناصر الأزمة الصهيونية متشابكة. . (كما سيتضح لنا أثناء التعرض لجوانبها كلٌ على حدة)، فمشكلة الهوية والصراع بين الدينيين والعلمانيين مرتبطة بالأزمة السكانية (الديموجرافية)، وكلاهما مرتبط بأزمة الهجرة الاستيطانية وبقضية تطبيع الشخصية اليهودية، كما أن أزمة صهاينة الداخل مرتبطة من بعض النواحي بأزمة صهاينة (ويهود) الخارج، وتتبلور العناصر في قضية اليهود الشرقيين (من السفارد واليهود العرب ويهود البلاد الإسلامية)، ورغم علمنا بهذا التشابك، إلا أننا فصلنا العناصر بعضها عن بعض كضرورة تحليلية.

وكل القضايا السابقة تشكل تحدياً للصهيونية وتقوض شرعيتها أمام يهود العالم ويهود المستوطن الصهيوني والدول الغربية الراعية للمشروع الصهيوني (وهذه هي الشرعية الصهيونية مقابل شرعية الوجود، أي شرعية النظام الاستيطاني أمام السكان الأصليين، أي الفلسطينيين).

وقد أدَّت الأزمة إلى انفراط العقد الاجتماعي الصهيوني أو على الأقل تآكله. فقد كان هناك اتفاق على بعض المقولات الأساسية، مثل أن اليهود شعب واحد (يضم الدينيين واللا دينيين والإشكناز والسفارد وغيرهم)، وهو شعب يطمح للعودة إلى أرضه للاستيطان فيها، وأن الصهيونية ستنهي حالة المنفى وستقوم بتطبيع اليهود. لقد فشلت الصهيونية في كل هذا، فاليهودي (هذا المكوِّن الأساسي لهذا الشعب اليهودي) لم يعرَّف بطريقة سكانية استيطانية. ولهذا، لم يَعُد هناك اتفاق على المكونات الأساسية للصهيونية وأهدافها المبدئية، فالرؤية ليس لها ما يساندها في الواقع، والواقع صلب لا يود أن يخضع للرؤية.

وقد ترجم هذا التآكل نفسه إلى عدم اكتراث بالمشروع الصهيوني الذي ترجم نفسه بدوره إلى عدم الإيمان بالقيم الصهيونية (الريادية) المبنية على التقشف وتأجيل الإشباع. وبدلاً من ذلك، ظهر السعار الاستهلاكي والنزوع

نحو الأمركة والعولمة والخصخصة، وهي حالة لا تصيب الصهاينة وحدهم، وإنما تصيب أيّ مجتمع يفتقر إلى الاتجاه ولا يحل مشكلة المعنى. ولكن رغم كل هذا التآكل يظل هناك إجماع صهيوني لم يتآكل وهو رفض الاعتراف بالفلسطينيين في هذه الأرض التي تم اغتصابها.

الأزمة الصهيونية وبنية الأيديولوجية الصهيونية

تعود الأزمة الصهيونية إلى عدة أسباب بنيوية تنصرف إلى صميم المشروع الصهيوني الاستيطاني الإحلالي. قد ذكرنا من قبل بعض سمات الأيديولوجية الصهيونية التي ساعدت على نجاحها، ولكن ثمة سمات أخرى ساعدت على تفاقم أزمة الصهيونية نذكر منها ما يلي:

١- ثمة مسافة بين أقوال أي إنسان وأفعاله، فالقول الإنساني بطبيعته لا يتفق تماماً ولا يتطابق مع الفعل الإنساني. ولكن في حالة القول الصهيوني نجد أن المسافة التي تفصله عن الواقع شاسعة حتى يصبح القول كله (أحياناً) ديباجة لا علاقة لها بأي واقع، فهي تهدف أولاً وأخيراً إلى التبرير والتسويغ. ويعود هذا إلى أن الصهيونية لم تنبع من واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وإنما هي صيغة أساسية توصلت لها الحضارة الغربية في عصر نهضتها وبداية تجربتها الاستعمارية الاستيطانية للتعامل مع الجماعات اليهودية، ففرضتها عليها ثم تبنَّتها هذه الجماعات، أي إن حالة التبعية أو الذيلية الصهيونية للعالم الغربي ليست مسألة تنصرف إلى أمور السياسة والاقتصاد، وإنما إلى بنية الأيديولوجية نفسها وأصولها الحضارية والفكرية.

٢- قامت الحضارة الغربية بنقل بعض أعضاء هذه الجماعات ككتلة بشرية مستقلة تُوطَّن في وسط العالم العربي عن طريق القوة العسكرية، فهي صيغة لا علاقة لها بالواقع العربي الذي زُرعت فيه.

٣- لكل هذا نجد أن الفكر الصهيوني فكر اختزالي يتجاهل معطيات الواقع

سواء كان الأمر يتعلق بواقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم أم واقع الفلسطينيين العرب. وتتضح هذه الاختزالية في إنكار التاريخ والتفكير في وضع نهاية له: تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية والتاريخ العربي في فلسطين، كما يتضح في إنكار الجغرافيا. ففلسطين تصبح إسرائيل، وهي بلد لا حدود لها، إذ إن حدودها توجد داخل مفهوم إرتس يسرائيل الديني.

٤- لكل هذا نجد أن العقيدة الصهيونية أيديولوجية فاشية، نسق عضوي مغلق يخلع القداسة على الأرض (أرض الميعاد) والشعب (الشعب المختار) وينكر الآخر (الصراع مع الأغيار والعقلية الجيتوية). ومثل هذه الأيديولوجيات تُكسب حاملها قوة ومناعة وصلابة، ولكنها في الوقت نفسه تتسم بالجمود والانغلاق. ومن ثَمَّ فكثير من التناقضات الكامنة داخل الأيديولوجية أو في واقعها حينما تتبدى في الواقع، فهي تظهر بشكل عنيف إن لم يكن فجائياً.

وقد حدثت داخل الدولة الصهيونية وخارجها تطورات عميقة من أهمها ظهور النظام العالمي الجديد، وتصاعُد معدلات العلمنة بين يهود العالم، وتبنِّي المعسكر العربي خطاباً برجماتياً، بل انكماش المطالب العربية. ويستمر التجمُّع الصهيوني ونخبته الحاكمة في استخدام الخطاب الصهيوني القديم نفسه، ويدركون العالم من خلال المقولات القديمة للثقافة السياسية الصهيونية. وهو وضع يهدد بتصعيد الأزمة.

٥- تستند الأيديولوجية الصهيونية إلى فكرة الهوية وإلى تعريف عضوي ضيق لهما، ولذا فإن أية تحديات لهذه الفكرة تسبب شرخاً عميقاً في المجتمع.

٦- ثمة تناقضات عديدة داخل القول الصهيوني نفسه، فالتناقض ليس بين القول والفعل وحسب، وإنما بين قول صهيوني وآخر، فدعاة القول الصهيوني لم يتفقوا فيما بينهم على الحد الأدنى فيما يتصل بكثير من القضايا النظرية الأساسية (حدود الدولة - الهوية اليهودية - موقفهم من يهود العالم) وإنما

اتفقوا على الحد الأدنى من الفعل وحسب (نقل بعض يهود العالم إلى فلسطين وتوظيفهم داخل إطار الدولة الوظيفية).

كل هذه السمات البنيوية في الأيديولوجية ساهمت في تفاقم الأزمة، إلا أن السبب الأساسي لها يظل أنه حين وُضعت هذه العقيدة الصهيونية موضع التنفيذ أفرزت الكثير من المشاكل بعضها خاص بالمستوطن الصهيوني ويهود العالم، والبعض الآخر خاص بالفلسطينيين (فيما نسميه «المسألة الفلسطينية»). وحسب تصوُّرنا لا يوجد حل داخل إطار الأمر الواقع الصهيوني لأيٍّ من هذه المشاكل. وقد تفرز الصهيونية حلولاً يمينية صلبة (الصهيونية الحلولية العضوية) أو يسارية سائلة (صهيونية عصر ما بعد الحداثة)، ولكنها حلول لا تتوجَّه إلى جذور المشكلة.

وأزمة الصهيونية متشابكة تتداخل فيها أسباب مع الأخرى، وكذلك الأسباب والنتائج والأيديولوجية والواقع. ومع هذا لضرورات تحليلية سنقسِّم أوجه هذه الأزمة (في إطار الشرعية الصهيونية) إلى أربعة أقسام نتناول كل قسم منها على حدة.

١- أزمة الهوية.

٢- الصراع الديني العلماني.

٣- الأزمة السكانية الاستيطانية (وأزمة الخدمة العسكرية).

٤- تفكُّك الأيديولوجية الصهيونية من خلال تصاعُد النزعات الاستهلاكية (والعلمنة والأمركة والعولمة والخصخصة).

ولكن أهم التحديات التي تواجهها الصهيونية، وأهم أسباب أزمتها هو المسألة الفلسطينية.

أزمة الهوية اليهودية

١- من هو اليهودي؟

لعل أولى الخطوات التي تتخذها أية حركة بعث قومي أو حركة تحرُّر وطني هي تحديد الـ (نحن) ومنْ (هم)، ومَنْ يقع داخل نطاق الهوية ومنْ يقع خارجها. وهذه الخطوة ليست أكاديمية أو حماسية أو مجرد ديباجة تبريرية وإنما هي من صميم الفعل السياسي، إذ إنها خطوة ضرورية لصياغة المشروع، بجميع جوانبه الحضارية والسياسية والاقتصادية، وللتعريف بمن سيتم تجنيده ومن سيتم استبعاده، وتحديد الصديق والعدو، وحدود الدولة، وهويتها، ومن يحق له الهجرة إليها وهكذا.

وقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها حركة تحرير الشعب اليهودي ومرادفة للقومية اليهودية، وبدأت من القول بأن اليهود شعب واحد يندرج داخله كل أعضاء الجماعات اليهودية، وأن ثمة تاريخاً يهودياً واحداً يدورون جميعهم في إطاره. وانطلاقاً من هذا تقرَّر أن تؤسَّس الدولة اليهودية.

وقد نشب الصراع حول هذه الهوية اليهودية القومية الوهمية منذ البداية بين دعاة الإثنية الدينية (الصهيونية الدينية) ودعاة الإثنية العلمانية (الصهيونية الثقافية)، وكان مركز الصراع مصدر يهودية اليهودي (الخالص المقدَّس) هل هو التطور التاريخي والتراث اليهودي والانتماء العِرْقي، أم الاختيار الإلهي والتاريخ اليهودي المقدَّس؟ كما نشب صراع بين يهود الشرق والغرب وطُرح سؤال: هل اليهودي هو اليهودي الإشكنازي الأبيض وحده، أم أن مقولة اليهودي تشمل يهود العالم كافة متضمنة بذلك السفارد والفلاشاه؟ وأرجئ حسم الخلاف، واتفق الجميع على الإشارة مؤقتاً لكل الجماعات اليهودية بكل تنوُّعها الحضاري وانعدام تجانسها العرْقي على أنهم «اليهود» أو «الشعب اليهودي» بشكل عام مطلق مع التزام الصمت تجاه رقعة الخلاف. وقد ظلت

حالة اللا حرب واللا سلم الهلامية سائدة حتى إقامة الدولة حين أُصدر قانون العودة الذي يعطي لأيِّ يهودي الحق في الاستيطان في فلسطين استناداً إلى «يهوديته» التي لم يتم تعريفها! وبذا تم وضع قضية الهوية (بل قضايا أخرى مثل «الشخصية اليهودية» و «وحدة الشعب اليهودي») على المحك.

وقد يقول قائل: إن هذه الإشكالية هي من (مخلفات الماضي)، وإنها من الأمور الشكلية غير العملية التي لا تمس الجوهر، ولن تؤثر في سلوك المستوطن الصهيوني من قريب أو بعيد. ولكن مثل هذا القول سيكون من قبيل تطبيع النسق السياسي الصهيوني، أي النظر إليه كما لو كان نسقاً سياسياً طبيعياً وليس كياناً استيطانياً إحلالياً له ظروفه الخاصة التي تحدد طبيعته الخاصة، فتعريف اليهودي مسألة أساسية للعقد الاجتماعي الصهيوني للأسباب التالية:

أ) إذا كان تعريف المسيحي في الولايات المتحدة مسألة شكلية، فإن هذا يعود إلى أن حكومة الولايات المتحدة لا تبحث عن شرعية مسيحية. ذلك أن مصادر شرعيتها تقع خارج نطاق الديانة المسيحية، بل ربما خارج التراث المسيحي ككل. أما الدولة الصهيونية فهي تدَّعي أنها يهودية وأنها تجسد قيماً (إثنية دينية أو علمانية) يهودية، وأنها استمرار للدولة اليهودية القديمة (ولذا يطلق الصهاينة على إسرائيل اصطلاح «الهيكل الثالث»). وانطلاقاً من هذا، تطلب الصهيونية من اليهود الالتفاف حولها ودعمها، وباسم هذه الهوية اليهودية المزعومة تقوم أيضاً بضم الأراضي. لكن الفشل في تعريف اليهودي يضعف مقدراتها التعبوية ويضرب أسطورة الشرعية في الصميم.

ب) تدَّعي الدولة الصهيونية أنها دولة كل اليهود في أنحاء العالم. ومن المعروف أن المؤسسة الدينية في إسرائيل تصر على أن التهويد يجب أن يتم على يد حاخام أرثوذكسي، وهذا يعني في واقع الأمر استبعاد أكثر

من ٨٠٪ من يهود العالم الذين يعرِّفون اليهودي على أسس لادينية أو لا يقبلون اليهودية الأرثوذكسية. فأغلبية يهود الاتحاد السوفييتي قد تحولوا إلى يهود إثنيين، أو يهود غير يهود، والمهاجرون منهم حينما يصلون إلى إسرائيل يواجهون الكثير من المتاعب بسبب إصرار المؤسسة الأرثوذكسية على تعريفها. كما أن كثيراً منهم طرف في زيجات مُختلَطة (أي من غير اليهود)، وبالتالي لا تعترف المؤسسة الأرثوذكسية بأولادهم يهوداً. أما يهود الولايات المتحدة، فإن أعداداً كبيرة منهم من الإصلاحيين والمحافظين الذين لا يعترف الأرثوذكس بيهوديتهم.

ج) في أيامها الأولى، عرَّفت الصهيونية اليهودي على أنه اليهودي الأبيض (أي الإشكناز). وهي في هذا، كانت متسقة تماماً مع نفسها، فقد كانت تقدِّم نفسها على أنها تجربة تتم داخل إطار التشكيل الاستعماري الغربي. ولكن، نظراً لملابسات الاستيطان نفسها ونظراً لطبيعة التكوين الإثني للمهاجرين، فقد تم إخفاء هذا التعريف، الذي يعادل بين اليهودي والإشكنازي، عن الأنظار، ولكن إخفاءه عن الأنظار (أي اللجوء إلى الحل المراوغ) لا يحل المشكلة، إذ إن القضية تثار بدرجات متفاوتة في الحدة. فالرؤية الكامنة التي توجِّه الدولة الصهيونية لا تزال أولاً وأخيراً رؤية إشكنازية تحاول القضاء على الأشكال الحضارية الشرقية التي أحضرها اليهود الشرقيون معهم (من السفارد واليهود العرب ويهود البلاد الإسلامية). وقد أدَّى وصول الفلاشاه إلى طرح القضية مرة أخرى، إذ لم تعترف دار الحاخامية بيهوديتهم وطلبت منهم أن يتهودوا، كما أن لونهم الأسود قد أثار العنصرية البيضاء القديمة بين الإشكناز.

د) ومما يزيد المسألة اليهودية تعقيداً، ظهور هوية إسرائيلية جديدة بين

جيل الصابرا من الإشكناز تتسم بسمات عديدة من بينها احتقار عميق ليهود العالم (وعقلية المنفى) وعدم الاكتراث بالقيم التي يُقال لها (يهودية) في القول الصهيوني. ومن هنا، كان وصف عالم الاجتماع الفرنسي جورج فريدمان للصابرا بأنهم «أغيار يتحدثون العبرية»، ويجد البعض صعوبة بالغة في تصنيف هوية هؤلاء على أنها (يهودية). هذا وتشهد الدولة الصهيونية تصاعداً حادّاً في مستويات التهويد والعلمنة الأمر الذي يعمق من حدة التناقضات.

كل هذه العناصر والتوترات والتناقضات، تجعل من العسير على اليهود أنفسهم تصديق مقولة الشعب اليهودي الذي يتجاوز الأزمنة والأمكنة ويتسم بجوهر عضوي يهودي أزلي، تلك المقولة التي تنطلق منها الأيديولوجيا الصهيونية. فالفعل أثبت أنه لا يوجد جوهر واحد أو وحدة عضوية وإنما سمات عديدة متنوعة بتنوع التشكيلات الحضارية والتاريخية التي عاش فيها اليهود.

إن قضية تعريف اليهودي، إذن، ليست قضية دينية أو سياسية، وإنما هي قضية مصيرية تنصرف إلى رؤية العالم والذات والأساس الذي يستند إليه تضامُن المجتمع ومصدر الشرعية فيه.

٢ - اليهود الشرقيون

أسس الإشكناز الجيب الصهيوني من خلال خلايا زراعية عسكرية متناثرة على أرض فلسطين، ثم قامت بالاستيلاء عليها وطَرْد سكانها حينما سنحت الفرصة وأعلنت قيام الدولة الصهيونية - ولكن الدولة شيء والمجتمع شيء آخر. وحتى يتم تأسيس مجتمع متكامل، كان لا بد أن يضم مادة بشرية جديدة لشغل قاعدة الهرم الإنتاجي، ليصبحوا عمالاً وفلاحين يقومون بالأعمال الإنتاجية - ومن هنا كان تهجير اليهود العرب بالوعد أحياناً (اليمن) وبالوعيد

أحياناً أخرى (العراق). وقد نجح الصهاينة في إنجاز هذا الجزء من مخططهم، إلى حدٍّ بعيد، بسبب عمالة بعض الحكومات العربية وجهل بعضها الآخر.

وقد كانت الأمور مستقرة وهادئة داخل الكيان الصهيوني حتى عام ١٩٦٧. وكان الهرم المقلوب قد وقف على قاعدته من خلال يهود البلاد العربية، وتربَّع على قمته يهود البلاد الغربية الذين كانوا يديرون الأمور ويستخدمون اليهود السفارد والشرقيين كعمالة رخيصة وأداة لضمان دوران دولاب العمل، وجعل هؤلاء يهللون بأن الهرم اليهودي تم تطبيعه مع أن قاعدته كانت سفاردية وشرقية وقمته إشكنازية غربية.

ولكن، مع دخول العمالة العربية بعد عام ١٩٦٧، ومع تزايد الثروات التي صبت في التجمع الصهيوني، حقق اليهود الشرقيون شيئاً من الحراك الاجتماعي، وتركوا قاعدة الهرم الإنتاجي والأعمال الوضيعة للعمال العرب، بل تحولوا إلى مقاولي أنفار (فهم يجيدون التعامل مع المادة البشرية العربية بسبب خلفيتهم الثقافية المشتركة، وبالتالي فقد تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة). وقد زادت بسبب هذا طفيلية وهامشية القطاع اليهودي في الاقتصاد الإسرائيلي. وقد بدأ الشرقيون يطالبون بالمساواة مع الإشكناز. ولكن المفارقة الكبرى تكمن في أنه كلما ازدادت مساواة الشرقيين بالغربيين ازدادت أزمة المجتمع الصهيوني تفاقماً، إذ إن العنصر اليهودي (بشقيه الغربي والشرقي) سيزداد صعوداً إلى قمة الهرم وانعزالاً عن قاعدته الإنتاجية الأمر الذي يزيد حضور العرب فيها.

ويحاول الإشكناز تحاشي هذا الموقف عن طريق استيعاب الشرقيين دون دمجهم في المجتمع. فالاستيعاب لا ينطوي على صهر الجماعات المختلفة بل يعني إمكانية السيطرة والتحكم لدرجة قد تصل إلى الهيمنة. وهذا يعني أن الشرقيين سيصبحون يهوداً بالمعنى العام للكلمة دون أن يصبحوا إشكنازاً، أي إنهم سيحلون الأزمة السكانية للتجمع الصهيوني (كيهود) دون أن يهددوا مواقع

الإشكناز المتميِّزة. ويتم إنجاز ذلك عن طريق طرح إطار مرجعي ثقافي غربي يشعر الشرقيون داخله بدونيتهم بشكل دائم، فالشرقي حينما يحكم على نفسه بمقاييس حضارية إشكنازية سيجد نفسه ناقصاً (وهذا تكتيك استعماري معروف يشكل جوهر التبعية). كما أن الإحساس بالدونية تجاه الإشكناز يترجم نفسه إلى إحساس بالفوقية تجاه العرب وإلى كره عميق نحوهم يجعل الشرقيين حريصين على خلق مسافة واسعة بينهم وبين العرب (وهذه إحدى السمات الأساسية لسلوك الطبقات التي توجد في الوسط). وقد أدَّى ذلك إلى تهميش الشرقيين سياسياً وقطع جسورهم مع العرب. فالشرقيون ليؤكدوا ولاءهم للدولة، وحتى لا تنصرف إليهم شبهة الخيانة، يأخذون موقفاً متشدِّداً من العرب (وهم بذلك حمائم تحاول أن تكون صقوراً). ولكن، بسبب موقفهم المتشدِّد هذا، يؤكد أعضاء المؤسسة الإشكنازية أن الشرقيين غير صالحين للتفاوض مع العرب (أي إنهم صقور لا تَصلُح أن تكون حمائم).

إن عملية التهميش السياسي والثقافي للشرقيين تشبه من بعض الوجوه عملية تغييب العربي وتهميشه في علاقته بالأرض، وفي الواقع فإن هذه العملية ساندتها بنية القوة المتحيزة للإشكناز الذين احتفظوا بكل مؤسسات صنع القرار في أيديهم (الوزارة والكنيست والوظائف الإدارية والسياسية العليا. وبالدرجة الأولى المناصب القيادية في الجيش). ويُلاحَظ أثر هذا الوضع في حدود الحراك الاجتماعي الذي يحققه الشرقيون، فقد زادت نسبتهم في جميع مراحل التعليم ما عدا مرحلة التعليم العالي، ونجدهم في الجيش في جميع مستوياته. ولكن نسبتهم تقل عند قمة الهرم العسكري، فلا يوجد سوى ٣٪ من الشرقيين بين القيادات. وقد يشغل أحدهم منصب رئيس الدولة، أما منصب رئيس الوزراء صاحب القوة الفعلية فهو من نصيب الإشكناز. وهم قد يوجدون في الموشافيم ولكن لا يُسمَح لهم بدخول الكيبوتسات، أي المؤسسة التي تفرخ القيادات السياسية والعسكرية، إلا بنسبة صغيرة.

والفجوة بين الإشكناز والشرقيين ليست فجوة طبقية اجتماعية بالمعنى المألوف، وإنما هي أيضاً تعبير عن الطبيعة الإحلالية للمجتمع الصهيوني الاستيطاني باعتباره مجتمعاً مبنياً على اغتصاب الأرض وطرد سكانها، واستيراد عنصر بشري يهودي شرقي فقير، عليه أن يبقى كذلك حتى يظل عند قاعدة الهرم الإنتاجي.

ولذا، يمكن القول بأن أزمة اليهود الشرقيين هي، عن حق، بؤرة أزمات المجتمع الصهيوني، فهي تعبِّر عن أزمة الهوية، والأزمة السكانية الاستيطانية، وأزمة الإنتاجية والتطبيع، أي أزمة الأيديولوجيا الصهيونية (الاستيطانية). فإن قنع الشرقيون بموقعهم عند قاعدة الهرم، وتقبلوا الصيغة المراوغة التي تجعلهم يهوداً وطليعة قتالية للشعب اليهودي دون أن يكونوا إشكنازاً ودون أن يشاركوا في صنع القرار بما يتناسب مع عددهم، وزادوا معدلات استهلاكهم دون أن يتحركوا إلى قمة الهرم، فإن أزمة الصهيونية كانت قابلة للحل، وكان من الممكن أن يُقال حينذاك: إن هذا شعب يهودي واحد، منتج بطبيعته، له مؤسساته الديموقراطية مثل كل الأمم، ولأمكن الاستمرار في القتل والقتال والاستيطان بالمادة البشرية اليهودية الشرقية تُوجِّهها المادة البشرية اليهودية الغربية، وبذا تستمر الإمبريالية في الدعم والتمويل. ولكن إذا صاح الشرقيون، وبددوا الصمت ملؤوا الفراغات، وطالبوا بأن يتحول القول إلى فعل وقالوا: إن كنا شعباً واحداً حقاً، فلِمَ لا نشارك في صنع القرار بما يتفق مع نسبتنا العددية، ولِمَ لا نصعد نحن أيضاً إلى قمة الهرم، إن صاحوا بذلك فيكون في صياحهم هذا تهديد حقيقي للأوهام الصهيونية.

٣ - هوية الدولة اليهودية

تفجرت قضية الهوية اليهودية على مستوى الدولة التي يُقال لها يهودية. فنشبت معركة بين الدينيين واللادينيين، فاللادينيون يودون أن يروا إسرائيل دولة علمانية بمعنى الكلمة لا تلتزم بأية قيم دينية أو أخلاقية يمارس فيها كل

فرد حريته كاملة بحيث تتحوَّل شعائر الدين اليهودي إلى مجرد شكل لطيف من أشكال الفلكلور والموروث القومي، وبالتالي فهي ليست ملزمة.

أما الصهاينة الدينيون فيذهبون إلى أن الدولة اليهودية لابد أن تتبع القيم الإثنية الدينية فتقيم شعائر الدين اليهودي وتمنع الإباحية وتغلغل الممارسات العلمانية (مثل البغاء والصور الفاضحة وأكل لحم الخنزير الذي يستهلكه الإسرائيليون بشراهة). ولهذا السبب احتدم الصراع. ويتساءل اليهود المتدينون داخل وخارج إسرائيل كيف يمكن أن تُسمَّى الدولة الصهيونية، التي تُعَد من أكثر الدول إباحية في العالم، دولة يهودية؟ وقام العلمانيون من جانبهم بمحاولة تأكيد أن الدولة الصهيونية دولة علمانية ويهودية في الوقت نفسه، وقاموا بحرق أحد المعابد اليهودية وإلقاء رأس خنزير في معبد آخر (وهذه وقائع مرتبطة في وجدان أعضاء الجماعات اليهودية بالنازية ومعاداة اليهود).

ولكن إلى جانب هذا الانقسام الأساسي حول الدولة اليهودية هناك انقسامات أخرى فرعية. فاليهود الإثنيون المتمسكون بإثنيتهم، وبخاصة المقيمون في الخارج، يقولون: كيف يمكن أن نسمِّي الدولة الصهيونية، التي تتزايد فيها معدلات الأمركة والعولمة، دولة يهودية. أما اليهود ذوي الاتجاهات الثورية واليسارية فيقولون: هل يمكن أن نسمي دولة تقوم بالتجسس لحساب الولايات المتحدة وتزويد النظم الفاشية في أمريكا اللاتينية بالأسلحة وكانت تتعاون مع نظام الأبارتهايد في جنوب إفريقية دولة يهودية؟

وكما أن عودة السياسة الإثنية تعبير عن الأزمة نفسها فقد شهدت الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة عودة السياسة الإثنية، إذ ظهرت عدة أحزاب ذات أساس إثني وليس عقائدياً (شاس - جيشر) وهي ظاهرة اتسمت بها الحياة السياسية في إسرائيل في السنين الأولى بعد إعلان الدولة، وعودتها بهذه الحدة مرة أخرى بعد حوالي نصف قرن يدل على عمق التناقضات وبنيويتها وعلى الفشل في تعريف اليهودي.

٤ - «الشعب اليهودي» في الخارج

كانت الصهيونية ترى أنها ستؤسس دولة يهودية تكون بمنزلة المركز ليهود العالم، وكان من المفروض أن تهاجر أغلبيتهم إليها، أما من تبقَّى منهم فواجبه دعم الدولة الصهيونية مادياً وسياسياً نظير أن تحافظ على هويته اليهودية وتحفظها من الانصهار والذوبان. ولكن ما حدث كان أبعد ما يكون عما هو مُتوقع، إذ لم يهرع الشعب اليهودي إلى وطنه الجديد، وآثر البقاء خارج حدود أرضه ووطنه المزعوم دون أن يحرك ساكناً، منفياً بإرادته متمتعاً بمنفاه. أو لعل أعضاء هذا الشعب، إذا ما نفضنا غبار القول الصهيوني، ليسوا أعضاء فيه وإنما هم بشر عاديون يعيشون في أوطانهم الفعلية ينتمون إليها ولا يفكرون في الهجرة، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى ذلك. وحتى حينما يفكرون في ترك أوطانهم، فإنهم (كبشر) يدرسون البدائل والفرص، وتتجه أغلبيتهم نحو الولايات المتحدة، وهو ما يدل على أنهم أبناء عصرهم، وأن حساباتهم دقيقة وسليمة، فمن ذا الذي يطيب له أن يترك الأمن والمستوى المعيشي المرتفع في الولايات المتحدة ليستوطن حيث شظف العيش؟

بل لقد ثبت أن الدولة الصهيونية ساعدت على تسارُع معدلات الاندماج بينهم، إذ إن يهودية هؤلاء «الإثنية» عبَّرت عن نفسها لا من خلال أسلوب حياة يهودية متكاملة وإنما من خلال دعم إسرائيل وحسب، كما ظهر أن الدولة الصهيونية تسبب لهم الكثير من الحرج حينما تتصرف في إطار المقولات الصهيونية الجامدة وتفصح عن وجهها الإرهابي، وبخاصة على شاشات التلفزيون وأمام جيرانهم الليبراليين العلمانيين. هذا فضلاً عن أن الدولة اليهودية لم تنجح في أن تنتج فكراً دينياً يهودياً، فمعظم المفكرين الدينيين اليهود لا يزالون نتاج الدياسبورا. لكل هذا يحاول أعضاء الجماعات اليهودية في العالم حل مشاكلهم (ومن ذلك مشكلة المعنى) داخل إطار مجتمعاتهم (انظر: «موقف الجماعات اليهودية من الصهيونية»).

إن مقولة (اليهودي) التي تشكل حجر الأساس في المشروع الصهيوني تفككت أثناء الممارسة الصهيونية في أرض فلسطين المحتلة.

الصراع الديني العلماني

يعبر الصراع الديني العلماني عن نفسه في اهتزاز أحد أسس العقد الاجتماعي التي يستند إليها التجمُّع الصهيوني وهو ما يسمَّى بـ (الوضع الراهن) وهي عبارة تُستخدَم للإشارة للأمر الواقع الديني بين المستوطنين الصهاينة إبَّان حكم الانتداب. فعلى سبيل المثال، تتوقف المواصلات العامة يوم السبت، ولكن يمكن استخدام السيارات الخاصة أو التاكسيات، وتُغلَق الشوارع في الأحياء التي تقطنها أغلبية متدينة وتُترَك مفتوحة في الأحياء الأخرى. أما أمور الزواج والطلاق فيسيطر عليها المتدينون (وهو استمرار لنظام الملة العثماني والذي أبقت عليه سلطات الانتداب). وقد تم الاعتراف بالتعليم الديني المستقل، وهو ما يعني أن الدولة عليها أن تموله (وقد أصبح فيما بعد هو العمود الفقري لتطور التطرف الصهيوني، ذي الديباجات الدينية). ولا تُعرض أفلام سينمائية ابتداءً من يوم الجمعة مساءً، وإن كان يُصرَّح بلعب كرة القدم يوم السبت (على أن تباع التذاكر في اليوم السابق). وقد أرسل بن جوريون عام ١٩٤٧ (باعتباره رئيس الوكالة اليهودية) خطاباً إلى زعماء أجودات إسرائيل وعد فيه بالحفاظ على الوضع الراهن، وقد تم أيضاً إعفاء طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية.

والعقد الاجتماعي الصهيوني يستند إلى قبول (الوضع الراهن) باعتباره الإطار المرجعي لكل العناصر التي تقبل المشروع الصهيوني. والتفاهم العملي يمكن أن ينصرف إلى التفاصيل والفروع، ولكنه غير قادر على حلّ المشاكل المبدئية، ولذا فالعقد الاجتماعي الذي يستند إليه المجتمع الصهيوني عقد واه جداً مهدد بالتمزق دائماً وفي أية لحظة. وقد أشرنا إلى أن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة تفترض أن اليهود شعب عضوي منبوذ ونافع يمكن توظيفه

خارج أوربة لصالحها داخل إطار الدولة الوظيفية. وقد وُلدت الصهيونية على يد صهاينة غير يهود لا يكترثون باليهود وينظرون إليهم من الخارج باعتبارهم مادة استيطانية. ثم انضم إليهم صهاينة يهود غير يهود يشاركونهم عدم الاكتراث هذا. ثم ظهر دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين هوَّدوا الصيغة عن طريق إدخال مصطلحات الحلولية اليهودية العضوية على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، ونادوا بالقومية اليهودية. لكن القومية، بالنسبة إليهم، تستند في نهاية الأمر إلى قراءة صهيونية لما يسمونه (التاريخ اليهودي) تثبت وجود شعب يهودي متميِّز مستقل. ولا تُعدُّ كُتب القومية اليهودية قومية مقدَّسة، ولكنها مختلفة عن الدين اليهودي ومستقلة عنه، بل معادية له أحياناً. ثم كان هناك الجيب الصغير من الصهاينة الإثنيين الدينيين، وقد افترض هؤلاء منذ البداية أن الدين هو القومية وأن القومية هي الدين.

وقد تعايش التياران جنباً إلى جنب: التيار الحلولي الديني (القومية كدين والدين كقومية)، والتيار الحلولي العلماني (القومية كدين)، وتقبلا سياسة الوضع الراهن، وكان من الممكن أن يستمر التياران في التعايش إلى مالا نهاية، فالخطاب الصهيوني المراوغ كان كفيلاً بذلك. ولكن قبول الوضع الراهن كان مجرد تفاهم عملي، ولم يكن مبدئياً بأيِّ شكل من الأشكال تتحكم فيه توازنات القوى بين الفريقين الديني والعلماني واللاديني.

وقد ظل الوضع الراهن قائماً لمدة سنوات طويلة، ودخلت الأحزاب الدينية كل الائتلافات الوزارية التي حكمت إسرائيل، وقنعت بدور التابع الذي يقنع بقطعة من الكعكة، ولكن مع تزايد علمنة المجتمع الصهيوني وعلمنة يهود العالم وتصاعد الخطاب الديني وزيادة عدد الصهاينة من دعاة الديباجات الدينية وظهور مشكلة إجراءات التهود زادت حدة الاستقطاب في المجتمع الصهيوني بين الدينيين والعلمانيين.

ومن الأمثلة على ذلك الموقف من طلبة المعاهد الدينية، فعند إعلان

الدولة، وحين تم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، كان عددهم لا يتجاوز ٤٠٠، ولكن عام ١٩٩٧ كان عددهم يزيد عن ٢٩,٠٠٠، وهذه الألوف لا تعمل، فهم طلبة وحسب، أي إن نسبة كبيرة من المستوطنين أصحاب الديباجات الدينية يعيشون على نفقة دافع الضرائب الإسرائيلي. ولذا أشار لهم أحد كبار العلمانيين في إسرائيل بأنهم (طفيليون)، وهي كلمة لها مدلول خاص في المعجم الإسرائيلي، إذ كان يستخدمها أعداء اليهود للإشارة لهم. وقد قال شيمون بيريز حين هُزم في الانتخابات: «لقد هزم اليهود الإسرائيليين»، كما لو كان هناك فريقان متصارعان في إسرائيل: «يهود متدينون» ضد «إسرائيليين علمانيين»، والفريق الأخير ليس «يهودياً».

واحتكار المؤسسة الدينية لعمليات الزواج والدفن يثير حفيظة العلمانيين. فالمهاجرون اليهود السوفييت (وعدد كبير منهم «غير يهود» حسب التعريف الأرثوذكسي) لا يمكنهم أن يتزوجوا في إسرائيل أو يدفنوا حسب الشريعة اليهودية فيها، وقد أُخرج جثمان أحدهم بعد خمسة أعوام من دفنه حين شكت المؤسسة الحاخامية في يهوديته. كما أن أحد المستوطنين من أصل سوفييتي لقي حتفه بعد إحدى الهجمات الاستشهادية الفلسطينية ولم يتم دفنه في مقبرة يهودية.

كل هذا أدى إلى أن حوالي نصف الإسرائيليين يرى أن الموقف المتأزم من العلمانيين والمتدينين سيؤدي إلى نشوب حرب أهلية، وقد قال الحاخام حاييم ميلر: إن الحل هو الفصل بين الفريقين منعاً للاشتباك بينهما.

وقد أدى الاستقطاب الديني العلماني إلى ظهور (الأصولية اليهودية) وهي عبارة في الخطاب السياسي العربي والغربي تستخدم للإشارة إلى شكل من أشكال التطرف الديني عادةً «الأرثوذكسي» (وتُترجم كلمة «أصولي» أحياناً إلى كلمة «متزمّت» أو «متشدِّد» أو «متطرِّف» مما يعني ترادف كل هذه المصطلحات مع لفظ «أرثوذكسي». وهذا خلل ناجم عن تطبيق مصطلح ديني، تم افتراضه من نسق ديني ما ثم تطبيقه على نسق آخر).

ويرى مستخدمو هذا المصطلح أن هذه الأصولية تعود إلى الحاخام أبراهام كوك (الذي كان يشغل منصب الحاخام الإشكنازي في فلسطين) وأنها مستمرة حتى هذه الأيام (على يد ابنه الحاخام تسفي كوك وغيره)، بل إنها آخذة في التنامي. فقد بلغ عدد أعضاء الكنيست «الأصوليين» أي ممثلي الأحزاب الدينية (المفدال وديجيل هاتوراه وشاس) ٢٣ عضواً (مقابل ١٦ عضواً في الكنيست السابق) من مجموع ١٢٠ عضواً. وتُعد هذه أكبر نسبة في تاريخ إسرائيل السياسي.

وهذا التيار الديني أصبح بمقدوره التحكم في رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومات، ولا يمكن تشكيل أية حكومة دون مشاركته (رغم أن أعضاء هذا التيار غير معنيين بالسياسة بالمعنى الضيق للكلمة فهم يهتمون بميزانيتهم بالدرجة الأولى) وهم يستأثرون بوزارات المستقبل (التعليم - الإسكان - الأراضي - المهاجرون - الأديان) ويتحكمون في وزارة حيوية مثل وزارة التعليم، ويقال: إنهم أصبح لهم نفوذ كبير داخل الجيش. فهناك حاخامية عسكرية تتولى مهمة التوجيه الفكري والديني داخل القوات المسلحة، وهي تباشر كل شؤون الأحوال الشخصية المتعلقة بالعسكريين، وتشرف على المدارس العسكرية الدينية، وتخرج أجيالاً مسكونة بالكراهية المطلقة للعرب، كما تتولى الحاخامية إصدار الفتاوى التي تضفي القداسة على الممارسات والجرائم التي يرتكبها الجنود ضد العرب. وقد أوصل هذا التغلغل داخل الجيش عدداً غير قليل من الضباط الأرثوذكس إلى مراتب عليا.

وفي استطلاع أجرته صحيفة **يديعوت أحرونوت** قال ٤٧٪ من الإسرائيليين: إنهم يتوقعون حدوث حرب أهلية بين المتدينين والعلمانيين اليهود (وقد تكون هذه مبالغة، ولكنها «مبالغة دالة» إن صح التعبير). ودعاة الأصولية اليهودية يقفون الآن بمنتهى الحزم والشراسة ضد أي انسحاب من الضفة والجولان ومع استيطان وطرد العرب، وهم مستعدون للذهاب في

سبيل الدفاع عن موقفهم هذا إلى أبعد مدى. ولا تنسَ أنهم يعتبرون باروخ جولدشتاين منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمي قديساً ومثلاً أعلى يجب الاحتذاء به.

والأطروحات الأساسية لهذه «الأصولية» - حسب تصور من يستخدمون هذا المصطلح - كما يلي:

١ - إنشاء دولة إسرائيل هو تجسيد للحلم التوراتي اليهودي القديم، ورغم أن الحركة الصهيونية نفسها، المؤسسة للكيان الصهيوني، لم تكن حركة دينية، وإنما كانت أيديولوجية سياسية علمانية، ورغم أن الآباء المؤسسين (الحرس القديم) مثل بن جوريون وإيجال آلون، كانوا ملحدين في حياتهم، علمانيين في طرق تفكيرهم. ويسمي كوك هذه الظاهرة (وعد ديني يتحقق على يد علمانيين) «الانشطارية». ولذا بينما يرفض الأصوليون هذا الطابع العلماني للدولة، فإنهم يقبلون بفكرة الدولة اليهودية نفسها (على عكس ناطوري كارتا التي ترفض فكرة الدولة من أساسها).

٢ - لا يمكن الثقة في الأغيار، بأي شكل، وأرض إسرائيل الكبرى هي أرض يهودية، ولا بد للدولة اليهودية أن تعتمد على نفسها وحسب (رغم كل المساعدات الخارجية التي تصب فيها)، ولذا لا يفهم أعضاء هذا اليمين الديني الموازنات الدولية حق الفهم. وهم يتصورون أنه لا يمكن عقد سلام مع العرب، بل يجب طردهم أو تهجيرهم. ولذا نجد أن الأغلبية الساحقة لهؤلاء المستوطنين من أصحاب الديباجات الدينية يقفون ضد أي تنازل عن (الأرض اليهودية).

وهذه المقولات ليست بالضرورة مقولات دينية ويمكن لأي حزب علماني أن يتبناها. وبالفعل نجد أن اليمين (المؤيد لنتنياهو) يضم في صفوفه متدينين قوميين وعلمانيين. فهو يضم (كما أسلفنا) أحزاباً دينية مثل حزب المفدال وشاس وديجيل هاتوراه، ولكنه يضم أيضاً أحزاب موليدت إسرائيل بعالياه وتسوميت، وحزب إسرائيل بعالياه هو حزب الصهاينة المرتزقة، أي

المهاجرين السوفييت الراغبين في تحسين مستواهم المعيشي، أما حزب تسوميت، فهو حزب صهيوني لاديني، ولا يمكن الحديث عن نتنياهو أو عن جيله بأسره، باعتباره متديناً.

الأزمة السكانية الاستيطانية (وأزمة الخدمة العسكرية)

كان من الممكن أن يتجاوز الكيان الصهيوني كل مظاهر أزمة الهوية ويستوعبها، أو على الأقل كان يمكنه أن يتجاهلها، كما كان يفعل في الماضي، ما دامت المادة البشرية الاستيطانية متوافرة: ففيم تهم قضية الهوية أو التطبيع لو أن الوقود البشري لا يكف عن التدفق نحو آلة الحرب والاستيطان الصهيوني لخلقَ حقائق جديدة، وأمر واقع جديد؟ ولكن الأمر ليس كذلك، فثمة أزمة سكانية عميقة تجعل من المشروع الصهيوني أكذوبة عقيمة دخلت طريقاً مسدوداً.

ولفهم هذا الجانب من أزمة الصهيونية الاستيطانية، علينا أن نغيِّر المنظور قليلاً ونتحدث لا عن المُستوطن الصهيوني وحسب، وإنما عن الجماعات اليهودية في الغرب، وخصوصاً في الولايات المتحدة. فالحركة الصهيونية، منذ ظهورها في أواخر القرن الماضي، تعاني أزمة سكانية تتهددها في الصميم، ذلك أن المشروع الصهيوني مشروع استعماري وعد بتقديم المادة البشرية المطلوبة للاستيطان والقتال، ولكن هناك تطورات قد حدثت منذ عام ١٨٨٢ حتى الوقت الحالي هي:

١ - استؤنف التحديث المتعثر المتوقف في شرق أوربة بعد عام ١٩١٧ (عام توقيع وعد بلفور)، الأمر الذي فصل الكتلة البشرية اليهودية في روسيا عن المشروع الصهيوني، إذ إن المجتمع السوفييتي الجديد الذي حرَّم معاداة اليهود أتاح أمامهم فرص الحراك الاجتماعي، وقد كان هناك مفكرون يهود كثيرون تنبؤوا بذلك وراهنوا عليه، وانخرطت أعداد كبيرة من الجماهير اليهودية (اليديشية) في صفوف الأحزاب الثورية الاشتراكية في روسيا وغيرها.

٢ - اختفت أعداد كبيرة من الكتلة البشرية اليهودية في بولندا وغيرها من دول أوربة من خلال الإبادة النازية ليهود أوربة وغيرهم من الجماعات الإثنية والدينية، أو من خلال عناصر أخرى (مثل التنصير والتخفي).

٣ - ظهر أن الولايات المتحدة تشكل نقطة جذب بالنسبة للمهاجرين اليهود من أوربة ومن كل أنحاء العالم، وقد بدا هذا الاتجاه في التبلور مع تعثُّر التحديث وتوقُّفه في شرق أوربة. ومن المعروف أن الآلاف القليلة التي اتجهت إلى فلسطين للاستيطان فعلت ذلك، لأن أبواب الولايات المتحدة كانت موصدة دونها. ولكن، بعد أن فُتحت الأبواب منذ الستينيات، تتجه الهجرة اليهودية قدماً نحو المنفى البابلي الجديد اللذيذ.

٤ - يُلاحَظ التناقص المستمر في أعداد أعضاء الأقليات اليهودية في العالم (خارج إسرائيل) فيما يُسمَّى ظاهرة «موت الشعب اليهودي» بسبب الاندماج والزواج المُختلَط والعزوف عن الزواج والإنجاب وانخفاض الخصوبة.

٥ - لم يهاجر أعضاء الجماعات اليهودية إلى الدولة الصهيونية بأعداد غفيرة كما كان متوقعاً منهم، فهم صهاينة توطينيون، يتحدثون عن الصهيونية بحماس، ولكنهم لا يهاجرون.

٦ - أفرغت الهجرة اليهودية السوفييتية الأخيرة المصادر المتبقية للمادة البشرية الاستيطانية في شرق أوربة (المصدر الأساسي للمستوطنين).

٧ - ومما يزيد المشكلة السكانية حدة، بالنسبة للكيان الصهيوني، ظاهرة النزوح. إذ يُلاحَظ أن أعداد النازحين آخذة في التزايد في الآونة الأخيرة. وقد بلغ عددهم ما يزيد على ٧٠٠ ألف (أو أكثر حسب الإحصاءات غير الرسمية)، وقد أصبح قرار النزوح مقبولاً اجتماعياً، ويظهر على التليفزيون الإسرائيلي بعض النازحين ليتحدثوا عن قصص نجاحهم في الولايات المتحدة، كما تظهر في الصحف الإسرائيلية إعلانات عن إسرائيليين يودون بيع شققهم استعداداً للهجرة، وهذه أمور كانت في الماضي تتم سراً. كما يُلاحَظ أن

نوعية النازحين نفسها قد تغيَّرت، فمعدل النازحين من بين أعضاء الكيبوتسات التابعين لأكبر حركتين (الحركة الكيبوتسية الموحَّدة، والكيبوتس القُطري) في فئة العمر ٢٥ - ٤٥ هو ٦٪ في المتوسط، وهذا المعدل يساوي معدل النزوح هذه الأجيال في المجتمع الإسرائيلي، وقد نزحت العناصر العسكرية عن المُستوطَن الصهيوني بأعداد كبيرة آخذة في التزايد.

والأزمة السكانية تثير قضية الهوية اليهودية ولكنها تثير أيضاً قضية الاستيطان وبشكل مباشر. فالصهاينة يصرحون كل يوم بعزمهم على إنشاء المستوطنات، ولكن المستوطنات في الضفة الغربية قائمة وتزداد عدداً وحجماً، ولكن عدد المستوطنين فيها لم يزد بعد مرور ما يزيد عن ثلاثين عاماً عن ١٢٠ - ١٤٠ ألف (وهو عدد أقل من الزيادة الطبيعية السنوية للفلسطينيين العرب في تلك المنطقة). وكان الجيب الاستيطاني الصهيوني حتى عام ١٩٦٧ إحلالياً، ولكنه تحوَّل إلى جيب استيطاني من النوع الذي يستند إلى التفرقة اللونية على طريقة جنوب إفريقية، حيث يتم الاحتفاظ بالأرض ومن عليها من سكان، ويتم تحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة.

وقد أتاح النظام العالمي الجديد فرصاً جديدة للنظام الاستيطاني الصهيوني بحيث أصبح بوسعه أن يتجاوز نطاق فلسطين المحتلة ليتغلغل في البلاد العربية وليُحوِّل السوق العربية إلى سوق شرق أوسطية يلعب هو فيها دور الوسيط الأساسي بين العرب والغرب، بل وبين كل دولة عربية وأخرى.

وتكمن المفارقة في أن توسُّع الجيب الاستيطاني يتطلب المزيد من المستوطنين، أي المادة البشرية، للاستيطان والقتال وللأعمال التجارية، ولكن المادة البشرية اليهودية غير متوافرة، وإن تم استيراد مادة بشرية عربية فإن هذا يشكل تهديداً لهوية الدولة. وقد ظهر في إسرائيل صراع بين ما سمى «الصهيونية الديموجرافية» أو «السكانية» و «صهيونية الأراضي».

ومما فاقم الأزمة السكانية الاستيطانية ظاهرة الفرار من الخدمة

العسكرية. وكما هو معروف يستند الوجود الصهيوني، باعتباره كياناً استيطانياً إحلالياً، إلى العنف والإرهاب، إذ إنه يهدف إلى التخلص من أصحاب الأرض وإحلال آخرين محلهم، وهي عملية لا يمكن أن تتم بالوسائل السلمية. كما أنه كيان غُرس في المنطقة بسبب دوره القتالي ضد المنطقة العربية. وعلى مستوى من المستويات، يمكن القول بأن المشروع الصهيوني كان يهدف إلى نقل الشنورير أو المتسولين اليهود (وكل الفائض البشري اليهودي) إلى فلسطين وتحويلهم إلى مادة قتالية تخدم المصالح الغربية. وهذا هو أحد أهداف الجيوب الاستيطانية التي أسسها العالم الغربي في آسيا وإفريقية. ولذا، فإن وجود كل جيب استيطاني يستند إلى قوة عسكرية ضخمة لتطرد السكان الأصليين أو لتقمعهم، ولتنفذ المخطط العسكري الغربي، وتحقق الحد الأدنى من الطمأنينة لجماهير المغتصبين. والقوة العسكرية الصهيونية تنتمي لهذا النمط، وقد أحرزت قدراً لا بأس به من النجاح والشرعية أمام جماهير المستوطنين.

وكانت العسكرية الصهيونية قد نجحت في أن ترسخ في وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب، الأمر الذي أعطى الحروب الصهيونية ضد العرب حتى عام ١٩٦٧ عقلانيتها ومشروعيتها. ولذا، كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلي بنجاح شديد، عن طريق التوجه إلى حسّهم الأخلاقي والقومي والديني ورغبتهم في البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة.

بل إن الأيديولوجية الصهيونية التي تجعل اليهود شعباً مختاراً بالمعنى الحلولي (الديني والعلماني) وتخلع القداسة على كل ممتلكات الدولة، وبخاصة حدودها، خلعت القداسة على الجيش حتى أنه وُصف بأنه القداسة بعينها. وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه خير مفسر للتوراة، فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل. ومن ثم اكتسبت الخدمة العسكرية

قداسة خاصة، إلى جانب هذا كانت الخدمة العسكرية السبيل لدخول النخبة الحاكمة، ففي المجتمع الاستيطاني، لابد أن يدفع الفرد ضريبة الدم فيصبح جديراً بالحكم وصنع القرار. ولذا كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلي بنجاح شديد، عن طريق التوجه إلى حسِهم الأخلاقي والقومي والديني، ورغبتهم في البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة، وباعتبار أن العرب يهددون البقاء الإسرائيلي نفسه. ومما دعَّم كل هذه الادعاءات انتصارات إسرائيل المتتالية الحاسمة التي ضمنت للمستوطنين البقاء وتدفق المعونات من الخارج.

وقد ظل هذا هو الوضع السائد حتى عام ١٩٦٧ حين بدأت المشاكل. وكان أولها حرب الاستنزاف التي أحسَّ الإسرائيليون خلالها أن عمليات النصر السريعة ليست أمراً متيسراً وسهلاً. ثم جاءت حرب ١٩٧٣ حين اكتسحت القوات العربية المصرية والسورية خط بارليف والتحصينات العسكرية وألحقت خسائر بالعدو الصهيوني. ثم كان هناك أخيراً حرب لبنان («المستنقع اللبناني» في المصطلح الإسرائيلي) التي انتهت بهزيمة ساحقة، وبفشل ملحوظ في تحقيق الهدف الذي كانت تطمح إليه الحملة (القضاء بشكل نهائي على المقاومة الفلسطينية واللبنانية).

ثم شهدت هذه الفترة عمليات فدائية مستمرة لم تتوقف البتة، كان آخرها وأهمها وتاجها عملية (قبية) التي قام بها مواطنان عربيان (أحدهما سوري، والآخر تونسي) في ٢٥ نوفمبر ١٩٨٧ بمناسبة مرور ٣١ عاماً على مذبحة قبية، فقد استقلا طائرتين شراعيتين، فاستشهد أحدهما في الطريق، ولكن نجح الآخر في الهبوط في إحدى المستوطنات الصهيونية، فقتل ستة إسرائيليين، ثم استشهد، (ولذا كان أحد شعارات الانتفاضة: ستة مقابل واحد). وقد بينت هذه العملية للمستوطنين الصهاينة بما لا يدع مجالاً للشك أن الذراع القوية لا يمكن أن تضعهم في برج حصين، وتقدم لهم الحماية طول الوقت. ثم جاءت

انتفاضة الحجارة لتبين مدى عجزه عن القيام بالعمليات الجراحية والضربات الإجهاضية التي تسكت الآلام مرة واحدة.

هذا الوضع ولَّد لدى الإسرائيليين إحساساً عميقاً بما يُسمَّى (عقم الانتصار) لأن الحروب المستمرة (التي كان من المفروض في كل واحدة منها أن تنهي كل الحروب) لم تأت لا بالسلام ولا بالنصر. وقد تبين الإسرائيليون أنهم وصلوا إلى ما يمكن تسميته بنقطة الذروة، أي إنهم وصلوا لأعلى نقط استخدام العنف والقوة دون جدوى.

إضافة إلى هذا أدرك كثير من الشباب الإسرائيلي أن الدولة الصهيونية ليست في حالة دفاع عن النفس كما يقولون، وإنما هي دولة عدوانية. ففي حرب لبنان على سبيل المثال أعلنت المؤسسة العسكرية أن الهدف من عملية سلام الجليل هو هدف دفاعي حتمي لوقف ما يسمونه الهجمات الفدائية وتطهير مساحة ٦٧ كيلو متراً مربعاً من لبنان. ثم ظهر أن الهدف الحقيقي كان هو فرض حكومة وظيفية عميلة في لبنان تحت حماية إسرائيل. وقد أدَّى هذا إلى تداعي الإجماع القومي الإسرائيلي. كما أن الاستمرار في الاحتلال في الضفة الغربية لما يزيد عن عشرين عاماً كان من الصعب الدفاع عنه باعتباره «دفاعاً عن النفس».

ومع تراجُع احتمالات الحرب بين العرب والمستوطنين الصهاينة (بعد توقيع شتى معاهدات السلام) أصبح الحديث عن العمليات العسكرية الإسرائيلية باعتبارها دفاعاً عن النفس أمراً مستحيلاً. ولا شك في أن زيادة معدلات العلمنة والعولمة والسعار الاستهلاكي لا تساعد كثيراً على تصعيد روح القتال. كما أن جو الخصخصة العام السائد في إسرائيل يزيد تمركز الفرد حول نفسه، ويجعله يضع نفسه قبل المجتمع.

ولذا، فقد شهدت القوات العسكرية الإسرائيلية، لأول مرة في تاريخها، ظواهر احتجاجية مختلفة، جديدة عليها كل الجدة، مثل زيادة نزوح أبناء

الكيبوتسات، العمود الفقري للمؤسسة العسكرية واحتياطيها الحقيقي. وقد زادت كذلك نسبة النازحين من الضباط والخبراء العسكريين والمهندسين والعاملين في الصناعات الحربية (وبعد توقُّف العمل في مشروع الطائرة لافي).

وكذلك، زادت نسبة تعاطي المخدرات وانتشار الجرائم الجنسية بين أفراد القوات الإسرائيلية، وضعف مستوى الأداء بشكل ملحوظ حتى أنه ورد في أحد تقارير البنتاجون أن ١٠٪ من جملة الخسائر أثناء حرب لبنان كان مصدرَها الإسرائيليون أنفسهم، وتُعَد هذه نسبة عالية جداً.

وقد لوحظ تخثُّر المادة العسكرية الإسرائيلية فتزايد الفساد والرشوة في صفوف القيادات. وقد اكتشفت شبكة كاملة من كبار الضباط في الجيش الإسرائيلي، ممن تلقوا رشاوى ضخمة من جنود الجيش العاملين في الجنوب اللبناني والاحتياط، مقابل إعفاء هؤلاء الجنود من الخدمة العسكرية، وقد أشارت صحيفة **معاريف** إلى أن ١٥ ضابطاً مسؤولاً، منهم طبيب نفسي كبير في وزارة الدفاع الإسرائيلية، اشتركوا معاً في إصدار تقارير الإنهاء لأسباب مزيفة لجنود لديهم المال، ولكنهم يخشون الالتحاق بالخدمة العسكرية.

وهذه الواقعة الأخيرة مرتبطة تمام الارتباط بأهم الظواهر الاحتجاجية، أي انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية، بل الفرار منها. وقد صرح وزير الدفاع السابق إسحاق مردخاي بأن انخفاضاً حاداً طرأ على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية في صفوف الشباب الإسرائيلي. ويتحدث الإسرائيليون بقلق عن طبقة من الشبان تدعى (جيل إم. تي. في) نسبة إلى قناة تقوم ببث الغناء بشكل متواصل في إسرائيل. وأعضاء هذا الجيل لا يبدون اكتراثاً بالأوضاع العامة للدولة، ويميلون إلى الدعة والراحة، وهذا - على كلٍّ - تعبير عن التوجه الاستهلاكي العام في المجتمعات الصناعية التي يقال لها: «متقدمة» وكما يقول موردخاي: «يعتقد البعض أننا وصلنا مرحلة الراحة، والبعض الآخر يرى أننا يجب ألا نساهم بكل جهودنا في الدفاع عن إسرائيل».

وفي فترة قريبة كان التطوع في صفوف قوات النخبة (وحدة المظليين) يعتبر من الأعمال المرموقة. وقد اضطرت هذه القوات في السابق إلى الاعتذار لعدد من الراغبين بالتطوع؛ لوجود ما يكفيها من العناصر. غير أن الوضع الآن تغيَّر كما يبدو، فكثيرون يستخدمون حيلاً دينية للتخلص من الخدمة العسكرية، مثل الزعم بمرورهم بأحوال نفسية مضطربة. وفي إحدى استطلاعات الرأي صرَّح ثلث الشباب الإسرائيلي أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسكرية الإجبارية (التي تستغرق ثلاث سنوات) لفعلوا ذلك. ويعتمد الجيش الإسرائيلي على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالي ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة شهر حتى سن الخمسين لإعادة تدريبهم. وقد لوحظ أن حوالي الثُّلث يتغيبون. ويطلقون الآن في إسرائيل على الذين يؤدون خدمة الاحتياط الكلمة العبرية (فرياريم) والتي تعني (البُلهاء). وأثناء الصدام الذي وقع بين الجيش الإسرائيلي وسكان نابلس في سبتمبر ١٩٩٦ استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠، فلم يحضر سوى ٦٠، ولم يبق منهم سوى ثلاثين. وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية. والأهم من هذا كله أن هناك قبولاً اجتماعياً لهذا الموقف، وهو أمر جديد كل الجدة في التجمع الصهيوني الذي كانت الخدمة العسكرية فيه (حتى نهاية الستينيات) تُعدُّ الشرف الأكبر الذي يمكن أن يحصل عليه المواطن/ المستوطن.

أمام هذا الوضع يفضل الجيش الإسرائيلي أن يستبعد مثيري المشاكل ويتركهم وشأنهم حتى لا تُثار القضية، وحتى لا يناقشها الرأي العام (من أبطال التهرب من الخدمة العسكرية، رافيف جيفين، ابن شقيقة موشي ديان، الذي ظهر قبل سنوات في التليفزيون وهو يتحدث عن كيفية حصوله على الإعفاء من الخدمة لأسباب نفسية).

إن كل هذه الظواهر تدل على مدى عمق الأزمة الصهيونية، فجيش الدفاع

الإسرائيلي هذا، وصورته التي يذيعها عن نفسه، لبنة أساسية في العقد الاجتماعي الصهيوني، وسند أساسي لشرعية الصهيونية سواء في علاقة المجتمع الصهيوني مع نفسه أو في علاقته مع العالم الخارجي، واهتزاز الصورة هو اهتزاز الأُسس المهمة للشرعية.

تقويض الأيديولوجية الصهيونية من خلال الاستهلاكية (والأمركة والعولمة والخصخصة والعلمنة)

تسبَّبت الأزمة الصهيونية في ظهور أزمة أيديولوجية عميقة، فبعد أن طرح الصهاينة فكرة اليهودي الخالص، كما أسلفنا، وجدوا أن يهود المنفى شخصيات مريضة شاذة غير سوية. وهذا الشذوذ، ومن وجهة نظرهم، له مظهران أساسيان: أحدهما اقتصادي والآخر سياسي. أما المظهر الاقتصادي فيتضح في عدم إنتاجية اليهود، واشتغالهم بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة، مثل التهريب والأعمال المالية والعقارات وتجارة الرقيق الأبيض. أما المظهر السياسي، فيتلخص فيما يُطلَق عليه إشكالية العجز بسبب افتقاد السلطة أو السيادة. فالصهاينة يرون أنه بعد تحطيم الهيكل الثاني عام ٧٠ ميلادية، أصبح اليهود جماعات مشتتة تشتغل بالتجارة والربا، وتُوجَد خارج نطاق مؤسسات صنع القرار دون أن تساهم في صياغته، وتفتقر إلى أية سيادة سياسية مستقلة، الأمر الذي كان يعني - من وجهة نظر الصهاينة - توقُّف مسار التاريخ اليهودي.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (أي المجتمع الصهيوني) كجزء من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية. (وهذا في واقع الأمر أول استخدام للمصطلح في الأدبيات الصهيونية).

والتطبيع هنا يعني الشفاء من عقلية الاستجداء الاقتصادي من الغير أو

الأغيار ومن الاعتماد السياسي عليهم، كما يعني عدم الانغماس في أعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة والتحول إلى شعب يهودي منتج بمعنى الكلمة يسيطر على كل مراحل العملية الإنتاجية، وبالتالي على مصيره الاقتصادي والسياسي. وقد عبَّر بوروخوف عن القضية نفسها بقوله: إن الحل الصهيوني هو أن يقف الهرم الإنتاجي على قاعدته، فيتركز اليهود في العمليات الإنتاجية (في قاعدة الهرم)، ويعملون بأيديهم، وتصبح أغلبيتهم من العمال والفلاحين. أما المهنيون والعاملون في القطاعين التجاري والمالي، فإنهم يصبحون قلة على قمة الهرم، شأنهم في هذا شأن أي مجتمع آخر. وهذا ما يُطلَق عليه اصطلاحاً (العمل العبري) و (غزو العمل) و (غزو الأرض) و (غزو الحراسة)، أي أن يستولي الصهيوني على الأرض ويعمل فيها بيده ويسيطر على مراحل الإنتاج كافة، وهو إن فعل هذا يكون قد أنجز الثورة الصهيونية الحقة، فاستولى على الأرض وزرعها، وعلى الهيكل الاقتصادي وعمل فيه، وعلى الهيكل السياسي وتَحكَّم فيه، وتحوَّل هو نفسه من شخصية هامشية إلى شخصية منتجة، أي إنه يكون قد تم تطبيعه. ومن هنا، يكون الاستيطان الإحلالي (الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها والعمل فيها) لا فعلاً خارجياً يحمل مدلولاً اقتصادياً محدوداً وإنما فعل شامل ذو أبعاد سياسية وقومية، وفي نهاية الأمر نفسية، وهو أيضاً يحل مشكلة المعنى بالنسبة للصهاينة، ويعقلن وجودهم في فلسطين التي تلفظهم ويقاتل أهلها ضدهم.

لكن، وبعد مرور ما يقرب من خمسين عاماً على تأسيس الدولة الصهيونية، يمكن القول بأنها أبعد ما تكون عن قصة النجاح الموعود. أما على مستوى السيادة السياسية، فالمستوطن الصهيوني يضطر دائماً نتيجة وضعه للاعتماد على قوة خارجية تضمن له البقاء والاستمرار من خلال الدعم العسكري والسياسي المستمرين، وهو ما يفرغ مفهوم السيادة من مضمونه تماماً.

والدعم الاقتصادي للدولة الصهيونية يحل مشاكلها الاقتصادية، ولكنه

تذكير يومي للمواطن الإسرائيلي بأن الصهيونية لم تنجح في تطبيع اليهود وفي شفائهم من أمراض المنفى. فالمُستوطن الصهيوني أصبح شخصية استهلاكية، ولم يتحول إلى شخصية منتجة يعمل بيديه، ويتواجد في مختلف المراحل الإنتاجية. فإنتاجية العامل الإسرائيلي تعادل نصف إنتاجية العامل الأمريكي، وهو أقل إنتاجية من عمال الدول الصناعية كلها (باستثناء إيطاليا).

ويتبدَّى تقلُّص الإنتاجية الإسرائيلية في تقلص القطاع الإنتاجي وتضخُّم قطاع الخدمات. وقد لاحَظ أمنون روبنشتاين، أنه في عام ١٩٤٥، أي قبل إعلان الدولة، كان عدد اليهود المشتغلين بأعمال إنتاجية هو ٢٤٪، وبعد إعلان الدولة، وقف الهرم الإنتاجي على قاعدته، وبلغ عدد اليهود المشتغلين بوظائف إنتاجية ٦٩٪، ولكن بعد مرور مئة عام على الاستيطان الصهيوني والممارسة الصهيونية، هبطت النسبة مرة أخرى إلى ٢٣٪.

وقد ساهمت الانتفاضة المجيدة في فضح العدو أمام نفسه، إذ ثبت أن العمالة العربية المنتجة لا تزال قائمة على أرض فلسطين قبل وبعد عام ١٩٤٨. ولم يحاول المجتمع الصهيوني أن يحل مشكلة العمالة من الداخل، أو حتى بالتوجه إلى الضمير اليهودي العالمي، وإنما حاول حلها عن طريق استيراد العمالة، وكأن الحديث عن زيادة الإنتاجية والعمل العبري قد تبخَّر جميعاً حتى على مستوى الديباجات اللفظية.

وتعبِّر أزمة الإنتاجية عن نفسها في تفشي المضاربات في صفوف الإسرائيليين، وقد ظهر أن المصارف الأساسية في إسرائيل، وكذلك قطاع كبير من المواطنين العاديين، متورطون في عمليات مضاربة تضمن لهم أرباحاً ثابتة بضمان الحكومة دون بذل أيِّ جهد ودون مخاطرة كبيرة، وهذه هي عقلية الوسيط الطفيلي. وقد كُشف النقاب عن أن بعض الكيبوتسات متورطة هي الأخرى في أعمال السمسرة والمضاربات. وقد تزايدت معدلات الجريمة في إسرائيل بشكل مذهل. ويُلاحَظ انتشار المخدرات والأمراض النفسية والبغاء.

والفشل الأيديولوجي وتآكل الأيديولوجية يُولِّد ما يُسمَّى (أزمة المعنى). وعادةً ما تؤدي أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق في عنصر مادي بشكل كامل (شرب المخدرات - الإباحية - الاستهلاك) يبحث الإنسان فيه عن قدر من اليقين. لكن ما يحدث هو العكس، إذ إن تصاعُد الاستهلاك وإغراق الحواس فيه يزيد أزمة المعنى بدلاً من تهدئتها، ويزداد بذلك تآكل الأيديولوجية وتقويضها.

وتوجد عناصر أخرى في بنية المجتمع الاستيطاني الصهيوني (الاستهلاكية) تصعد هذا الاتجاه.

١ - لوحظ أن المجتمعات العلمانية تمر بمرحلتين: مرحلة تقشفية تراكمية (صلبة) وأخرى استهلاكية فردوسية (سائلة). وتنتمي المجتمعات الاستيطانية إلى النمط نفسه، بل إن تحقق النمط في حالتها يتسم بقدر أعلى من الحدة والتطرف. فالمجتمعات الاستيطانية تبدأ هي الأخرى بمرحلة تقشفية حادة تتطلب التنظيم الصارم وضبط النفس وإنكارها بل التضحية والقتال المستمر (ضد الطبيعة المعادية والسكان المعادين)، وهي مرحلة تتسم بالأشكال الاقتصادية الجماعية والملكية الجماعية أو شبه الجماعية للأشياء وتضخُّم القطاع العسكري وتغلغله في كل القطاعات الأخرى. وهذه المرحلة هي المرحلة التقشفية التراكمية التي يتم فيها الاستيلاء على الأرض كذلك طرد السكان الأصليين وإبادتهم ومراكمة رأس المال.

ولكن كل هذا يتم، منذ البداية، باسم الهدف النهائي والقيمة المرجعية النهائية والمطلق العلماني الأوحد، أي تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما يتم من إرجاء لإشباع الغرائز إنما يتم باسم الاستهلاك الآجل. وإذا كانت مرحلة التقشف حادةً في تقشُّفها، فالمرحلة الاستهلاكية في المجتمعات الاستيطانية لا تقل عنها حدة. ويعود هذا إلى أن المُستوطن إنسان تَرَكَ وطنه واقتُلع من جذوره ليحقق حراكاً اجتماعياً ومزيداً من الاستهلاك، وانتقل إلى

مجتمع استيطاني يظن أنه الفردوس الأرضي الموعود. والمهاجر المستوطن يرفض تقاليد وطنه أو يتركها وراءه أو يجمدها، وهو يقوم عادةً بعملية الاستيطان في غياب أية مؤسسات دينية، وإن وُجدت فهو عادةً يسيطر عليها ويوظفها لتقوم بعملية تسويغ عمليات الإبادة والطرد التي يقوم بها. وهو، إلى جانب كل هذا، لا يتبنَّى التقاليد الدينية والثقافية والاجتماعية للسكان المحليين وإنما يقوم بتحطيمها، ولذا فإنه يصبح كياناً عارياً تماماً أمام المادة (والتجربة الاستيطانية الغربية هي بهذا المعنى تجربة علمانية مكثفة). ويعني كل هذا، في نهاية الأمر، أن قيم المنفعة واللذة تكون في مثل هذه المجتمعات في حالة تَرقُّب وانتظار لتتحقق وتكتسح المطلقات كافة في طريقها مع تزايد معدلات العلمنة.

والمُستوطن الصهيوني لا يشكل استثناء من القاعدة، فقد بدأ بمرحلة ريادة مسلحة تقشُّفية وانتهى إلى مرحلة استهلاكية فردوسية. ولكن عملية الانتقال إلى المرحلة الثانية تمت بسرعة أكثر من المتوقع، لأن المستوطنين الصهاينة كانوا منذ البداية مموَّلين من الخارج من قِبَل اللورد روتشيلد، ثم زاد الدعم والتمويل بعد عام ١٩١٧ من قِبَل المنظمة الصهيونية العالمية، ولكن فترة الريادة المسلحة لم تكن تقشُّفية بالقدر الكافي، ولم تكن تراكمية على الإطلاق، وكانت تحوي داخلها قدراً عالياً من اللذة الآنية والسعار الاستهلاكي والرغبة الجامحة في تحقيق الذات. وبعد إنشاء الدولة، زاد الدعم من الخارج بدرجة لم يشهدها التاريخ الإنساني من قَبْل، وهو ما أدَّى إلى زيادة حد التوقعات الاستهلاكية، وإلى إضعاف المقدرة على التقشف وعلى إرجاء المتعة. ولذا، فحينما حققت إسرائيل انتصاراً في عام ١٩٦٧، أي بعد نحو ٢٠ عاماً وحسب من تأسيس الدولة، تفجرت الرغبات الاستهلاكية وزاد النزوع نحو اللذة، وارتفعت التوقعات، وانخفضت المقدرة على التحمل، إذ شعر المستوطنون الصهاينة أن المرحلة التقشفية قد انتهت، وأن الوقت قد حان لدخول مرحلة

الاستهلاك والسلع المستوردة، وهذا يعني أن ارتفاع معدلات العلمنة في المجتمع أدَّى إلى اكتساح القيم، والمُطْلقات كافة، ومعها المطلق الصهيوني نفسه وسائر آليات ضبط النفس التي تتم في إطاره، وذلك قبل أن يضرب المجتمع بجذوره وقبل أن يؤسِّس بنيته التحتية، ولذا، تزايدت معدلات الأمركة في المجتمع، وضَعُفت مقدرة المستوطنين على تحمُّل المشاق. ومع تَفجُّر الانتفاضة تصاعدت حدة أزمة المجتمع الصهيوني.

لكل هذا تغيَّرت الأنماط الإدراكية في المجتمع فتراجع نموذج الكيبوتسنيك (عضو الكيبوتس) وظهر نموذج روش قطان، أي المواطن ذو الرأس الصغير والمعدة الكبيرة.

ونظراً للتوجُّه نحو اللذة في التجمُّع الصهيوني نجد أن المفهوم القديم للمستوطن الصهيوني باعتباره رائداً يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى قد تآكل، وظهر نوع جديد من المستوطنين الذين يبحثون عن الحراك الاجتماعي وعن رفع مستوى معيشتهم. ولذا يُلاحَظ أن المستوطنات الجديدة في الضفة الغربية مختلفة عن المستوطنات القديمة، فلا يوجد فيها أي مظهر من مظاهر التقشف، وإنما توجد فيها منازل فاخرة، وحمامات سباحة، وكل أشكال الرفاهية. والدعوة إلى الاستيطان فيها لا تأخذ شكل شعارات دينية أو حتى شبه دينية ولا أيديولوجية (أو حتى شبه أيديولوجية) وإنما هي دعوة سافرة للاستهلاك، فإحدى الإعلانات تتحدث عن فيلا واسعة، في موقع جميل، بنصف ثمن الفيلات المماثلة داخل حدود ٦٧، ولكنها مع هذا تقع على بُعد ثلاثين دقيقة من وسط القدس ونتانيا وتل أبيب.

وهذه البيوت الاستيطانية الفارهة لا يقوم المستوطنون بحراستها، إذ يتولَّى الجيش الإسرائيلي هذه المهمة بالنيابة عنهم. ولذا بدلاً من أن تكون المستوطنات هي المواقع العسكرية الأمامية للقوات الصهيونية أصبحت تشكل عبئاً عسكرياً عليه. ولذا فقد أطلقنا على هذا النوع من الاستيطان (الاستيطان

مكيف الهواء)، وهو يعكس واقع الحياة في إسرائيل أكثر من الشعارات الصهيونية الكاذبة التي تطلقها أبواق الدعاية الصهيونية.

٢ - لا شك في أن كون المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين، يعني أن هناك دائماً جماعات بشرية جديدة تفد على المجتمع وتصعِّد من سعاره الاستهلاكي، كما حدث مع وصول المهاجرين السوفييت.

٣ - مما يساعد على تفشي النزعة الاستهلاكية ظاهرة الأمركة، والأمركة هي أسلوب حياة جوهره اتخاذ موقف برجماتي ينصرف عن الكليات والمبادئ ليركز على التفاصيل وحل المشاكل المباشرة، ويعتمد العنف آلية أساسية من آليات حل الصراع، ويركز على الفرد بالدرجة الأولى وتأكيد ضرورة الإشباع الفوري.

وعلاقة إسرائيل بالولايات المتحدة علاقة خاصة وعميقة. فكلاهما مجتمع استيطاني مبني على محو تاريخ الآخر وإبادته وطرده. وكلاهما يستند إلى أسطورة الاستيطان الغربية (صهيون الجديدة)، وإلى جانب هذه العلاقات الحضارية شبه الدينية، توجد العلاقة السياسية العملية، وهي أن الولايات المتحدة هي الراعي الإمبريالي للدولة الصهيونية الوظيفية التي تدعمه وتموله وتضمن بقاءه واستمراره، وهي تضم أكبر تجمع يهودي في العالم (يفوق في حجمه التجمُّع الصهيوني نفسه). وهي بغير شك علاقة تخلق تبادلاً اختيارياً وتربة خصبة للأمركة. هذا بطبيعة الحال إلى جانب الاتجاه العام في كل مجتمعات العالم نحو الأمركة مع تصاعُد معدلات العلمنة وتفشي النسبية الأخلاقية. والأمركة تعني تآكل الجذور وتساقط الحدود الأمر الذي يصعِّد السعار الاستهلاكي.

٤ - والأمركة مرتبطة تمام الارتباط بالعولمة التي لها الأثر نفسه في التجمُّع الصهيوني، فالإنسان الذي يفقد جذوره الإثنية والدينية يميل بشكل أكبر نحو الاستهلاك، لأن استهلاك السلع يصبح السبيل إلى تحقيق الفردوس الأرضي.

وفي إطار العولمة تصبح السلع العالمية (أي الأمريكية) هي رمز هذه الجنة الجديدة.

وهذه الظواهر موجودة في كل المجتمعات ولكن أثرها السلبي أعمق في التجمُّع الصهيوني، لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعي إلى أيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفقري.

٥ - ويرتبط بكل هذا الاتجاه نحو الخصخصة، فالخصخصة تعني أن نقطة البدء هي الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردي يسبق المشروع القومي. ومثل هذا الموقف يزيد بغير شك حدة السعار الاستهلاكي. وللخصخصة أعمق الأثر في التجمُّع الصهيوني باعتباره تجمُّعاً استيطانياً لابد أن ينظم نفسه تنظيماً جماعياً ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام مقاومة أصحاب الأرض.

التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية

من مظاهر الأزمة الصهيونية «التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية» وهذا التكاثر المفرط هو سمة أساسية للفكر الصهيوني منذ ظهوره. فهناك (الصهيونية الدبلوماسية) و (الصهيونية السياسية) و (الصهيونية العامة) و(الصهيونية العمالية) و (الصهيونية الاشتراكية) و (الصهيونية الدينية) و(الصهيونية العلمانية) و (الصهيونية الثقافية) و (الصهيونية الروحية) و(الصهيونية التصحيحية) و (الصهيونية التوفيقية) و (الصهيونية الإقليمية) و(صهيونية بدون صهيون) و (صهيونية صهيون) و (الصهيونية المسيحية) و(صهيونية الأغيار) وغيرها من المصطلحات.

وقد استمرت الظاهرة بعد إنشاء الدولة وإن كان إسهال المصطلحات قد عبَّر عن نفسه من خلال أسماء الأحزاب التي تتغيَّر بمعدل جنوني عند كل انتخابات وما بينها.

وإذا كان التكاثر المفرط للمصطلحات سمة أساسية للخطاب الصهيوني قبل عام ١٩٦٧ فإن الأمور ازدادت سوءاً بسبب تصاعُد الأزمة، فهناك الأزمة البنيوية للصهيونية، وتوتر العلاقة بين المُستوطَن الصهيوني ويهود العالم. ولأن الأزمة لا حل لها، والتوتر يتصاعد فإن الحلول المطروحة هي الأخرى تتزايد بشكل مفرط، ومن ثم تتكاثر المصطلحات وتتداخل فتضطرب.

وبعض التيارات الصهيونية الجديدة توصف بأنها «معتدلة»: (صهيونية الخط الأخضر - صهيونية الحد الأدنى - الصهيونية الديموجرافية)، ويوصف البعض الآخر بأنه «متطرف»: (صهيونية الأراضي - صهيونية الحد الأقصى - الصهيونية المتوحشة). وحقيقة الأمر أنه لا يوجد فارق جوهري بينهما، فكلاهما يَصدُر عن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، ولا يختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع.

ويظهر التداخل بين المصطلحات وعدم جدواها من الناحية التصنيفية في حالة هرتزل. فهو قد أظهر صيغة صهيونية معتدلة (وُصفت بأنها «صهيونية ليبرالية إنسانية»)، وأبطن صيغة الحد الأقصى المتوحشة. «وقد حل التناقض بطريقة» عملية ذكية إذ ربط التوسع (صهيونية الأراضي) بالهجرة (الصهيونية السوسيولوجية)، وجعل الثاني مشروطاً بالأول، فكأنه كان ليبرالياً قبل وصول المستوطنين، متوحشاً بعده. (ومع هذا، نجد من أتباع هرتزل الليبراليين من يشجبون صهيونية الحد الأقصى وينعتونها بالوحشية، وهي الصهيونية التي لم يرفضها المنظِّر الأول والزعيم الروحي، وإنما أخفاها وحسب لاعتبارات عملية!).

ويظهر الخلط في المصطلح أيضاً في إدراك الحركة الصهيونية أن (الشعب اليهودي) يؤثر المنفى على (الوطن القومي) وأنه يحجم عن الهجرة إليه. ولكنها مع هذا ترفض الاعتراف بالأمر الواقع. ومما يزيد الأمور اختلاطاً أن هؤلاء الذين يرفضون الهجرة يسمون أنفسهم (صهاينة) لأسباب نفسية محضة لا

علاقة لها بواقعهم أو سلوكهم. وقد طالب بن جوريون بعدم تسميتهم (صهاينة)، فالصهيونية - كما قال - هي الهجرة والاستيطان (ومن وجهة نظرنا، الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها والقتال من أجلها). وطالب بتسميتهم (أصدقاء صهيون) وحسب. ولكن مثل هذه الراديكالية قد تفضح المشروع الصهيوني، ومن هنا مصطلحات مثل (الصهيونية النقدية) و (الصهيونية التقنية) (وهي سليلة مصطلح بورخوف «صهيونية الصالونات»). وهي مصطلحات تشير إلى ظاهرة رفض أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الهجرة دون تسميتها بشكل صريح.

ونظراً لكل هذه التطورات أصبحت كلمة (صهيونية) (تسيونوت بالعبرية) تعني «كلامَ مدعٍ أحمَق» (**الجيروساليموست** ٢٦ أبريل ١٩٨٥) وتحمل أيضاً معنى «التباهي بالوطنية بشكل علني مُبالَغ فيه»، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسة (**الإيكونومست ٢١ يوليه ١٩٨٤، وكتاب برنارد أفيشاي مأساة الصهيونية**، ص ٢٦)، ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالي أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر: صهاينة الخارج، أي الصهاينة التوطينيون الذين يحضرون إلى فندق صهيون، ويحبون أن يسمعوا الخطب التي لا علاقة لها بالواقع، ولذا فهي ساذجة، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهي العلني بالوطنية. وتشير في الوقت نفسه إلى الصهاينة الاستيطانيين الذين يعرفون أن الخطب التي عليهم إلقاؤها إن هي إلا خطب جوفاء، ومبالغات لفظية لا معنى لها، ولكن عليهم إلقاءها على أية حال حتى يُجزلَ لهم الضيوفُ العطاء. والمقصود الآن بعبارة مثل «اعطه صهيونية» هو «فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معنى» فهو صوت بلا معنى وجسد بلا روح ودال بدون مدلول.

المسألة الفلسطينية والإدراك الصهيوني

والظاهرة الصهيونية - كما أسلفنا - ظاهرة استعمارية استيطانية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة. وعناصر الأزمة السابقة هي عناصر نشأت في داخل التجمُّع الصهيوني. ولكن التحدي الأكبر الذي يواجهه هذا التجمُّع هو المسألة الفلسطينية، وهذا ما أدركه بن جوريون نفسه عام ١٩٣٨ حين اعترف بأن مقاومة العرب ليست إرهاباً، وإنما حرب قومية أعلنها العرب علينا. وأشرنا إلى ما قاله موشيه شاريت بأن مقاومة الفلسطينيين للصهاينة هي ثورة الجماهير التي تمليها المصالح القومية الحقة.

وإدراك الواقع في لحظة صدق لا يعني البتة التعامل معه بطريقة أخلاقية أو واقعية، بل إن إدراك الصهاينة لحقيقة مشروعهم الصهيوني الاستيطاني الإحلالي وأبعاد المقاومة العربية وعمقها قد يؤدي إلى مزيد من الشراسة. ولنضرب مثلاً على هذا النمط الصهيوني بفلاديمير جابوتنسكي - زعيم الحركة الصهيونية التنقيحية - الذي أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية مغتصبة للأرض والعرب أمر حتمي، فلم يختبئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية عن الحقوق اليهودية الأزلية، ولم يختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، أو الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعماري الغربي الذي لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السيف، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تماماً مثلما يتسلح المستوطنون الأوربيون في كينيا وفي كل مكان)، أي طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيوني. فالعرب - حسبما صرَّح - لن يقبلوا الصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا أنفسهم في مواجهة حائط حديدي.

ونظرية الجدار الحديدي - كما أسلفنا هي جزء من الإجماع الصهيوني التي طورها شارون إلى مفهوم «الجدار الفولاذي»، وأكدها نتنياهو، ووافق باراك عليها.

ويتحدث إيان لوستيك في مقال له بعنوان «إسرائيل ومنطقة الجدار الحديدي» عن مراحل خمسة لاستراتيجية الجدار الحديدي، لتحويل الصراع الوجودي بين الصهاينة والعرب الفلسطينيين إلى سلام قائم على التوافق وليس العدل، على النحو التالي:

المرحلة الأولى: بناء الجدار الحديدي.

المرحلة الثانية: حماية الجدار الحديدي من محاولات تصديعه.

المرحلة الثالثة: هزائم مكلفة تؤدي إلى تحولات لدى الخصوم، من متطرفين عنيدين إلى معتدلين على استعداد للمساومة.

المرحلة الرابعة: يدرك حماة الجدار الحديدي تحولات القوة من التطرف إلى الاعتدال داخل المعسكر السياسي للخصم، وذلك يدفعهم إلى تحويل سياستهم نحو التفاوض والمساومة.

المرحلة الخامسة: تؤدي المفاوضات إلى تسوية للصراع تقوم على جماعية متساوية.

والنتيجة نفسها توصَّل إليها بن جوريون، إذ إن إدراكه للمقاومة العربية كان يحِّده التزامه بالرؤية الصهيونية، ولذا توصَّل إلى أنه لا مناص من فرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحد السيف. ولذا لم يبحث الزعيم الصهيوني عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام - على حد قوله - مستحيل، كما لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا سراب بغير شك. إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوريون، «إن هو إلا وسيلة وحسب، أما الغاية فهي الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصل إلى اتفاق [مع العرب]. إن الشعب اليهودي لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لا تخدم هذا

الغرض، ولذا فالاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن، [فالعرب] لن يستسلموا في إرتس يسرائيل إلا بعد أن يستولي عليهم اليأس الكامل، يأس لا ينجم عن فشلهم في الاضطرابات التي يثيرونها أو التمرد الذي يقومون به وحسب، وإنما ينجم عن نمونا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة في هذا البلد]. ثم استمر يقول: لا يوجد مَثَل واحد في التاريخ لأمة فتحت بوابات وطنها [للآخرين]. إن تشخيصي للموضوع أنه سيتم التوصل إلى اتفاق [مع العرب] لأنني أؤمن بالقوة، قوتنا التي ستنمو، وهي إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه». وهكذا تم عقد اتفاقيات «السلام مع العرب».

ولا يختلف شاريت عن هذه الرؤية التي تذهب إلى أن المثل الأعلى الصهيوني لابد أن تسانده القوة حتى يمكن فرضه على الواقع. وهو أيضاً يتبنَّى سياسة الحائط الحديدي، شأنه في هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكي: «لا أعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا. ولكني أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقاً ثابتاً مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسي هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما باعتبارنا قوة فعلية».

وقد أدرك وايزمان منذ البداية أن أي سلام مبني على العدل، أي يؤدي إلى إعطاء الفلسطينيين حقوقهم السياسية والدينية والمدنية كافة، عواقبه وخيمة، إذ سيؤدي إلى «سيطرة العرب على الأمور». فلو تم تأسيس حكومة في إطار هذا السلام العادل، فإن العرب سيمثَّلون فيها، وهي حكومة ستتحكَّم في الهجرة والأرض والتشريع - وبذا سيحقق الصهاينة السلام - ولكنه «سلام المقابر» (على حد قوله). والصهاينة شأنهم شأن كل من في موقفهم، كانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم، وإنما للآخرين. ولذا فالاتفاق الذي يتحدث عنه جابوتنسكي ثم بن جوريون وشاريت ووايزمان ليس اتفاقاً مع

العرب باعتبارهم كياناً مستقلاً له حقوقه وفضاؤه التاريخي والجغرافي إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه أو ترويضه عن طريق القوة والحائط الحديدي، ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التي يفرضها الآخر. وهذه رؤية ولا شك واقعية: إذ كيف يمكن أن يتوقع أحد من العرب أن يخضعوا طواعية لرؤية تلغي وجودهم؟

وهذا، على كلٍّ، ما أدركه العرب منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلنة عن السلام والحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون حقيقة الصهيونية، وأنها تحاول أن تغيبهم أو تهمشهم لأنهم - حسب التصور الصهيوني - كائنات غائبة (أرض بلا شعب) أو متخلفة أو هامشية لا تفهم سوى لغة القوة، وأنهم قد يكتفوا في نهاية الأمر بدولة لا سيادة لها، وأنهم سيستمرون خائفين قانعين بحياتهم المتخلفة. فجاءت انتفاضة ١٩٨٧، وظهر العربي الغائب وفي يده حجر يُلقي به على الصهيوني وعلى أوهامه، فيشج رأسه ويزلزل الأسطورة، ويتنبه هذا الصهيوني فجأة إلى أنها أرض لها شعب. وقد قال نسيم زفيلي (أحد رؤساء قسم الاستيطان بالوكالة اليهودية) إن هناك حالة فزع وهلع بين المستوطنين في الضفة الغربية (وهذه هي الحالة التي تنتاب الإنسان حينما يفقد الوهم فيصبح عارياً أمام الحقيقة). وقد رفض يسرائيل هاريل هذا الوصف، وأعطى تحليلاً أعمق وأشمل إذ قال: «إن اليقين القديم [أي الأسطورة التي تدور في إطار الشرعية الصهيونية] الذي شدَّ أزر جوش إيمونيم قد اهتز لأول مرة. فهناك قلق بشأن الاحتمالات السياسية، وهو قلق لا ينصرف إلى المستوطنات نفسها وحسب، وإنما ينصرف إلى [ما هو أعمق] إرادة الأمة ومن جذورها ومن طبيعة رؤاها».

ثم أضاف: «لقد دخلنا مرحلة جديدة في النضال من أجل إرتس يسرائيل، فالعرب لا يريدون الضفة الغربية وحسب بل عكا ويافا أيضاً. والحكومة

تعطي العرب إشارات إلى أن مكاننا هنا في الضفة الغربية مؤقت». فكأن الانتفاضة قد همشت المستوطنين، ثم غيبتهم، وطرحت قضية الوجود الصهيوني نفسه. وقد عبَّر الفيلسوف الإسرائيلي ديفيد هارتمان عن القضية إذ قال: «إن ثورة الحجارة تقول للصهاينة: نحن لا نخاف منكم، وهي طريقة أخرى يقولون: أنتم لستم هنا». فاضطرت الدولة الصهيونية للاعتراف بالوجود الفلسطيني وسقطت مقولة: «العربي الغائب».

ثم جاءت انتفاضة الأقصى والاستقلال لتقضي على بقية الأوهام الصهيونية وتساقطت مقولتا العربي المتخلف والعربي الهامشي، ومن أحسن المقالات التي كُتبت عنها مقال الكاتب الإسرائيلي يوري أفنيري تحت عنوان (الضربة القاضية لم تُسدَّد بعد) يقول أفنيري في مقاله:

«يدخل ملاكمان الحلبة: واحد منهما بطل الوزن الثقيل، والآخر وزن الريشة. ويتوقع الجميع أن يقوم البطل بتسديد ضربة قاضية تقضي على غريمه الهزيل في الجولة الأولى.

ولكن وبأعجوبة تنتهي الجولة الأولى، والضربة القاضية لم تُسدَّد بعد، ثم الجولة الثانية، ويستمر الوضع نفسه. وبعد الجولتين الثالثة والرابعة لا يزال خفيف الريشة واقفاً، مما يعني أنه هو الرابح الحقيقي، لا بالضربة القاضية ولا بالنقط، وإنما لمجرد أنه لا يزال واقفاً ومستمراً في الصراع مع غريمه القوي».

هذه الصورة المجازية تنطبق تمام الانطباق على المواجهة بين قوى الاحتلال الإسرائيلي والشعب الفلسطيني. فالجيش الإسرائيلي القوي لم ينجح حتى الآن في تحطيم العمود الفقري للانتفاضة. لقد جرَّب هذا الجيش كل شيء: البنادق، والطائرات، والدبابات، والمدافع الثقيلة، والتصفية الجسدية، وتحطيم أحياء بأسرها، والحصار، وتحطيم المنازل، وقطع الأشجار، ومع هذا في الشهر العاشر (وقت كتابة هذا البحث) لا يزال الفلسطينيون واقفين يصارعون غريمهم.

لكل هذا تساقطت مقولتا العربي المتخلف والعربي الهامشي، فتفككت الخريطة الإدراكية الصهيونية، فجُنَّ جنون الصهاينة، فلجأت المؤسسة الصهيونية (التي طالما تحدثت عن إسرائيل باعتبارها واحة للديمقراطية) إلى ضرب العسكريين والمدنيين بالطائرات والمدافع والرشاشات، وبدأ الاغتيال المؤسسي للقيادات الفلسطينية والاغتيال العشوائي للنساء والأطفال وكل من يقف في طريق جيش الاحتلال. وانتهى الأمر بوصول شارون الذي وعد بالقضاء على الانتفاضة المهلة دون أن ينجح في تحقيق وعده، وليس هناك في الأفق ما يبشر بأنه سيُكتب له النجاح. وكل هذا ولا شك سيصعِّد من أزمة التجمُّع الصهيوني.

نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية

يتحدث الإعلام الغربي عن دائرة العنف، ونحن نتحدث عن دائرة المقاومة والقهر. ولا يوجد مخرج من هذه الدائرة داخل الإطار الصهيوني، إذ لا يمكن توقُّع أي سلام في إطار بنية القمع والظلم والعدوان هذه، أي في إطار الصهيونية، بينما يمكن أن نتحرك نحو قدر معقول من السلام من خلال نزع الصبغة الصهيونية (الاستيطانية الإحلالية). وأزمة الصهيونية لا يمكن حلها إلا بالتخلص من الصهيونية ذاتها، فبنيتها الاستعمارية، كيان استيطاني إحلالي غُرس غرساً في وسط المنطقة العربية، هي سبب أزمتها.

ومفهوم «نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية» ينطلق من إدراك أن الصراع القائم عن الشرق الأوسط الآن ليس نتاج «كُره عميق وأزلي» بين العرب واليهود أو بين اليهود والأغيار، وأنه ليس نتيجةِ العُقد التاريخية والنفسية (كما يدَّعي الصهاينة) وإنما هو وضع بنيوي يُولِّد الصراع، ونشأ عن تطور تاريخي وسياسي وبشري محدد. وما دام هذا الوضع قائماً يظل الصراع قائماً. وأنه لا سبيل لإنهاء الصراع إلا من خلال فك بنية الصراع ذاتها. فالدولة الصهيونية ليست مجرد دولة، وإنما هي دولة وظيفية بكل ما تتسم به

الدولة الوظيفية من عزلة واعتماد على قوى خاصة. وقد عبَّرت هذه الوظيفية عن نفسها في بنية متكاملة من القوانين العنصرية (قوانين العودة والجنسية) والمفاهيم العدوانية (نظرية الأمن - مفهوم السلام - مفهوم الحكم الذاتي) والمؤسسات الاقتصادية الاستبعادية (الكيبوتس - الصندوق القومي اليهودي) ومؤسسات القمع التي تتمتع بكفاءة عالية (المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - الموساد - الشين بيت. . إلخ).

ولا يمكن توقع أي سلام في إطار بنية القمع والظلم والعدوان هذه. أي تحت وطأة الصهيونية، أي وظيفية الدولة. بينما يمكن أن نتحرك نحو قدر معقول من السلام من خلال نزع الصبغة الصهيونية (الاستيطانية الإحلالية).

وفك الجيب الاستيطاني الإحلالي ليس أمراً فريداً، فجميع الجيوب الاستيطانية الأخرى تم فكها، وانتهت الظاهرة الاستيطانية الغربية البغيضة، إما برحيل المستوطنين أو دمجهم في السكان من أصحاب البلاد الأصليين.

ونزع الصبغة الصهيونية لا يعني إبادة الإسرائيليين أو القضاء على هويتهم الإسرائيلية أو اليهودية (كما يحلو للبعض أن يصور الأمر)، بل يعني صوغ الإطار القانوني والسياسي والأخلاقي الذي يزيل أسباب التوتر والصدام. ولعل ما حدث في جنوب إفريقية من فك للجيب الاستيطاني بعد أربعة قرون بطريقة سلمية، يمكن أن يكون نموذجاً يُحتذى ومؤشراً على ما يمكن أن يحدث للجيب الاستيطاني الصهيوني.

ولعل جوهر نزع الصبغة الصهيونية هو فصل المسألة الإسرائيلية عن المسألة اليهودية، بحيث يرى الإسرائيليون أنفسهم باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من المنطقة (وليس كما يقول أبا إيبان: في المنطقة ولكن ليسوا منها).

وعملية نزع الصبغة الصهيونية لا تتم دفعة واحدة، وإنما تبدأ بإعلان النوايا، واتخاذ خطوات قد تكون رمزية، ولكنها ذات دلالة عميقة مثل أن تلغي الدولة الصهيونية قانون العودة وتوقف بناء المستوطنات وتعلن نيتها

تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بإعادة الفلسطينيين إلى ديارهم. ويتبع ذلك خطوات أكثر راديكالية مثل إلغاء الصندوق القومي اليهودي وفك المستوطنات وتعريف الحدود الدولية للدولة الجديدة وتشكيل لجان للتحقيق في المذابح التي ارتكبت ضد الفلسطينيين لتعويضهم مادياً. ثم يمكن بعد ذلك أن تبدأ الدولة الجديدة في السماح للفلسطينيين بالعودة في إطار مقدرتها الاستيعابية، وهي ولا شك عالية، فإسرائيل الصهيونية قد نجحت في استيعاب أكثر من نصف مليون مهاجر يهودي سوفييتي في عشر السنين الأخيرة، رغم أنهم ليسوا من أبناء المنطقة، كما أن مؤهلاتهم عالية لدرجة كبيرة لم يكن التجمُّع الصهيوني في حاجة إليها. على عكس الفلسطينيين فهم أبناء المنطقة يعرفونها أرضاً وجواً وبحراً، وأعداد كبيرة منهم تعمل بالفعل داخل الاقتصاد الإسرائيلي أو عندهم من المؤهلات والكفاءات ما يسهل عملية استيعابهم.

وستكون القدس عن حق هي العاصمة الأبدية للدولة الجديدة وهي دولة متعددة الأديان، ولذا فهناك مجال للهوية الدينية اليهودية أن تعبِّر عن نفسها في إطارها. ويتوج كل هذا باندماج الدولة الجديدة في نظام إقليمي نابع من مصالح سكان المنطقة أنفسهم، ومن منظوماتهم الحضارية والأخلاقية.

أما على الجانب الفلسطيني لابد من إعلان أن الإسرائيليين ممن وُلِدوا ونشؤوا في فلسطين، بل ومن استوطنوا فيها ويودون أن تكون فلسطين وطناً لهم، لهم حق المواطنة الكاملة في هذا الكيان الجديد الذي يضم الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي.

وقد يقول البعض: إن مثل هذا الاقتراح هو من قبيل الحلم المثالي، وهو بالفعل كذلك. ولكنه هنا قابل للتنفيذ وهو أفضل بكثير من الأمر الواقع والوضع القائم، نتاج حالة الحرب الدائمة أو الراقدة والهدنة المؤقتة، والذي يستند إلى موازين القوى الداروينية، وكل أنواع الأسلحة من السلاح النووي

والأبيض إلى الحجارة والعصيان المدني. وهو وضع لم يأت لأحد بالسلام أو الطمأنينة، ولعل تعودنا على منظر الدماء وإدماننا لصوت المتفجرات وتقبلنا للعنف والقوة سبيلاً وحيداً لحسم الصراعات هو السبب وراء استخفافنا الكامل بالحلول الراديكالية ووراء هرولتنا وراء محاولات السلام الجارية التي تهدف إلى ترجمة الوضع القائم المبني على الحرب إلى وضع سلام دائم، وهو أمر مستحيل فهو ضد طبيعة الأشياء، فمثل هذا السلام تقوضه بنية الظلم التي تولِّد التوتر والصراع الدائم.

والله أعلم.

❊ ❊ ❊